المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الخامس من المجلد السابع والثمانين

١ ديسمبر سنة ١٩٣٥ — ٥ رمضان سنة ١٣٥٤

ذرع الفضاء

والاعلام التي يعتمد عليها في القياس

اذا وقف قائد على قمة اكمة وحدّق بنظارته في اشباح متحركة عند السفح، استطاع ان يعلم بوجه عام هل هذه الاشباح فرقة من المشاة او من الفرسان وهل جنودها مردة او اقزام. كذلك ربّان السفينة التي ترود شواطىء معينة، يتعلم بالمرانة، ان يتبين المنائر المختلفة من شدة ضوئها، او ما تتصف به خاصة في فترات الاضاءة والظلمة. وعلى منوال القائد والربان نجد علماء الفلك المحدثين، يحاولون النفوذ الى اسرار الفضاء، بالتحديق في تلك المنائر الكونية العجيبة — نعني النجوم المتغيرة

معظم النجوم في الفضاء تضيء ضوءاً لا تغير في قدره، لان ما يلتاب النجوم من الاحداث بوجه عام، يستغرق عصوراً متطاولة قبل ان يبدو اثره في حجمها او كتلتها او ضوئها. ولكن العلماء اكتشفوا في العصور الحديثة، نجوماً يتغير مقدار ما تطلقهُ من الضوء تغيّراً ظاهراً في فترات منتظمة. فما كادت هذه الظاهرة تكشف وتحقق حتى اضطرب لها الفلكيون، ثم لما علموا كيف يستندون اليها في حل بعض الالغاز الكونية، رحّبوا باكتشافها ايما ترحيب. ذلك انهم باعتمادهم على خصائص هذه النجوم المتغيرة، تفتحت لهم ايما تفتح في رحاب الفضاء، وتمكنوا من ان يعيدوا رسم الخريطة الكونية، على وجه ادق وأوفى، مما اتيح لها قبل اكتشافها

فالنجوم المتغيرة، في عرف الفلكيين المحدثين والمعاصرين، بمثابة، المتر والذراع، تمكنهم من ذرع الفضاء

يعرف هذا الضرب من النجوم ، باسم « المتغيرات القيفاوية » Cepheid Variables نسبةً الى النجم المعروف باسم « دلتا قيفاوس » وهو اشد هذه النجوم اشراقاً مما يرى منها بالعين المجردة . ونجمة القطب متغيرة قيفاوية كذلك

هذه النجوم قد تكون حُمْراً او مبياضّة ، او صفراً ، ولكنها على اختلاف الوانها ، تنبض نبضاً منتظماً كأن كلاً منها قلب كبير ينقبض وينبسط . او كأنها شعلة من النار ، تمدها حنفية تفتح وتقفل في فترات منتظمة ، فاذا فتحت كبرت الشعلة ، واذا اقفلت ضؤلت الشعلة حتى تكاد تنطفي. اما فترة التغير فتختلف باختلاف النجم ، او باختلاف صنفهِ ففترة النجم المعروف باسم « دلتا قيفاوس » ، خمسة ايام ونصف يوم ، وهي خاصّة ثابتة من خصائصهِ ، وهو يتميّز بها

ويؤخذ من مباحث الفلكيين ان اشراق النجم الحقيقي متصل بفترة تغيّرهِ . فالنجم المتغير الذي فترة تغيُّرهِ ، ثماني ساعات ، يبلغ اشراقهُ مائة ضعف اشراق الشمس . اما النجم المتغير ، ذو الفترة الطويلة ، فيفوق اشراقهُ اشراق الشمس الوف الاضعاف . وقد يبلغ طول فترة التغيُّر في نجم ما مائة يوم ، فيفوق اشراقهُ اشراق الشمس ٣٠ الف ضعف . فاشراق النجم يزداد بازدياد فترة التغيُّر

فاذا عرفنا طول فترة التغيُّر ، في نجم من النجوم ، عرفنا مقدار اشراقهِ بالقياس الى غيرهِ من المتغيّرات القيفاوية . ثم ان بعض هذه النجوم ، قريب منا يمكن قياس بعدهِ عنا بطريقة اختلاف الزاوية . فاذا اتخذنا نجماً من هذا القبيل اساساً للقياس ، وعرفنا الصلة بين طول فترة التغيُّر ومقدار الاشراق ، استطعنا ، ان نعيّن بطريق غير مباشرة ، بُعد المتغيّرات القيفاوية المختلفة واشراقها بمعرفة فترات تغيُّرها

ooo

والظاهر ان النجم المتغيّر ، المعروف باسم « ميرا » كان اول نجم متغيّر عرفهُ الانسان ففي سنة ١٥٩٦ كان الفلكيّ الهولندي دافيد فابريكيوس ، يرصد السماء ، فدهش دهشاً عظيماً ، عند ما رأى في صورة قيطس (الحوت) نجماً ، آخذاً في التضاؤل ، حتى غاب عن بصرهِ . ثم زاد دهشهُ واستفحل ، عندما رأى النجم نفسهُ ، في ليالٍ تاليةٍ وقد اخذ اشراقهُ يزداد حتى صار من اشد النجوم لمعاناً في رقعة الفضاء . والمسلَّم بهِ عند علماء الفلك الآن ، ان ميرا نجم متغيّر ، يكون من نجوم القدر الثاني ، اذا بلغ اقصى اشراقهِ ، ويضؤل حتى يصبح من نجوم القدر التاسع ، اذا بلغ ادنى اشراقهِ

وما اشرف القرن التاسع عشر على نهايتهِ ، حتى كان العلماء قد كشفوا عن عشرة نجوم او اثني عشر نجماً متغيراً . اما الآن ، وقد ادرك العلماء ، ما لهذه المتغيرات القيفاوية ، من المكانة في علم الفلك الحديث ، وما لها من الاثر في النفوذ الى بعض اسرار الفضاء ، فقد اصبح البحث عنها ، من اهم فروع الرصد الفلكي ، وقد بلغ عدد ما رصد منها حتى الآن نحو سبعة آلاف نجم ، كشف معظمها في مرصد جامعة هارفرد الاميركية

قد يكون اول سؤال يخطر للقارىء في صدد هذه النجوم ، عن الباعث على تصرفها هذا التصرف العجيب . فاذا كان القارىء يعلّق شأناً عظيماً بالردّ على هذا السؤال فانهُ ولا ريب ، سيقضي عليهِ بخيبة الامل ، لانَّ العلماء ما زالوا مختلفين في ذلك . فالعلاّمة ادنغتن ، يرى ان الباعث على ذلك ، كون النجوم في توازن غير مستقرّ . وشابيلي الاميركي يذهب الى ان هذه النجوم قد تكون في حالة اهتزاز ، وان اهتزازها يسبّبهُ تغيُّر في حرارتها وحجمها ولونها . اما جينز فيقول ان المتغيرات القيفاوية ، ليست الاَّ نجوماً ، في دور الانشطار ، على مثال ما تنشطر الخلية خليتين . ولكن ليكن تفسير حالتها هذه ما كان ، فان خاصتها الاساسية التي تمكننا من معرفة ابعادها ، بمعرفة اشراقها المستخلصة من قياس فترة تغيُّرها ، ظاهرة من اخطر الظواهر في علم الفلك الحديث

***

ادرك العلماء اولاً مكانة المتغيّرات القيفاوية في علم الفلك ، لما لاحظت المس ليفيت Miss Leavitt سنة ١٩١٢ في مرصد هارفرد ، ان فترة التغيّر في لمع النجوم المتغيّرة في « غيمة مجلان الصغرى » Lesser Megellanic Cloud اقصر من فترة التغيُّر في النجوم المتغيّرة الشبيهة . ولما كانت جميع النجوم في « غيمة مجلان » على بُعد واحد من الارض ، فالاختلاف في اشراق النجوم ، لا يمكن ان يسند الى الاختلاف في بُعدها عن الراصد ، ولا يمكن ان يفسر الاَّ بالتسليم ، بان بين النجوم اختلافاً حقيقيّاً في اشراقها . فافضى اكتشاف المس ليفيت الى القول بان مدى فترة التغيُّر تختلف باختلاف مقدار الاشراق ، فالنجوم التي فترات تغيُّرها قصيرة ، اقل اشراقاً حقيقيّاً من النجوم التي فترات تغيُّرها طويلة

كان شابيلي Shapley حينئذٍ شابًّا في العشرين من عمره ، يشتغل بعد تخرجهِ في مرصد جبل ولسن ، فادرك في الحال قيمة هذا الاكتشاف ومقتضياتهِ . فقال في نفسهِ ، اذا كان لدينا نجمان متغيّران ، س و ص ، في ناحيتين مختلفتين من الفضاء ، وثبت من رصدها ، ان فترتي تغيرهما واحدة فلا بدَّ ان يكون اشراقهما الحقيقي واحداً كذلك . فاذا كانت اي اختلاف بينهما في اشراقهما البادي لعين الراصد ، فسبب ذلك الاختلاف ، انما يكون الاختلاف بينهما في بعدهما عنا

ومع ان العلماء كانوا ميّالين ، في البدء ، الى السخرية من رأي « الفلكيّ الناشيء » ، تمكن شابيلي ، بذكائهِ وصبرهِ ، من تأييد رأيهِ ، فأقنع علماء الفلك ، بان المتغيّرات القيفاوية ، بمثابة أعلام منصوبة على طريق الكون نقيس بها أبعاده

فالمتغيّرات القيفاوية منثورة في رحاب الفضاء ، لا تؤثر ناحية منهُ على اخرى . وتبيّنها سهل على من أخذ نفسهُ بأسباب العلم والرزانة ، يعرفها كما يعرف الربّان كل منارة على الساحل الذي يجوبهُ . فاذا رأى الربّان نور منارة ، وعرف المنارة ، رجع الى خريطتهِ ، فيعلم منها قوة ضوئها . كذلك الفلكي ، يسهل عليهِ ، ان يعرف ، مقدار الاشراق في احدى هذه المتغيرات ، من رصده فترة

دورانها . ثم بالقياس الى ابعاد المتغيرات التي قيست أبعادها بطريقة اختلاف الزاوية او غيرها من الطرق الفلكية ، يستطيع ان يعرف بعد المتغيرة القيفاوية الجديدة

وليس لدى الفلكي الآن ، وسيلة أخرى ، توازي هذه الوسيلة ، في تمكينه من قياس الابعاد في ارجاء الفضاء القاصية

***

وما مضى شابيلي في بحثه حتى تبين لهُ ان هذه النجوم المتغيّرة بعيدة عنا بعداً ساحقاً يجعلها خارج الكون ، كما كان يتصوّره علماء الفلك في مطلع القرن العشرين فانتضت النتائج التي بلغها ان يعاد النظر في تقدير حجم الكون وشكله

فلما أتقن الاسلوب الجديد في تقدير أبعاد النجوم ، رأى شابيلي ان يطبقهُ على معرفة حجم المجرّة . فحوّل عنايتهُ الى العناقيد النجمية ، التي تحتوي على طوائف كبيرة من هذه المتغيرات القيفاوية . ومنها نحو مائة عنقود قائمة جميعاً عند أطراف المجرّة

هذه العناقيد تكون منتشرة لا شكل لها اذا كانت داخل المجرة ، ولكنها ترى مركّزة ، كأنها عناقيد كثيفة غير مستطيلة من العنب اذا كانت خارجها . والواقع انها اذا اخترقت المجرّة في خلال سيرها ، مزّقها الجذب كل ممزّق فتبدو منتشرة وليس لها شكل معين . لذلك في وسع الباحث ان يقول ان العناقيد المركّزة ، بمثابة الحدود القصوى للمجرّة

على ان النجوم المتغيرة في هذه العناقيد المركّزة بعيدة جدًّا ، فلما بحث شابيلي في الابعاد التي قدرت لها في الماضي على ضوء العلم الحديث ، ظهر انها خطأ ومبنية على التخيل في الغالب . فثمة عنقود يعرف في الخرائط النجمية باسم مركب من حروف وارقام هي N. G. C. ٧٠٠٦ وهو يبعد عنا مائتي الف سنة ضوئية ، اي ان الضوء السائر بسرعة ١٨٦ الف ميل في الثانية لا يجتاز المسافة بيننا وبينهُ الاَّ في مائتي الف سنة !

فلما أتم شابيلي بحثه في حدود المجرة على الاساس المتقدم ، رسم لنا صورة جديدة لها ، واضعاً كل عنقود من العناقيد النجمية التي تناولها بحثه في المكان الخاص به . واذا المجرة في رسمه هذا قرص من النجوم اشبه ما يكون بحبة من العدس او بساعة الجيب . ونظامنا الشمسي ، ليس في مركز المجرة كما ظن الفلكيون المتقدمون بل يبعد عنهُ نحو ٥٠ الف سنة ضوئية

واذاً فشمسنا ليست قلب المجرة ، بل هناك كتلة نجمية كبيرة في كوكبات الرامي والحواء والعقرب ، هي في الراجح هذا القلب . الاَّ ان مركز المجرة محجوب عن انظار مراقبينا لبعده من ناحية ولان حجاباً كثيفاً قاتماً من المادة يحول بيننا وبينه . فنحن لا نستطيع ان نرى ذلك المحور الذي تدور حوله شمسنا واربعون الف مليون شمس اخرى ، بسرعة ٢٠٠ ميل في الثانية ، ولا تتم دورتها حوله الاَّ في مائتي مليون سنة . وقد يكون المرتب الجديد ، الذي قطر مرآته مائتا بوصة

(اي ضعف قطر المرآة في مرقب مرصد جبل ولسن) عوناً جديداً للعلماء على ترسيع نطاق ما يعرفونهُ عن مركز المجرّة . فالقرى الكونية ، والجاذبة منها برجع خاص ، تخترق الغبرم الغادية السود ، وتفعل في حركات النجوم ، وقد يمكننا هذا المرقب الجديد ، من تبين حقائق جديدة عن هذا المركز ولو بقي محجوباً عن عيوننا

ومع ان الدكتور شابيلي يرى ان المضيّ في البحث مدة اربع سنوات او خمس ، قد يميط اللثام قليلاً عن اسرار مركز الكون ، الاّ انهُ يتخيّل من الآن انهُ قد يكون في ذلك المركز شمس جبّارة ولا كالشموس ، تدور حولها المجرّة كما يدور النظام الشمسي حول الشمس . ولكن نظرية اينشتين تعيّن حدوداً للاجرام الفلكية لا يمكن ان تتمدّاها في ضخامتها . فنكب الجوزاء او يد الجوزاء Betelgeuse اضخم شمس عرفت مقاييسها حتى الآن ، ومادّتها تكفي لنشوء ٢٥ مليون شمس من حجم شمسنا منها . فوجود شمس اكبر كثيراً من منكب الجوزاء في مركز الكون ، من المستحيلات بحسب نظرية اينشتين . الاّ ان مجموعة الشموس المركزة في منطقة المركز ، تفعل كأنها شمس واحدة

***

ان المتغيرات القيفاوية التي مهّدت للعلماء السبيل الى قياس ابعاد المجرّة ، والصعود الى مقر مركزها ، فتحت عيونهم كذلك ، على مدى الخليقة الكرتية . ففي السنوات الاخيرة ، رصد العلماء ، بمرقب جبل ولسن ، السدم الحلزونية التي خارج مجرتنا ، وقد كانت تحسب ، قبل عقد او عقدين من السنين ، غيوماً منتشرة من الغبار الكوني ، فثبت من رصدها ان فيها نجوماً متغيرة كذلك . فسديم المرأة المسلسلة ظهرت فيها نجوم متغيّرة لاشك فيها . فثبت من رصد هذه المتغيّرات ان السدم مجموعات ضخمة من النجوم التي لا ترى لبعدها ، ثم ظهر من قياس فترات تغيّرها ، ان السدم تبعد بعض اطراف مجرتنا مئات الالوف بل الملايين من سني الضوء . فبالاستناد الى هذا الضرب من القياس تبين ان سديم المرأة المسلسلة يبعد عنا ٨٠٠ الف سنة ضوئية . فلما مضى العلماء في البحث ، ظهر ان المرأة المسلسلة اقرب ما عرف من هذه السدم ، وان السدم الاخرى ابعد منها عنا . لعلهم لا يستطيعون ان يتبينوا نجوماً متغيرة او غير متغيرة في سائر السدم . ولكنهم يعتمدون الآن على وسائل اخرى تختص بشكل السديم وضوئهِ يمكنهم من تقدير ابعادها . والامل هنا ، كالامل هناك ، معقود على المرقب الجديد . فانهُ ولاشك سوف يمكن العلماء من التدقيق في تعيين ابعاد الملايين السديم المعروفة الآن ، علاوة على كشف ملايين من السدم الاخرى ، لم يتح لعين مرقب ان تراها حتى الآن

***

ولعلنا نستطيع حينئذٍ ، ان نكشف الستار قليلاً عن القوى الهائلة المتفاعلة في رقعة هذا الكون العظيم !

معجم الاستاذ فشر

للدكتور بشر فارسي

إنّ لغتنا هيأت اذ تعوزها للمعاجم ، في طليعة آثار العربية المطبوعة امثال «الجمهرة في اللغة» لابن دريد ، و «الصحاح» للجوهري و «اساس البلاغة» للزمخشري و «القاموس» للفيروزابادي و «لسان العرب» و «تاج العروس» ، اذا استثنيت المعجمات المرتبة على المعنى نحو «المخصّص» لابن سيدة . وثمّة ما لا يزال مخطوطاً كجانب من «كتاب العين» للخليل [1] وجزء من «المجمل في اللغة» لابن فارس [2] فضلاً عما عفا اثره مثل «العُباب» للصاغاني (او الصغاني) . وهذه المعاجم النفيسة تثبت الالفاظ والتراكيب الفصيحة ، وربما اتفق لطائفة منها ان تشير الى المصطلح والدخيل والعامي في معترَك الكلام . غير انها سمية المتناوَل الأعلى المتفقه في اللغة البصير بأساليب البحث ، ذلك بأن مواد بعضها مرتبة على مخارج الحروف نحو «الجمهرة في اللغة» او بأن المادة الواحدة مدرجة على غير تنسيق نحو «لسان العرب»

***

وقد فطن اهل اللغة للقرن الماضي الى وعورة ملتمس هاتيك المعاجم فراحوا يصنفون ما هو ادنى منالاً ، فكان «محيط المحيط» للبستاني الكبير و «أقرب الموارد» للشرتوني وغيرهما على ما جرى في مطاويها جميعاً من الاوهام والسقطات

وهل اكتسك ان نفراً من المستشرقين نحوا ذلك النحو فسهلوا لابناء جلدتهم مطلب لغتنا ، فكان معجم (لين) Lane الجزيل فائدة ومعجم (فرَيْتَج) Freytag وأصحابهم ؟

بيد ان ارتقاء فقه اللغة اخذ بأيدي المشتغلين باللغة الى غير هذا ، ذلك ان الامر آل بهم أن يعدّوا اللغة كياناً يموت ويحيا ويتحوّل ويبعث ، فأقبلوا ينظرون في نشوء اوضاعها وانقراضها على تعاقب الايام كما ينظر علماء الارض في ارتفاع نواحيها وانخفاضها على كرّ الزمان . فللغة تاريخ كما أنّ للامة الواحدة تاريخ

---

(١) نشر الاب انستاس الكرملي جزءاً من «كتاب العين» عدد صفحاته ١٤٤ . فحسبي ان يمضي نيته على اتمام نشره (٢) طبع الجزء الاول من «المجمل في اللغة» في مصر (مطبعة السعادة) سنة ١٩١٤

وبهذا الحكم قد سلّم علماء العربية من عهد بعيد : افلا ترى كيف تكلموا على « تَنَقُّل » الالفاظ من معنى الى معنى وعلى « ذهاب » تراكيب و« مجيء » أخرى ؟

الاّ ان لغتنا لا تضمّ بين كنوزها معجماً تاريخيّاً يرد اللفظة الواحدة الى اصلها في اللغات السامية أو يدفعها الى اخواتها فيهن ، ثم يتصدو باللفظة من الجاهلية حتى عهدنا هذا ، متهلاً حيث يتسع المعنى ، مسرعاً حيث يضيق ، ومكثاراً في ايراده شواهد مستخرجة من امّات التآليف والمراجع المعتمد

أما الفرنجة فقد ابطأوا ان أخرجوا لاقوامهم معجمات تلك صفتها . وحسبي ان ادلّك على معجم (ليتريه) Littré الفرنسي والمصنّف حجة بل بنيان !

ذلك عمل ضخم أقبل عليه المستشرق الالماني الاستاذ (فشر) A. Fischer وهو من أعضاء مجمع اللغة العربية الملكي . وقد سبق لي أن حدثتك عن ذلك العالم عند الكلام على مزايا الفن الالماني[1] ولنجدنّ في الاقبال على مثل ذلك العمل دليلاً آخر على ما سقته لك هنالك :

***

أخبر الاستاذ (فشر) عالَمَ الاستشراق بعزمه على تصنيف معجم تاريخي للغة العربية سنة ١٩٠٨ في مؤتمر المستشرقين المنعقد في (كوبنهاجن) ثم سنة ١٩١٢ في مؤتمر المستشرقين المنعقد في (أثينه)

ثم انهُ نشر سنة ١٩١٨ في مجلة « الجمعية الالمانية الشرقية » Zeitschrift der deutschen Morgenlaendischen Gesellschaft (ج ٧٢ ، ص ١٩٩ وما يليها) مقالاً اثبت فيه مبلغ معجمه في ذلك العهد ورغب الى اصحابه من المشتغلين بالمشرقيات ان يمدوه بما تصل اليه ايديهم

***

وبعدُ فقد اتفق لي في الشهر الذي خلا ان اشخص الى مدينة لَيبْتْسِش Leipzig حيث يقيم الاستاذ (فشر) . فلم يسعني الاّ ان التي الرجل واطارحهُ الحديث في معجمه . فاذا به يخبرني انهُ أتمّه وان الجزازات التي بين يديه تبلغ الف الف وخمسمائة الف . ثم صح لي بالوقوف على جانب مما دوّنهُ تدويناً فاذا الذي أراه يجزّئ : يأتي المصنّف باللفظ العربي ويذكر مفاده بالفرنسية والانجليزية ثم يردفهُ بما يجانسهُ في السريانية والاّكدية والعبرية والحبشية وما اليها ، ثم يذكر المعاني المختلفة اذا كان اللفظ « مشتركاً » ، ثم يبسط دقائق كل معنى من حيث موقع اللفظ في سياق الكلام . وحبهات أن يرسل القول ارسالاً ، فهو يحتج في كل موطن بنصوص قيدها مبني على الضبط والوثوق . واستناده الى الشعر الجاهلي فالقرآن فالحديث فتآليف المؤرخين الأولين امثال

(١) انظر « المقتطف » اكتوبر ١٩٣٥ ، ص ٣١٠

الطبري والادباء السابقين كمثل ابن المقفع واشعار المخضرمين والاسلاميين والطبقة الأولى من المولدين . فانك ترى أن ما جمعه لا يعدو القرن الثالث للهجرة

هذا وقد انتقد المصنف بما عمله من قبل اضرابه من علماء اللغة أمن العرب كانوا أم من الاعاجم . الا انه لا يعوّل عليهم من طريق مباشر ، وبيان ذلك أنهُ ان اصاب عند القوم معنى لم يظفر به في المؤلفات التي استند اليها اشار اليهِ ونسبهُ الى صاحبه

***

بَقِيَ ان هنالك مُشكلتين اذنتُ لنفسي ان انصبهما للاستاذ (فِشر) . اما الأولى فتلحق بالاستشهاد ، واما الثانية فترجع الى التدوين نفسه . وقصّة الأولى أن المصنف يستدل بالحديث . ومما كاد يجمع عليهِ الائمة — وفيهم صاحب « الكتاب » والخليل والكسائي — ان اثبات اللغة بكلام النبي مرفوض نظر لأنّ غالب الاحاديث مرويّ بالمعنى ولأن الاعاجم والمولدين سلّطوا عليها ايديهم حتى أنّ الحديث الواحد ليأتي على اوجه شتى من الرواية واللفظ . غير ان نفراً من النحويين واهل اللغة — وفيهم ابن خروف وصاحب « الألفيّة » جوّزوا ذلك ، ولهم حججهم . ولتجدن القضية مبسوطة في مقدمة « خزانة الأدب » للبغدادي . ثم ان المصنّف يقدّم الشعر الجاهلي على القرآن في الاستشهاد ، فان نظرنا الى التعاقب التاريخي ما وجدنا المصنف الا على حق . ولكنّا اصبحنا نعدّ القرآن الحجة المقدّمة — جرياً على طريقة الاستاذ الدكتور طه حسين — فنبذنا ما ذهب اليهِ الأقدمون أن لغة القرآن تصيب شواهدها في الشعر الجاهلي . وأما المشكلة الثانية فنقل الالفاظ السامية دون العربية والالفاظ الافرنجية الى لغتنا ، وهذا الفن معروف عند علماء الغرب بكلمة Transliteration ، وهو مجهول عندنا . الا ان ابن خلدون لمحه بعض الشيء في «مقدمته» ثم جرى الشيخ ابراهيم اليازجي مجراه في مجلته « الضياء » . والحق اننا ما نزال نعاني نقل الالفاظ الاعجمية الى لغتنا على وجهها الصحيح اي دون ان نعمد الى « النحت »

كيفما كان الحال فان تينك المشكلتين لاحقتان بالعَرَض ، ولا عُسْرَ في حلّهما . والتحقيق ان المعجم الذي يعالج الاستاذ (فِشر) تصليفه في المحل الأول من النفاسة . ولعلّ اعضاء مجمع اللغة العربية الملكي يفطنون الى قدره فيتعاونون على ابرازه ، وعسى ان يواصلوا العمل فاذا فرغوا من الفصيح الصرفوا الى المُصْطَلَحَ والعامي والدخيل ، والمصنفات في هذه الثلاثة الفنون الاخرى — قديمة كانت او حديثة — متداولة بين الناس [1]

(١) سألت الاستاذ (فشر) — وهو العالم باللغات الميتة والحية — قلت : «كيف ترى العربية ؟» قال : «ما اعرف لغة اغنى منها ولا اسلس مقاداً ولا ارق حاشية »

المال عند الاقدمين وعندنا

تضخم الثروات وتوزيعها

في مختلف العصور والامم

لامين الريحاني

المال يعمر الممالك ويخربها ، يعمرها اذا قرن في استخدامه العلمُ وحب الانسانية ، ويخربها اذا انحصر استخدامه في حب الذات والمصالح الخاصة

المال رأس النعم في الحياة الدنيا ، ورأس المحن كلها . هو رأس النعم اذا توزَّع توزُّعاً عادلاً بموجب شرائع يسنها الانسانيون الصادقون من السياسيين ، وهو رأس المحن اذا تكتَّل وتضخم ، وكانت الشرائع تساعد في تضخمه وتكتُّله

المال في الحال الاولى كالنهر العديد الفروع ، الكثير الترع والاقنية ، عميم الفائدة وهو في الحال الثانية كالسد تتجمع فيه مياه النهر لتستخدم في احياء ارض محدودة دون سواها

كان المال خير وسيلة للانسان الاول في معاملاته المدنية الاولى ، فصار شر وسيلة اذ اتسع نطاق تلك المدنية ، وتعددت المطامع البشرية . بيد انه في تطوره الحديث ، عائد الى وضعه الاول ، فيطلق اذ ذاك في توزعه ، من القيود الاقتصادية التي تسبب التضخم والتكتُّل ، وتقاس قيمته بمنافعه العامة لا الخاصة

المنافع الخاصة ! لقد كان اصحابها يتمتعون ، في المدنيات القديمة وفي مدنيتنا السابقة للحرب العظمى ، بكثير اسباب الفلاح ، وبكل حقوق الاحتكار السياسية والاقتصادية . ما كان والحق يقال منافع تذكر غير المنافع الخاصة . وقد كانت في المدنيات الاولى تستعين حتى بالدين ، فتُنزَّل الآيات من اجلها ، ويتكهن الكهان لتعزيزها

اما عامة الناس ، السواد ، العاملون المستجون والمجاهدون ، فحسبهم التقوى ونعمة الآلهة . حسبهم رضى الكهان والاشراف ، اولئك الذين استغلوا الاديان ، واستغلوا بثمار جد الانسان ، واستمتعوا بخيرات الارض في كل مكان ، فكانوا القليل ، وما كانوا كراماً الاَّ نادراً ، وكان السواد من الناس يدفعون الخراج ، و «يأكلون» الكرباج ، ويصلُّون في الهيكل لرب العرش ورب الثالوث

اني محدثك بما يمليه العقل لا القلب عليَّ ، وبما هو من وضح التاريخ لا من النظريات ، فلا اقول غير ما يوجبهُ الاثنان ، ويبيته البرهان . فاستمع لي ، دام حلمُك

ما تنتج بخير الارض في الزمان القديم غير الملوك والامراء ، والرؤساء المدنيين والدينيين ، وقليل غيرهم من المقربين . وما عُمِّر في الممالك عمارٌ يدوم طويلاً ويذكَر ، غير ما كان للرؤساء والامراء والملوك ، او ما كان مؤيداً لسلطانهم ، معززاً لنفوذهم ومصالحهم ، ما عُمِّر غير الطياكل والقصور ، والطرقات للقوافل والجنود ، والاقنية والترع في بعض الاماكن القري ، اول مصادر الثروة في العالم

وما كان المال يتوزّع توزُّعاً واسع النطاق ، فترقّ حواشيه في الاقل ويزداد خيرهُ ، بل كان يتجمّع فيتكتّل ، فيسوء لذلك مصير الامة والمُلْك . وقد كانت الكتلة الكبرى للملك طبعاً ، والكتل الاخرى للامراء من البيت المالك ، ثم للكهان والاشراف

اما الباقي من الامة ، اي السواد ، فقد كانوا على الاجمال محرومين حتى التملك ، مستعبَدين حقيقةً ان لم يكن اسماً كذلك . ومن كان منهم صاحب عقار ، كان ذلك العقار كوخاً في حي الفقراء ، او بيتاً حقيراً في ظل قصر من القصور

لقد اكثرت من البيان فوجب علي البرهان . مهما كان من تجريح التاريخ ، ومهما قيل في شطط المؤرخين ، فالحقيقة التي ذكرت ظاهرة لا ريب فيها . قلت ظاهرة ، وما كانت كذلك قبل ان شرع الآريون ينبشون مدنيات الماضي القديم ، فأظهروا تلك الحقيقة ، وأيدوها بالادلة المحسوسة

هي ذي في المعابد والقصور ، وفي قبور اصحاب القصور والمعابد . فقلما يعثر الآريون على شيء غيرها . هي ذي آثار الملوك والاشراف والكهان . واين آثار السواد من الناس ؟ انهم حتى في قبورهم باقدون ، وليس في حفريات الآريين ما يجدد لهم ذكراً ، غير ماعثر مثلاً من النحاس ، او قطعة من الفخار . وان سألت عن آثار البيوت بيوتهم والقبور ، دلوك على آثار القصور والمعابد

هذي هي مدنية الاقدمين ، مدنية الكهان والاعيان ، مدنية الاقلية الصالحة التي حملت الكرباج باحدى يديها ، والمبخرة بالاخرى ، فأشعلت في المعابد البخور ، وما ابقت للسواد من الناس غير القبور . بل حرمتهم حتى القبور التي تنجو من يد الدهر الهدّام ، فينبشها الآري في هذا الزمان

تلك القبور الملأى بالجواهر والتحف وبرموز الخرافات ان هي الاّ قبور من حلوا الكرباج و « أكلوا » الخراج . اما قبور من دفعوا الخراج و « أكلوا » الكرباج فَسَلْ عنها الزمان

وسَلْني انا عن عدد من لا قبور لهم ، وعدد اصحاب القبور الحافلة بالكنوز . سلني اذا شئت عن النسبة ، نسبة الاسياد الى العبيد في قديم الزمان . ولا تعجبنَ اذا قلت لك ان النسبة بين الفريقين لكنسبة الحبة الى القبة

***

واليك من التاريخ بالمثل والبرهان

عند ما اشتد دور الانحطاط الاخير في مصر، ذلك الدور الذي بدأ في الدولة العشرين (١٢٠٠ — ١٠٩٠ ق . م .) كانت ثروة البلاد كلها بيد عدد من الناس لا يتجاوز اربعة بالمائة من عدد السكان. فلو فرض ان عدد السكان في عهد الفراعنة الرعمسسيين كان خمسة ملايين ، فالذين ملكوا الارض ، واستمتعوا بخيرها ، لا يتجاوزون المائتي الف . هي الطبقة المالكة حقيقةً ومعنىً وقد كانت مؤلفةً من الملك والاشراف والكهان ، وقليل ممن دونهم من التجار والحكام ورؤساء الجيوش

على ان سيادة الكهان في دور الانحطاط تعاظمت بتعاظم ثروتهم . فقد كان الفراعنة يزيدون أوقاف الهياكل ليؤيد ارباحها سلطانهم . بل كانوا يقدمون الاموال للآلهة ، ويتفنون عليهم ، سبحانهم وتعالوا ، الاوقاف الطائلة من مصانع ومزارع ومدن ، ليظل الآلهة راضين عنهم ، مؤيدين لعروشهم . وقد بلغت تلك الاوقاف في عهد رعمسيس الرابع خمسة عشر جزءاً من المائة جزء من ثروة مصر والبلدان التابعة لها (١)

وفي بابل ، خلال دور انحطاطها ، كانت النسبة بين اهل المال واهل الفاقة اقل مما كانت في مصر ، اقل قليلاً ، اي ثلاثة بالمائة . فلو قلنا فرضاً ان سكان مملكة بابل ثلاثة ملايين كان المستحوذون على ثروة البلاد تسعين الف غني . وقد كانوا هم المالكين حقيقةً ومعنىً ، باسم الآلهة ، مثل اخوانهم في مصر

اما في بلاد فارس فقد كانت الحالة الاقتصادية اشد وانكر . في بلاد فارس ، حتى في عهد داريوس الكبير ، كان عدد القابضين على زمام الثروة في الامة اثنين بالمائة فقط ، اي نحو مائة الف بشر ثري. هذا اذا كان عدد السكان خمسة ملايين ، يوم كانت العجم تحارب الاغريق

وما كانت بلاد الاغريق ، على علو كعبها في التمدن ، تفضل بلاد فارس في توزع ثروتها . بل كانت تلك الثروة منحصرة كذلك في القليل القليل من الناس ، لسيئهم الى السواد نسبة مخجلة . هي مخجلة حقاً لانها من حقائق الحياة « الزانية » في بلد سقراط وبرقليس

---

(١) في ما يلي بعض الارقام من احصاء في السجل البردي المعروف بسجل (هاريس) ذكره الاستاذ برستد Breasted في كتابه تاريخ مصر صفحة ٢٩١ — فالآلهة او الهياكل ، او بالحري وكلاء الهياكل والآلهة ، اي الكهان ، كانوا يملكون في عهد رعمسيس الرابع :

١٠٧٠٠٠ رقيق (من كل خمسين نفساً من الاهالي نفس واحدة للهيكل)

٥٥٠٠٠٠ رأس من المواشي

٧٥٠٠٠٠ فدان من الارض (اي ١٥/١٠٠ من ارض مصر الصالحة للزرع)

٨٨ مركباً من مراكب النيل

١٦٥ مدينة في مصر وسورية (اي خراجها كله للهياكل)

أضف الى ذلك ما كان يقدم للآلهة من التحف والجواهر والمال ذهباً وفضة . فقد كان الدخل السنوي للاله امون وحده ٢٦٠٠٠ قطعة من الذهب ، ماعدا نصيبه مما تقسم ذكره

اجل ، ان عدد الاغنياء في دور انحطاط اثينة لمحتقر ومخجل . كيف لا ، وهو لم يبلغ الجزء الواحد بالمائة ؟ بل كان نحو نصف جزء الواحد . ومعنى ذلك ، ايها الفاضل ، انهُ لم يكن بين كل الف فقير غير خمسة من اصحاب الثروة ! فلو فرضنا ان عدد السكان يومئذٍ اربعة ملايين فعدد الذين احتكروا ثروة الامة الاغريقية يكون عشرين الف سيد اغريقي

اما العرب اجدادنا فقد كانوا في قديم الزمان ، وفي الجاهلية ، من الشعوب التي ما عرفت من المال — لا من خيره ولا من شره — شيئاً كثيراً بل كانوا ، الاَّ في اليمن ، وفي قريش من القبائل ، فقراء فقراء . . وقد كانت الثروات اليمانية ، واكثرها صغيرة ، منحصرة في الاذواء وذويهم ، والمقربين منهم

ثم بعد الفتح اخذت تتسرَّب اموال الامم الى بيت المال في المدينة ، فأحسن استخدامها الخليفتان الاول والثاني ، وأساء استخدامها الخليفة الثالث ، فما ابقى لخلفه غير القليل ، بذل معظمهُ في حربٍ خاسرة

وبعد ذلك أخذت الثروة تتضخم في عهد الامويين ، ثم في عهد العباسيين . ولكننا لا نعلم حق العلم مقدار تكتُّلها — الاَّ في بيت المال طبعاً — ومقدار النسبة بين عددي الاغنياء والفقراء في سورية والعراق . لقد عظمت ارقام الخراج ، ولا غرو ، فصارت تُعَدُّ بالوف الالوف . ولكنها كانت مطلقةً من قيود العدل ، الاَّ في ايدي الخلفاء العادلين ، وهم قليل . وكان الباقون يتصرفون في الخراج كيفما شاؤوا وشاءت اهواؤهم وملذاتهم

لا يجوز ، وانا في هذا الحقل القاحل من تاريخنا العربي ، ان امرّ ساكتاً بحالة اجتماعية جميلة خفَّرت حواشيه ، فأثمر فيها الاحسان ، وشرف الانسان . حدثنا عنها ابن بطوطة . وحسبي الآن ان اشير اليها ، وادلك عليه . هي الاوقاف المتعددة التي شاهدها في دمشق وعدد منها ما يدعو للفخر والاعجاب . على انهُ يُستدَلّ من ذلك ان المال يومئذٍ كان متكتلاً ، ولكن اصحابه كانوا من المحسنين ، فبذلوا ما استطاعوا ، في أوقافهم العديدة ، لتخفيف وطأة الفقر عن السواد من الناس

***

اذا استثنينا هذا المظهر من مظاهر الغناء عند العرب كان في وسعنا ان نقول ان الحالة الاقتصادية المنكرة كانت في مصر اخف وطأة منها في سائر الممالك القديمة . فما السبب في ذلك ؟ لم تكن مدنية المصريين ارق من مدنية الاغريق . ولكن وادي النيل اكثر خصباً من ارض اليونان . وخصب الارض وثروة الامة يتناسبان ، وقلما يفترقان . فوادي النيل ووادي الرافدين تشابها خصباً في قديم الزمان ، ونسبة الغناء الى الفقر فيهما كادت تكون واحدة

على ان الثروات تكتَّلت في تلك الممالك القديمة كلها ، وخصوصاً في ادوار انحطاطها . بل كان التكتُّل السبب الاول في انحطاطها ؛ فعُدَّ المتمولون بالمائة وبالالف ، وعُدَّ الفقراء بالملايين .

وقد كانت اكثر الامم تحدثاً — مثل الاغريق — اكبر الامم بفقرائها ، واصغرهن — ليس بالغناء — اصغرهن بالاغنياء

لا ازيدك علماً بما كان من احوال الفريقين الاجتماعية والادبية . لا ازيدك علماً بترف الاغنياء وتلف الفقراء ، بالقصور والبساتين ، والاكواخ المساكين ، بالمكرمات العلنية ، والامراض السرية . بالاباحات المحللة المضمخة بالبخور ، المكللة بالزهور ، وبالبؤر الاخلاقية التي يولدها الوحام والظلام . عُد الى التاريخ تزدد تيقناً مما اقول

واني فوق ما قدمت اعطيك البرهان الاكبر من تاريخ الدولة العالمية الكبرى ، دولة الرومان ، وقد دانت لها شعوب الارض شرقاً وغرباً ، وتسربت الى خزائنها بزومة اموال العالم فكانت رومة ، في ذلك الزمان ، كما هي لندن اليوم ، قطب السيادات السياسية والاقتصادية والمالية كلها

وماذا كانت نسبة العددين ، عدد الاغنياء وعدد الفقراء ، في تلك الامة الرومانية العظيمة ؟ لقد كانت في مصر اربعة بالمائة ، وفي بابل ثلاثة بالمائة ، وفي ايران اثنين بالمائة ، وفي بلاد الاغريق نصف واحد بالمائة ، فماذا كانت في رومة ؟

ما كان في رومة ، ايها النجيب ، نسبة تذكر بالدورة الحسابية البسيطة . لا ١٪ ولا ½ ١٪ ولا ¼ ١٪ بالمائة ولا جزء واحد من الخمس . وذلك لان الشعوب التي كانت تدفع الضرائب للرومان كانت تربي على الخمسين مليون نفس (اذا كنت مخطئاً في هذا العدد فخطأي بالنقص لا بالزيادة) . ولأن الرومان الذين ملكوا الارض لم يتجاوزوا في دور انحطاط رومة الالفين عداً

اثنان من خمسين مليوناً ! فما هي النسبة ؟ اعمل حسابك في مهل ، ودعني أؤكد الالفاظ المخجلة . اثنان من الرومان يستمتعون بثروة العالم في تلك الايام ، وملايين من الشعوب الاوربية والاسيوية فقراء فقراء ، لا يملكون — كما يقال — شروى نقير

بئس الدولة التي يدبر شؤونها ، ويستمتع بجميع خيرها ، اثنان من سادة الناس
بئس الدولة التي تعظم فتتكتل الثروة فيها ، وتصغر فتستعبد الرجال

***

ان غناء اولئك الرومان لشبيه نسبةً بغناء اصحاب الملايين في اميركا . فقد بلغت ثروة احدهم ، حر إزيدوروس ، بحسب وصيته ، ٤٬١١٦ رقيقاً ، و ٣٬٦٠٠ رأس من البقر ، و ٢٧٥٬٠٠٠ رأس من مختلف المواشي ، ما عدا نصف مليون من المال ذهباً . وما كان إزيدوروس باقصى الرومان ، وما ثروته هذه الا ما تبقى عنده بعد خسارة جسيمة

اما ثروات عوامل الرومان فقد كان بعضها يدنو من الثروات الاميركية الكبرى . كثروة الامبراطور طيبيريوس مثلاً التي حسبت عند وفاته باثنين وعشرين مليون ليرة ذهباً

فأين منها ثروات ملوك هذا الزمان وحكامه ؟ لقد تقدمنا من هذا القبيل . فالملوك والسياسيون في زماننا قلما يثرون . انما الاثراء للتجار ، وارباب الصناعات والمهن

ومن هؤلاء ، في بلاد مثل انكلترا ، تتألف طبقة الاشراف . فصاحب معمل الصابون مثلاً ، او صاحب طاقة من الجرائد والمجلات ، وقد صار مليونيراً بفضل عصاميته ، يصير نبيلاً بفضل تقليد قديم لتخليد طبقة النبلاء . وكيف تخلّد هذه الطبقة وتظل رفيعة الشأن ، عزيزة الجانب ، اذا كانت الحياة لا تتجدد فيها على الدوام ؟ انها لحكمة بليغة في المحافظة والتجدد

وهذه الطبقة الشريفة تملك قسطاً وافراً من ارض انكلترا . كل نبيل قروي ، ولا يعكس

وفي انكلترا من اصحاب الملايين ٥٤٣ ثريًّا (احصاء سنة ١٩٢٩) اما اصحاب الثروات الصغيرة التي تتراوح بين العشرة آلاف والمائة الف جنيه ، فيبلغ عددهم ٤،٦٥٠،٠٠٠ اي نحو عدد سكان مصر في عهد الفراعنة الرعمسيين ونحو الثمن من عدد سكان بريطانية العظمى الآن

***

لا نكران اذن ان نسبة الفقراء الى الاغنياء قد تغيرت تغيراً حسناً يذكر . ولكنها لا تزال دون الاحسن المنشود . فالهدف الاعلى للشعوب المحرَّرة هو قائم ، على ما ارى ، بين بلشفية روسية المركسية واشتراكية اميركا الدمقراطية . فان في البلادين تجري اليوم تجربات خطيرة مختلفة هي كلها ، في عدلها الانساني المنشود ، اكبر قصداً ، وأبعد مرمى ، مما تقدمها من الاصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في التاريخ القديم والحديث

وهناك فرق آخر بين غنائنا وغناء الاقدمين . فان مجموع الثروة عندنا ، في امة واحدة من الامم الغنية ، لأكبر جدًّا مما كان حتى في الدولة الرومانية العظمى . بل ان رجلاً مثل روكفلر او روكفلر او هنري فورد لَيملك وحده ما يتذر بثمن ثروة رومة في ذلك الزمان

هذا وان التكتل المالي آخذ بالتفكك ، وقد اتسع ، خصوصاً بعد الحرب العظمى ، نطاق انتشاره وقلّ نطاق حيره ، فتعددت الثروات في الدول الكبيرة في الاقل ، وازداد عدد الميسورين . لقد اصلحت البيان عما في انكلترا من اصحاب الملايين وأصحاب الثروات الصغيرة . وان عدد هؤلاء في فرنسا لأزود ، الا أصحاب الملايين (بالفيرات) فلا اظنهم كثيرين . على ان طبقة البورجوازي التي تحكم اليوم البلاد سياسيًّا وماليًّا هي اهم الطبقات هناك ، ان لم تكن اكبرها وأغناها

***

ومما يدل على اليسر المتسع النطاق في هذا الزمان عدد السيارات . فان في فرنسا ١٦٧ر٢٩٤ر١ سيارة[1] اي واحدة لكل ثلاثين من السكان . وهي مثل ذلك في انكلترا ، وأقل من ذلك في المانيا

(١) احصاء سنة ١٩٣٠

اما في اميركا فقد بلغ عدد السيارات من جميع الانواع في سنة ١٩٣٠ ثلاثة وعشرين مليون ومائة وعشرين الف سيارة، اي سيارة واحدة لكل خمسة اشخاص

وعدد اصحاب الملايين غير الكبار ، اي الذين يملكون ما يتراوح بين الخمسة والعشرة ملايين من الدولارات ، يفوق عدد ما في انكلترا . فان في مدينة نيويورك وحدها مائتين منهم . وفي الولايات المتحدة سبع مدن كبرى ، بعضها اكبر من باريس ، وخمس عشرة مدينة كالقاهرة . وفي كل مدينة اغنياؤها ذوو الثروات التي هي فوق المليون ودون الخمسة ملايين دولار ، فضلاً عن اصحاب الثروات الصغيرة ، ويقدَّر عددهم بثلاثة او اربعة ملايين ، بناء على ضريبة الدخل التي بلغت في سنة ١٩٣٠ نحو بليونين واربعمائة مليون دولار ، وهي بالتدقيق :

من الشركات	١ر٢٦٣ر٤١٤ر٤٦٦
من الافراد	١ر١٤٦ر٨٤٤ر٧٦٤
	٢ر٤١٠ر٢٥٩ر٢٣٠ دولاراً

اي الفين واربعمائة الف الف على طريقة العرب في العدّ

لا نكران اذن ان عدد الاغنياء والميسورين آخذ بالازدياد في العالم . ولكن ذلك لا يعني ان شرور الفقر قد زالت ، او هي مسرعة في الزوال . ذلك لا يعني ان الجور والتعسف والاستئثار ، وفساد الاخلاق والجرائم والامراض ، الناشئة عن تكتُّل الثروات ، وعن الفقر المقابل لها ، قد أمست كلها في خبر كان . بل هناك ضروب من الجور ، في المعاملات المالية الكبرى وفي المشروعات الاقتصادية العظيمة ، لا تستطيع الحكومات ، لا الجمهورية منها ولا الملكية الدستورية ، ان تزيلها الاَّ اذا تغيرت نظمها اصلاً واساساً

ان الفرق اذن بيننا وبين الاقدمين في المسألتين ، موضوع هذا المقال ، اي في التكتُّل المالي وفي نسبة الفقراء الى الاغنياء ، هو ان المال عندنا قد ازداد ازدياداً عجيباً ، وقد تغيرت النسبة تغيُّراً حسناً ظاهراً . فمن ١٠٠/٤ في عهد الفراعنة ، الى ما يتراوح بين ١٥ و٢٠ بالمائة في زماننا ، في الامم التي ذكرت ، وهذا ما يصح ان يدعى ارتقاء . ولكننا لا نرضى بان نقف في الارتقاء عند هذا الحد

لا نقول ان عدد الاغنياء في العالم يجب ان يزداد ويستمر في الازدياد . كلاَّ . انما نقول يجب ان يقل عدد الفقراء في العالم ، ثم يقل ، فيزول الفقر تدريجاً ، وتزول شروره كلها

هي ذي الحالة الاقتصادية الاجتماعية التي ينشدها ذوو الفكر الراقي النزيه ، ذوو الفكر الدولي الانساني . هو ذا الهدف الاقصى ! وستدركه في المستقبل الامم المتمدنة جمعاء

الفريكه — لبنان

هاتاب للنفس

لعبد الرحمن شكري

— ١ —

طلب السكينة

يا ليت قلبي غدا خلاءً كعالم كله بحارْ
على انتفاء الحياة منها في خضرم ما له قرارْ
فلا مهرد ولا قبور ولا سفين ولا منارْ
ولا حبيب ولا عدو ولا غو ولا احتضارْ
ولا رخاء ولا شقاء ولا رجاء ولا ادكارْ
أو كان كالنجم في سراه الوادع السائر المُدارْ
أو كان كالليل في هدوه يُخال في صمته حِوارْ

— ٢ —

طلب القوة

يا ليت قلبي على أساه أقوى من الشر والشقاء
وليت نفسي على هواها أقوى من الحب والرجاء
وليت لُبّي على حجاه أجلد من غفلة الغباء
لا يضطنيه عداء عادٍ وليس يغتر بالإخاء
يأخذ صفو الزمان عفواً ولا يُعَنّى من القضاء
وليت صبري على بلاه أشد من أروع البلاء
دواء داء الحياة فينا لو تُسعِد النفس بالدواء
بالصبر والسعي والمُنَى والحِلم والعزم والوفاء

التجارة الاسلامية

وأثرها في الحضارة (١)

فيليب حتي
احد اساتذة التاريخ الشرقي في جامعة بيروت الاميركية

لم يعرف تاريخ العلم قوماً كانوا اقل انصافاً لغيرهم واشدّ ظلماً لهُ من جماعة المؤرخين ، فكأني بهم قد افرغوا جهدهم في صدّ الناس عنهُ ومنعهم من ارتياد مناهله . كيف لا ، وقد جردوه من كل متعة ورواء ، وامتصوا منهُ ماء الحياة ، ولم يبقوا فيهِ الاَّ هيكلاً عظميًّا من اسماء وتواريخ ليس بينها وبين حياتنا الحاضرة علاقة وثيقة او سبب قويّ . فكانت نتيجة الجهود التي سكبوها في تلك المؤلفات الضخمة والكتب الجسيمة انهم ، عوضاً من تحبيب هذا الفن الى الناس وتشويقهم الى اقتطاف ثمراته اليانعة ، جعلوهم ينصرفون عنهُ ويصدفون عن مرآمه وحقوله ولا يرون في درسه كبير لذّة او عظيم غَناء . لكنّ التاريخ يأبى ان يظلّ اسيراً ضمن النطاق الجائر الذي قيّدوه بهِ ، فهو لا يكتسي رواءه ونضارته الاَّ اذا لامس الحياة واتصل بها اتصالاً وثيقاً ، اذ ليس هو ، في جوهره ، سوى تطور الحياة البشرية باختلاف نواحيها وتعدد الوانها ، يستمد روحه من حياة الطبقة العامة من الناس وطرق معيشتهم واحوالهم الاقتصادية والاجتماعية والعقلية : فكم في البيوت الوضيعة والطرقات العامة ما هو اجدر بالحفظ في بطون التواريخ من اسماء الملوك والوقائع والحروب لانهُ اصدق منها تمثيلاً لحياة الامة ولون معيشتها وتطوّر احوالها

فاذا حاولت ان احدثكم في موضوع تاريخي ، فسوف ابتعد — ما استطعت — عن الخلفاء والامراء والحكام ، وسوف اُصم اذني وآذانكم عن سماع صليل السيوف وقرع الطبول ونفخ الابواق ، واسعى واياكم الى ناحية خصبة غنية من الحياة الاسلامية القديمة لم تنل من المؤرخين حقها من الدرس والاهتمام ، مع ما كان لها من الاثر القوي والصدى البعيد في تاريخ الشرق والغرب : اعني بها التجارة الاسلامية واثرها في الحضارة . ليس قصدي ان اعود بكم الى الجذور القديمة التي نبتت منها حركة التجارة الاسلامية ، فاصوّر لكم الجزيرة العربية في الازمنة التي سبقت الاسلام ، واحدّد الطرق التجارية التي كانت تخترقها ، والدول والمدن الزاهرة التي قامت على اساس تجارتها — كمعين وسبأ وحمير وتدمر والبتراء ومكة ، واصف ما كان لهذه الدول والمدن من الشأن في وصل حضارة الهند وثقافته بمدنية بلدان الشرق الادنى والبحر الابيض المتوسط ، فالقول في ذلك — كما تعلمون — واسعٌ مستفيض لا مجال لاستيعابه في هذا المقام ، وكفى تلميحاً اليهِ ان نورد شهادة

(١) محاضرة القيت في كلية المقاصد الخيرية في بيروت

الجغرافي اليوناني استرابون (Strabo) الذي قال : « العرب جميعهم اهل تجارة » ؛ والقول المتداول عن اهل مكة قبل الاسلام : « من لم يكن تاجراً فليس عندهم بشيء »

دعونا اذن نمر بهذا الدور التحضيري الذي غرست فيه بذور التجارة الاسلامية ، ونجوز دور الفتوحات الذي عقبه والذي نُشرت به راية الاسلام من حدود الصين الى سواحل الاطلانتيك فوحدت الاقطار الشاسعة تحت حكم واحد وهدمت الحواجز التي كانت تفصل بينها ؛ ولننتقل رأساً الى قلب العصر العباسي (الى القرنين الثالث والرابع هـ . ، التاسع والعاشر م) حين وصلت المدنية الاسلامية الى اعلى قممها ولنراقب تلك الحركة التجارية المفعمة بالقوة والنشاط التي كانت تتغلغل في قلب الامم الاسلامية وجوانبها ، وتربط بينها وبين الامم التي تجاورها وتنقل منها واليها بذور الحضارة والثقافة والمدنية

لو كنت يا اخي تاجراً في ذلك العهد لما سكنت بيروت لانها لم تكن قد اكتسبت بعد مكانة تجارية ، وانما كنت استوطنت بلداً غيرها على الساحل السوري كطرابلس او صور او عكة حيث تجتمع السفن « المنشآت في البحر كالاعلام » وتلتقي تجار المسلمين زملاءهم الغربيين ، ولكان لك في بلدك المستودعات الواسعة لخزن البضائع التي تستوردها من بلدان الشرق وتصدّرها الى الغرب ، فان وظيفتك كانت في ذلك العصر — كما لا تزال الى اليوم — ان تقوم وسيطاً بين الشرق والغرب وتكون حلقة اتصال لطرق التجارة التي كانت في القرون الوسطى تسير من الشرق الى الغرب فانعكست اليوم ، بعد نهضة اوربا الحديثة ، وغدت تجري من الغرب الى الشرق

واذا اسعفك الدهر والسعت تجارتك فلا بُدّ ان تكون بينك وبين التجار الغربيين — واشهرهم سكان المدن الايطالية — اتفاقات ومقاولات تجارية تسعى الى القيام بها وتجني من ورائها الربح العظيم . ولكنك اذا احببت ان تلمس الحركة التجارية في صميمها وتشعر بقوتها وبالحياة التي كانت تدب فيها فلا بُدّ لك من الاتصال بالطرق التجارية التي كانت تخترق المحيط الهندي وتصل بين الهند والصين من جهة وبين بلدان الشرق الادنى ومن ورائها اوربا من جهة اخرى . فالمحيط الهندي كان في ذلك العهد اعظم ميدان للاعمال والمشروعات التجارية ، وفي مياهه وشواطئه كانت تلتقي مراكب الامم المختلفة وتتبادل بضائعها ومحصولات بلادها . فلا غنى لنا اذن من ان نلقي نظرة عجلى على الطريق الرئيسية للتجارة الواسعة التي كانت تدور اعمالها في ذلك الميدان الفسيح

كانت قاعدة هذه التجارة ومحط رحالها الموانىء الواقعة على شواطىء الخليج الفارسي كالبصرة والأُبُلّة وسيراف : منها تخرج السفن الصينية الكبيرة والمراكب العربية السريعة ، بعد ان يكون التجار قد افرغوا بضائعهم التي حملوها من الصين والهند وابتاعوا حاجتهم من اللؤلؤ الذي يُغاص عليه في مياه الخليج الفارسي والذي كان ولا يزال اعظم ما تصدّره تلك البلاد . ثم تعبر السفن مضيق هرمز الى خليج عمان فتزور بصحار عمان ومسقط حيث تأخذ مؤونتها من الماء والطعام لسفرة طويلة قد تدوم شهراً او تزيد ؛ ثم تقلع الى الهند او بالاحرى الى القسم الغربي منه — وهو الذي

كان يدعوه العرب « السند » — وترسو في موانئه فيزل اليه التجار ويبتاعون تلك المحصولات الثمينة المتنوعة التي اشتهرت بها بلاد الهند منذ اقدم الازمنة : وهي البهارات والعطور والعقاقير والاخشاب والعاج والحجارة الكريمة . وفي السند يقول الرحّالة المقدسي : « هذا اقليم الذهب والتجارات : والعقاقير والآلات ، والقانيذ والخيرات » والارزاز والموز والاعجوبات ، به رُخص وسعة ونخيل وثمرات ، وعدل وانصاف وسياسات ، وبه خصائص وفوائد وبضاعات ، ومنافع ومفاخر ومتاجر ومصانعات [١] . ويظل تجارنا ينتقلون عراكبهم بين موانئه الى ان يصلوا الى ساحله الجنوبي المعروف ببلاد الملبار ثم يدورون حوله ويمرون في المضيق الفاصل بين شبه جزيرة الهند وجزيرة سيلان — او كما كان يدعوها العرب « سرنديب » — فترسو المراكب في بعض شواطئها ويشتري التجار من محصولاتها — واعظمها الياقوت والحجارة الكريمة — واذا كانت حركة الرياح غير موافقة وكان بين التجار من تستهويه الرحلة ومشاهدة الآثار نزلوا الى برّها وتسلّقوا جبالها لزيارة « القدم » وهو — على ما يعتقدون — اثر بارز لموطىء قدم ابينا آدم عليه السلام

ومن سرنديب تقلع السفن قاصدة جزر الهند الشرقية (جاوه وسومطرة) — وقد كانت تعرف عند العرب ببلاد الزابج — وهي غنية باللبان والكافور والعود الهندي والقرنفل ، ومنها تسير رأساً الى الصين فتصل — بعد سفر طويل — الى مدينة خانفو وهي ، بشهادة التاجر سليمان الذي قطع هذه الطريق البحرية مراراً في منتصف القرن التاسع م . « مجتمع تجارات العرب واهل الصين » [٢] . واهل الصين مشهورون منذ اقدم الازمنة بدقة صناعاتهم واتقان فنونهم ، واشهر مصنوعاتهم التي كان التجار المسلمون ينقلونها الى الغرب : الحرير والفخّار . قال التاجر سليمان عن صناعاتهم : « واهل الصين من احذق خلق الله كفّاً بنقش وصناعة وكل عمل لا يقدمهم فيه احد من سائر الامم » [٣] وذكر رقة حريرهم فوصفها بالقصة التالية : « وذكر رجل من وجوه التجار ومن لا يشك في خبره انهُ صار الى خصيّ كان الملك انفذه الى مدينة خانفو لتخيُّر ما يحتاج اليه من الامتعة الواردة من بلاد العرب فرأى على صدره خالاً يشف من تحت ثياب حرير كانت عليه فقدر انهُ قد ضاعف بين ثوبين منها فلما الحّ في النظر قال له الخصي اراك تديم النظر الى صدري فعلمَ ذلك فقال له الرجل عجبت من خال يشف من تحت هذه الثياب فضحك الخصي ثم طرح كمّ قميصه الى الرجل وقال له اعدد ما عليّ منها فوجدها خمسة اقبية بعضها فوق بعض والخال يشف من تحتها والذي هذه صفته من الحرير تام غير مقصور والذي يلبسه ملوكهم ارفع من هذا واعجب » [٤]

واذا تقدمنا الى عصر ابن بطوطة (القرن الرابع عشر . ، الثامن هـ .) — والراجح عندنا ان

(١) احسن التقاسيم (طبعة دي غويه — ليدن) ص ٤٧٤

(٢) Reinaud, Relation des Voyages dans l'Inde et à la Chine (باريس ١٨١٨) م ٢ ، ص ١٣

(٣) ص ٧٥ (٤) ص ٧٤ — ٧٥

ما يذكره هذا الرحالة ينطبق ايضاً على العصر الذي نصوره الآن لاشتداد حركة التجارة فيه — وجدنا ان السفن لا تلبث ان ترسو في ميناء خانفو حتى يعمد اليها عمال الجمرك ويفتشوا رجالها واموالها : « وعادة اهل الصين اذا اراد جَنَك من جنوكهم السفر سعد اليه صاحب البحر وكتّابه وكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدم والبحرية وحينئذ يباح لهم السفر فاذا عاد الجنك الى الصين صعدوا اليه ايضاً وقابلوا ما كتبوه بأشخاص الناس فان فقدوا احداً ممن قيدوه طلبوا صاحب الجنك به فاما ان يأتي ببرهان على موته او فراره او غير ذلك مما يحدث عليه والاّ اخذ فيه فاذا فرغوا من ذلك امروا صاحب المركب ان يملي عليهم تفسيراً بجميع ما فيه من السلع قليلها وكثيرها ثم ينزل من فيه ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم فان عثروا على سلعة قد كتمت عنهم عاد الجنك بجميع ما فيه مالاً للمخزن وذلك نوع من الظلم ما رأيته ببلاد من بلاد الكفار ولا المسلمين الاّ بالصين اللهم الاّ انهُ كان بالهند ما يقرب منهُ وهو ان من عثر على سلعة له قد غاب على مغرمها اغرم احد عشر مغرماً ثم رفع السلطان ذلك لما رفع المغارم »[1]

ولعلّ أبلغ شاهد على توثّق العلاقات التجارية بين الصين والبلدان الاسلامية وجود جالية اسلامية في مدينة خانفو لها من العدد والنفوذ ما حمل امبراطور الصين على منحها استقلالها الديني والقضائي « وذكر سليمان التاجر ان بخانفو وهو مجتمع التجار رجلاً مسلماً يوليهِ صاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين يقصدون الى تلك الناحية بتوخي ملك الصين ذلك واذا كان في العيد صلى بالمسلمين وخطب ودعا لسلطان المسلمين وان التجار العراقيين لا ينكرون من ولايتهِ شيئاً في احكامهِ وعمله بالحق وبما في كتاب الله عز وجل واحكام الاسلام »[2] . ولم تكن تجارة المسلمين لتقف عند حدود خانفو وامثالها من الموانىء الصينية بل كانت تتجاوزها الى داخل البلاد وتتصل بالمدن والمراكز الصناعية الهامة ، كما ان بعض تجار المسلمين وشارتهم كانوا يخاطرون بمراكبهم التجارية الى البحور الشمالية ؛ وليس من المستبعد ان يكونوا قد وصلوا الى اليابان او شبه جزيرة كوريا

هذه ، هي اهم طريق كانت تسير بها التجارة الاسلامية لانها تصل بين بلدان الشرق الادنى وبين البلاد التي كانت في ذلك العهد منبع البضائع والتحف والمحصولات الزراعية والصناعية وقد كانت هناك طرق بحرية اخرى لم تبلغ شأو هذه ومكانتها : منها الطريق الفرعية التي يصح ان نعدها بمثابة للطريق الرئيسية الاولى وهي التي تسير من الخليج الفارسي وتدور حول بلاد العرب فتمر بموانىء هديدة على ساحل الجزيرة الجنوبي واشهرها عَدَن وعدن ثم تصعد في البحر الاحمر حتى تصل الى جدة او ثغر عَيذاب على الشاطىء المصري . وبهذه الطريق البحرية كان ينقل جانب من بضائع الشرق الى بلاد مصر والشام . ومن الخير ان نتوقف قليلاً في ميناء ظفار للشاهد ضرباً من الدعاية التجارية التي كان يستخدمها اهل ذلك الزمان لاستجلاب التجار الى مرافئهم . « وهم اهل

(١) رحلة ابن بطوطة (طبعة Defrémery et Sanguinetti باريس ١٨٧٤–٧٩) م ٤ ص ٢٦٤–٢٦٥ (٢) م ٢ ص ١٤

ظفار ؛ اهل تجارة لا عيش لهم الاّ منها ومن عادتهم انهُ اذا وصل مركب من بلاد الهند او غيرها خرج عبيد السلطان الى الساحل وصعدوا في صندوق الى المركب ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب او وكيله ولقربان وهو الرئيس وللكبراني وهو كاتب المركب ويؤتى اليهم بثلاثة افراس فيركبونها وتضرب امامهم الاطبال والابواق من ساحل البحر الى دار السلطان فيسلمون على الوزير وامير جندار وتبعث الضيافة لكل من بالمركب ثلاثاً وبعد الثلاث يأكلون بدار السلطان وهم يفعلون ذلك استجلاباً لاصحاب المراكب »[1] ومن الطرق البحرية الثانوية ايضاً تلك التي كانت قاعدتها مدينة عدن ، تسير منها الى زيلع على شاطىء الحبشة وتمتد الى بلاد سفالة المشهورة بالذهب والى جزيرة مدغشكر التي كانت تعرف عند العرب بجزيرة الواقواق ، ومنها ايضاً الطرق البحرية التي كانت تخترق البحر الابيض المتوسط والتي ازدهرت في العهد الصليبي خاصة عند ما تقارب الشرق والغرب واتصلت حياتهما السياسية والاقتصادية والاجتماعية اتصالاً قويًّا

هذه هي الطرق البحرية للتجارة الاسلامية ؛ على ان الشعوب الاسلامية التي اشتهرت منذ القدم بقوافلها البرية كانت تقطع ايضاً بيضائعها البوادي والجبال وتنقل محصولاتها صافات شاسعة على ظهور الجمال . فقد كانت هناك طرق برية الى الهند والصين الاّ انها لم تبلغ من خطر الشأن مابلغته الطرق البحرية لما كان يعترض طريق الهند من الجبال الوعرة وطريق الصين من الشعوب التركية غير المتحضرة التي كثيراً ما كانت تغزو القبائل وتقطع السبل . ولعلنا لا نتعدى الحق اذا قررنا ان اهم الطرق البرية هي الطريق الاوروبية الممتدة من آسيا الوسطى الى روسيا وبلاد البلطيق عن طريق بلاد الخزر والتي يتفرّع عنها طريق آخر الى امبراطورية الروم ، والطرق الافريقية التي كانت تخترق النصف الاعلى من تلك القارة من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب

اما الطريق الاوروبية فليس ادل على مداها ومقامها من النقود الاسلامية الوافرة التي عُثر عليها في اماكن عديدة في روسيا وفنلندا وبلاد اسوج ونروج . ولا نخال ان التجار المسلمين اقتصم وصلوا الى تلك البلدان الشمالية التي وجدت فيها نقودهم ، بل نرجح انهم لم يتجاوزوا بلاد البلغار الواقعة في منتصف مجرى نهر الفولغا ، الاّ ان وجود النقود الاسلامية في تلك الاماكن القاصية يدل على مدى ما بلغتهُ التجارة الاسلامية من الاتساع ومن الاثر المادي والثقافي في حياة الشعوب القريبة والبعيدة . وكان اهم ما يبتاعه التجار المسلمون بتلك النقود : العبيد وجلود الحيوانات

اما الطرق الافريقية فاهمها ثلاث : اولاً الطريق الشمالية التي كانت تسير من مصر الى المغرب فالاندلس والتي كانت تنتقل عليها ، عدا البضائع والمصنوعات المادية ، بذور الثقافة والحضارة بين شرقي العالم الاسلامي وغربيه ، وثانياً الطريق الشرقية من مصر الى النوبة فبلاد البجة ، وثالثاً الطريق الغربية من المغرب عبر الصحراء الكبرى الى بلاد النيجر . وكان تجار مصر وشمالي افريقيا

(١) م ٢ ، ص ١٩٨

يقضون الشهور الطوال في هذه الرحلات الخطرة الى اواسط افريقيا حتى يعودوا منها وقد حمّلوا قوافلهم من منتوجاتها الثمينة وهي الذهب والعاج

تلك ايها السادة ، هي اهم الطرق التي كانت تجري بها التجارة الاسلامية في ابان زهوها وازدهارها ولا شك عندي انكم ترجعون الآن بمخيلتكم الى تلك القرون الماضية فتتصورون السفن الاسلامية تمخر عباب بحر الصين والهند ناقلة التحف والمنتوجات الثمينة الى بلادنا ومنها الى بلدان الغرب ، او تراقبون القوافل البرية وهي تجتاز البوادي والسهول من اقصى العالم المتمدن في ذلك العهد الى اقصاه ، ولكننا نخطىء كل الخطأ اذا نحن حسبنا ان التجارة الاسلامية كانت تقتصر على نقل منتوجات الصين والهند وافريقيا الى بلدان الغرب ، اذ انها كانت تتناول ايضاً المصنوعات التي تنتجها البلدان الاسلامية نفسها وكنا يعلم مبلغ ما وصلتهُ الزراعة والصناعة الاسلامية من الرقي والدقة والاتقان فجزيرة العرب كانت ، على قحطها ، تنتج محصولات ثمينة كالبخور والمرّ واللؤلؤ ، والعراق كان يصدّر التمور والخزف والزجاج ، ومن الشام كانت تحمل المحاصيل الزراعية الوافرة لاسيما الفواكه والثمار ، ومن مصر الثياب والستور الملوّنة المصنوعة من القطن والكتان ، ومن افريقيا الزيت والقسطل والزعفران ، ومن خراسان وما وراء النهر الادهان والعطور العطرية وطراز الوشي وثياب الحرير والشعر ، ومن بلاد الديلم وطبرستان المناديل والاكسية والطيالسة ، ومن خوزستان السكّر والفواكه والديباج ، وقد اشتهرت في هذا الاقليم مدينة تُستر خاصة فكان ديباجها يحمل الى الدنيا ومنهُ تصنع كسوة الكعبة في مكة .[1] ويضيق بنا المجال عن تعداد المحاصيل والمصنوعات الغزيرة التي كانت تفيض بها بلاد الاسلام ، وحسبنا بما ذكرنا تلميحاً الى اثر هذه الحياة الصناعية النشيطة في تغزير التجارة الاسلامية الداخلية والخارجية واتساعها

ولعلّ افضل ما يظهر لنا هذا الاتساع القطعة التالية التي وردت في كتاب « حديقة الورد » — غولستان — لشاعر الفرس الشهير سعدي قال: وكنت اعرف تاجراً لهُ قافلة كبيرة من الجمال وحاشية من المماليك الخدام ، اضافني ذات ليلة في منزله في جزيرة كيش وظلّ طول الليل يتكلم عن تجارته واعماله الى ان قال : يا سعدي ، انني ارغب في القيام بسفرة تجارية اخيرة ، أتمها واعتزل التجارة ، قلت : « وما هي هذه السفرة » احمل كبريت فارس الى الصين ، واجلب خزف الصين الى بلاد الروم ، فاستبدل به هناك اقمشة حريرية ، وانقلها من بلاد الروم الى الهند ، واعود بفولاذ الهند الى حلب ، فاحمل زجاج حلب الى اليمن ، وارجع اخيراً بثياب اليمن الى فارس . فاذا وصلت الى وطني بسلام ، اعتزلت التجارة الاجنبية والاسفار البعيدة »[2] . والآن ، بعد هذه الصورة السريعة الخاطفة التي

(١) الاصطخري ، مسالك الممالك (طبعة دي غويه — ليدن ، ١٩٢٧) ص ٩٢ — ٩٣ . راجع عن هذه المنتوجات ما يذكره المقدسي عن «التجارات» (٢) بتصرف عن الترجمة المقتبسة في كتاب J. W. Thompson Economic and Social History of the Middle Ages ص ٣٥٩

رسمناها للتجارة الاسلامية لابدَّ ان نتساءل عن أثر هذه الحركة التجارية في حضارة الشرق والغرب وفي ذلك التفاعل القوي بينهما الذي كان محور التمدن في القرون الوسطى

ان أثر التجارة الاسلامية في الحضارة الشرقية والغربية متعدد الوجوه متشعب النواحي ، ولا يمكننا في هذا المقام ان نلمَّ الاَّ ببعض هذه الوجوه والنواحي البارزة . فنجد اولاً ان الحركة التجارية الاسلامية ، التي بلغت من المدى والاتساع ما وصفنا ، كان لها أثر كبير في تقدم فن الملاحة وفي اكتشاف مجاهل البحر والبر . فاولئك التجار الذين كانوا يجازفون بمراكبهم وقوافلهم في البحور المجهولة والبراري النائية يحتلون المركز الاول بين رحّالي العالم ورواّده ، والعالم مدين لهم بالمعلومات الجغرافية التي جمعوها في رحلاتهم البعيدة ، ولعلَّ من ابرز الادلَّة على ذلك ما يروى عن الرحّالة البورتغالي Vasco de Gama الذي دار حول رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨ انهُ لما وصل الى شواطىء افريقيا الشرقية كان الذي دلَّه الى طريق الهند بحّار مسلم يدعى احمد ابن ماجد. ومما يظهر ايضاً سيطرة المسلمين على البحار ويؤيد فضلهم في تكوين الملاحة الحديثة تلك الكلمات العربية العديدة التي نجدها بين المصطلحات البحرية: في admiral مأخوذة عن امير البحر، و Cable عن حبل ، و barge عن بارجة، و avarie (eng., average) عن العواريات و chaloupe (eng., shallop) و barque عن بركة الى غير ذلك[1] وكما في البحر كذلك في البرّ : فان الغرب ظلَّ الى اوائل نهضته الحديثة يعتمد على جغرافيي المسلمين ورحاليهم وتجارهم لمعرفة الاقطار النائية كواسط آسيا ومجاهل افريقيا الوسطى والشرقية

وللتجارة الاسلامية أثر لا يستهان بهِ في الادب العربي . من منا لم يقرأ رحلات السندباد البحري التي ادمجها الكتبة في قصص « الف ليلة وليلة » ؟ اننا اذا نزعنا عن هذه الاخبار ما حبك حولها من الاصبغة الخرافية وجدنا نواتها تتفق تماماً مع اخبار الرحلات التي دوّنها لنا بعض تجار المسلمين ورحاليهم كالتاجر سليمان والحسن ابي زيد والمسعودي. فهذه القصص وامثالها التي تحتل مركزاً هامًّا في الادب العربي قد بنيت على اساس الرحلات البرية والبحرية التي كان يقوم بها التجار المسلمون

وأثر ثالث للتجارة الاسلامية هو في نشر الدين الاسلامي ودعوة شعوب الارض الى اعتناقهِ . فالامم الاسلامية لم تعرف ، حتى اوائل العصر الحديث جمعيات تبشيرية منظمة غايتها نشر الدين الاسلامي وتعميمه ، وانما فلل هذا الواجب ملقى على عاتق كل مسلم اينما كان في الارض يتبع في اتمامهِ قول القرآن الكريم : « أُدعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن » (١٦ : ١٢٦) . فاذا راجعنا تاريخ انتشار الديانة الاسلامية وجدنا في صفوف العاملين في هذا الحقل رجالاً ونساءً من مختلف طبقات المجتمع من الملك العظيم الى العامل الحقير، وشاهدنا التاجر في مقدمة هؤلاء العاملين يبشر بوحدانية الله العظيم ورسالة النبي الكريم بين الشعوب الوثنية النائية التي ينزل

(١) راجع مقالة Kramers, "Geography" and "Commerce" في كتاب The Legacy of Islam ص ٢٧٠ حيث اورد المؤلف هذه الكلمات بحسب ترتيبها الابجدي Lammens, Mots français dérivés de l'Arabe

في بلادها ويؤثر فيها بورعه وتقواه . ومما حبّب التجارة الى المسلمين انها كانت مهنةَ نبيهم في فتوته وشبابه ، وقد جاء عنهُ في الحديث الشريف : « عليكم بالتجارة فان فيها تسعة اعشار الرزق »

وقد وضع المستشرق الانكليزي الشهير Sir T. W. Arnold مؤلفاً خاصًّا في تاريخ نشر الدين الاسلامي The Preaching of Islam فصل به بأوضح اسلوب ما كان للتاجر المسلم من الشأن الكبير في نشر دياناته بين شعوب افريقية الغربية والوسطى والشرقية وامم الهند والجزر الشرقية وآسيا الوسطى حتى حدود سيبيريا

لكن ابرز اثر للتجارة الاسلامية هو فيما نقلته من ثقافة البلدان الاسلامية والهند والصين الى الغرب المسيحي وما كان لذلك من الفضل في تكوين الحضارة الحديثة . والثقافة — كما تعلمون — تتبع دائماً طريق التجارة وتنتقل مع المصنوعات والمنتوجات المادية وقد كان للتجارة في كل قطر وزمن اثر عظيم في نقل بذور الحضارة وشق طريق المدنية من الشعوب الراقية الى التي دونها رقيًّا وثقافة . وهنا ايضاً يمكننا ان نستدل على ذلك بالكلمات العديدة التي تسرّبت من العربية الى اللغات الاجنبية ، ويطول بنا المقام لو حاولنا ان نعدّد اسماء المنتوجات والمصنوعات المختلفة التي انتقلت الى اللغات للغربية والتي تظهر باجلى بيان الدين المادي والثقافي الذي تدين به شعوب الغرب الحديثة للتجارة الاسلامية التي عرفتها بمصنوعات الشرق وحضارته . وحسبي ان اذكر بعض التعابير التجارية التي تدل ، بانتقالها الى لغات الغرب ، على سيطرة التجارة الاسلامية في القرون الوسطى . tarif من التعريفة ، و risque قد تكون من الرزق و calibre من القالب ، و tare من الطرحة ، و magasine من المخازن و cheque من الصك و douane من الديوان[1] . وفي الاساطير اليونانية التي خلدتها لنا عبقرية هوميروس آلهة جبارة تحوب السماء بثلاث خطوات . ولقد تجرأت هذه الآلهة على ان استعير اجنحة هذه الآلهة واطير بكم فوق ميدان التاريخ الاسلامي الفسيح ، مشيراً الى مجرى واسع غزير كان يروي الحياة الاسلامية ويمتد منها الى البلدان الدانية والنائية فيبعث فيها القوة والنشاط . فاذا كنت قد اسرعت في هذا الطيران ولم اتوقف بكم عند كل منظر من المناظر الخلابة ، فلأن المجال طويل والسفر بعيد ، وحسبي ان اكون لفتُّ انظاركم الى هذه الناحية المجهولة واثرت اهتمامكم فيها

لقد فتح المسلمون العالم فتحاً مزدوجاً : فتحاً سياسيًّا تحت راية الحرب وبظلّ السيف والرمح وفتحاً تجاريًّا اقتصاديًّا على متن قوافل البر وسفن البحر . وقد نشأت حول الفتح الاول ضجة عظيمة استوقفت انظار الناس ، ولكنني ارى في هذا الفتح الثاني — وهو جهاد السلم — من اعمال الجد والشجاعة والاقدام ما قد يفوق جهاد الحرب . وإن الاهة التاريخ التي الهمت المؤرخين منذ اقدم العصور الى الآن لن تلبث ان تهب لتنصف الجميع فاذا بعثت روحها في مؤرخي المستقبل وألهمتهم لكتابة التاريخ الاسلامي فصوروا قافلة المسلمين العظمى التي خرجت من الجزيرة العربية وسادت في البلاد وضموا بجانب الفاتح الباسل ، والعالم الحكيم ، والاداري الحازم التاجر المقدام الذي كان يرود المجاهل ويجوب الفيافي ، والذي ضرب بسهم كبير في نشر الاسلام وفي احياء العلم والمدنية والسلام

(١) مقالة Kramers ، المذكورة اعلاه ، ص ١٠٥ ، وراجع ايضاً كتاب Lammens المشار اليه آنفاً

مطاط من غاز

المطاط الصناعي وابداع الكيمياء التركيبية

لو كان كولمبوس متصفاً ببعد النظر الذي يتصف به مؤرخو سيرته ، لمات عن اعظم ثروة جمعها رجل فرد في عصره . لان كولمبوس كان اول من نقل الى اوربا ، عند عودته الثانية من جزائر الهند الغربية ، قصصاً ونوادر عن شجرة غريبة تفرز لبناً عند جرح لحائها . فلم يدرك كولمبوس حينئذ ولا ادرك الرحالون الى العالم الجديد بعده ، عند ما رأوا اولاد الهنود الحمر يلعبون بكرات سود تقفز عند اسطدامها في الارض كأن بها شيطاناً ، ان هذه الكرات مصنوعة من ذلك اللبن ، وان صمغ شجرة الهيڤيا Hevea ، يدل على الاقل في خطره ، خطر اكتشاف طريق جديدة الى الهند . والواقع ان احداً لم يدرك قيمة هذا الصمغ ، حتى كانت سنة ١٧٧٠ ، اذ رآه پريستلي مكتشف الاكسجين ، في حالته الجامدة ، فاستعمله لمحو آثار قلم الرصاص على صفحة من الورق ، فدعاه «الماحية الهندية» . ولا يزال يعرف في اللغة الانكليزية باسم rubber اي ماحية

***

في الطبيعة ناموس يسيطر على الاحياء ، والجوامد ، تستطيع ان تفرغه في قوالب مختلفة ، فقد تقول ان الانحدار من قمة الاكمة سهل وترقيها صعب ، او قد تقول كما قال سبنسر انهُ انحلال الاجسام المتباينة المتناسقة الى جسم لا تباين فيهِ ولا تناسق . او قد تسميه مع عالم الطبيعة الحديثة باسم « ناموس الترمودينامكس الثاني » . ومؤداهُ ان الهدم في الطبيعة والاجتماع سهل ، ولكن التعمير صعب ، يصحُّ هذا على الاطفال ولعبهم ، والبلاشفة وحضارتهم ، والكيماوي ومواده . فالحلُّ في عرف الكيمياء سهلٌ ولكن التركيب صعب ان لم يكن متعذراً في بعض الاحيان

وهذا يفسّر لك عجز الكيماويين عن تركيب المطّاط مع انهم عرفوا كيف يحلّلونهُ من نحو ستين سنة . فحلُّهُ عمل سهل وليس دليك الاّ ان تتناول قليلاً من المطّاط الخام وتضعهُ في حوجلة وتحميه على النار . فاذا استطعت ان تراقب ما يتم ، على الرغم من الرائحة القوية الكريهة ، رأيت المطاط ينحل ، وسائلاً شبيهاً بالبنزين يتكوّن فوقهُ . هذا السائل « البنزيني » الشكل يدعى « الايزوپرين » . احفظ هذه الكلمة ولا تنسها

فالمطاط وتركيبه الكيماوي (كربون ٦ ايدروجين ١٦) يتحول بالاحماء الى (٢ كربون ٥ ايدروجين ٨) اي ان جزيئاً من المطاط يتحوّل الى جزيئين من سائل الايزوپرين . ومن السهل ان نكتب المعادلة الكيمائية في الاتجاه المقابل اي ان جزيئين من الايزوپرين يعملان جزيئاً من المطّاط . افلا يستطيع احد العلماء ان يكشف السبيل الى تحويل هذين الجزيئين الى ذاك ؟

ان تحويلهما مستطاع ، بل ان احد العلماء الانكليز كان قد حوّلهما اتفاقاً . ففي مايو ١٨٩٢ قرأ الاستاذ ﻳﻠﺴﻦ ﻫﻴﻞ رسالة امام جمعية ومنفهام الفلسفية ، قال فيها انهُ دهش قبل بضعة اسابيع عندما رأى سائل الايزوپرين المستخرج من مادة التربنتين وقد تغيّرت حالته فتحوّل السائل الصافي الشفاف الذي لا لون له الى شراب كثيف تطفو فيهِ قطع كبيرة صفر فلما فحصها وجدها قطعاً من المطاط

فلما حاول الاستاذ تلدن ان يعيد هذا التحويل ، عجز عنهُ ، ولا تزال مشكلة تحويل الايزوپرين الى مطاط تحويلاً تتوافر فيهِ الشروط الصناعية التجارية ، مشكلة من اكبر المشكلات التي يواجهها علم الكيمياء الصناعية

وقد كان هذا العجز مما يبعث على الغيظ . لان امم العالم كانت تنفق نحو ٤٠٠ مليون جنيه كل سنة على المطاط ، ولا ريب في ان جانباً كبيراً من هذا المال كان مصيرهُ الى جيب الكيماوي الذي يبدع طريقة لتركيب المطاط وخزائن الشركة التي تطبقها . لذلك كان التنافس بين العلماء ، في سبيل السبق الى هذا الهدف ، عنيفاً ، بل بدا في مظهر زحام دولي بين انكلترا والمانيا اولاً

كان الانكليز قد سبقوا الالمان الى ابتداع طريقة لصنع الاصباغ الكيمائية ، ولكن اهمالهم الطريقة وصاحبها ، ساعد الالمان على انتزاع التجارة العظيمة التي بنيت عليها من ايديهم . فجمع الاستاذ پركن — محفوزاً بذكرى والدهِ السر وليم مستنبط الصبغ الصناعي الاول وكيف خذلهُ الانكليز — حولهُ في جامعة منشستر ، طائفة من علماء الكيمياء للبحث في مشكلة المطاط وصنعهِ بالتركيب الكيمائي

اي فاعل كيمائي ، يستطيع ان يقلب ذلك التفاعل فيدمج جزيئين من الايزوپرين منشئاً منهما جزيئاً من المطاط ؟

ففي يوليو سنة ١٩١٠ ، وضع الدكتور ماتيوز اتفاقاً ، مقداراً من الايزوپرين على قطعة من الصوديوم المعدني لتجفيفهِ ، وهي طريقة مألوفة في معامل الكيمياء تستعمل لاستلاب آخر قطرات الماء من مركب ما . وفي سبتمبر وجد ان الحوجلة المحتوية على الايزوپرين اصبحت تحتوي على كتلة جامدة من المطاط ، بدلاً من السائل الطيار الذي لا لون لهُ

ولو ان هذا الاكتشاف تمّ قبل عشرين سنة ، لكان عديم الفائدة ، لان الصوديوم كان عنصراً نادراً غالي الثمن حينئذٍ . ولكن ابتداع الطريقة الكهربائية لتحضيرهِ جعلهُ كثيراً رخيص الثمن . فيجب اذاً ان تقف ندرة الصوديوم حائلاً دون استعمال طريقة ماتيوز في تركيب المطاط من الايزوپرين

الاّ ان وجه الصعوبة في تحقيق هذا الحلم الاخاذ كان في غلاء ثمن الايزوبرين . اذ لا يكفي في الكيماوي الصناعية ان تثبت ان تفاعلاً ما مستطاع من الناحية العلمية ، بل يجب ان تتوافر فيه الشرائط التي تجعله صالحاً كذلك من الناحية التجارية ، اي يجب ان يكون عملاً يدرّ ربحاً معتدلاً على القائمين به . فاذا فرضنا جدلاً ان عالماً اكتشف طريقة لتحويل الزئبق الى ذهب ، فطريقته هذه من الناحية الصناعية لا تجدي نفعاً الاّ اذا كان ما ينفق على تحضير سنتغرام واحد من الذهب اقل من قيمة السنتغرام نفسه

كان الايزوبرين يحضّر من التربنتين . ولكن التربنتين قليل ويقتضي جزّ حراج الصنوبر . وماذا يكون ربحنا اذا جززنا اشجار الصنوبر بدلاً من بذلنا اشجار المطاط؟ واخيراً استقرّ الرأي على تحضيره من النشاء . فالنشاء رخيص الثمن ويمكن استخلاصه من البطاطس والذرة وغيرها

ولكن الكيماوي عجز عن استخلاص النشاء من هذه المصادر الاّ بعد ان استعان باليكتريولوجي لان تجزئة جزيء النشاء عمل يعجز عنه الانسان ، ولا تستطيعه الاّ بعض الحيوانات الدنيا — الخمائر — . فدعي الى منشستر عالمٌ بيولوجي فرنسي ، يدعى فرنباخ Fernbach ، وعهد اليه في هذه الناحية من البحث ، فقضى فيها سنة ونصف سنة ، انجز في نهايتها طريقة تمكنه من استخلاص مقدار من زيت القوزيل من مادة نشوية . كان غرض مخمري النشاء قبلاً ان يكون مقدار زيت القوزيل في النشاء المخمّر اقل ما يمكن ان يكون لان هذا الزيت خليط من اصناف الكحول الثقيلة الوزن وهي جميعاً اكره رائحة واشدّ سمّاً من الكحول العادي . ولكن بعد تجارب بركن وصحبه تبيّن ، كما يتبين عادة في تاريخ الصناعات العلمية ، ان النفاية ، اصبحت ذات قيمة عظيمة . ولذلك اتجه جهد الاستاذ فرنباخ الى استنباط طريقة يكثر بها مقدار زيت القوزيل عند تخمير النشاء لكي يصنع منه الايزوبرين باستعمال غاز الكلور

وفي خلال عناية الانكليز والاستاذ فرنباخ الفرنسي ، بصنع المطاط على الطريقة المتقدمة كان علماء الالمان معنيين كذلك بالموضوع نفسه ، واجتازوا فيه خطوة كبيرة نحو تحقيق الغرض . ففي سنة ١٩٠٥ اكتشف الاستاذ كارل هريز Karl Harries في برلين تركيب جزيء المطّاط . فكان اكتشافه هذا باعثاً قويّاً على تجديد العناية بالموضوع من ناحيته الصناعية العلمية . وكذلك اتجهت اليه عناية مصانع باير المشهورة سنة ١٩٠٩ واستنبط الدكتور فرتز هوفن Fritz Hoffman اسلوباً لتحويل الايزوبرين الى مطاط باستعمال الحرارة . وفي سنة ١٩١٠ اكتشف الاستاذ هريز طريقة استعمال الصوديوم لتحويل الايزوبرين الى مطاط ، وهي الطريقة التي كان ماثيوز الانكليزي قد اكتشفها في منشستر . ولكنه لما ذهب الى ادارة الباتنتة لتسجيلها وجد ان الانكليزي قد سبقه الى ذلك قبل بضعة اسابيع

الاّ ان المطّاط الصناعي لم يتجح في منافسة المطّاط الطبيعي في الثمن ولا في الحلول محلّه عند

منع وارداته عن المانيا خلال الحرب الكبرى ، لما كانت مسألة الثمن لا شأن كبير لها في نظر الحكومة الالمانية وحاجتها الى مادة حيوية كالمطاط لا تقاس بالمال . فقد قيضت السلطات الاميركية على ثلاثة بحّارة من الدنمارك يحاولون ان يهربوا المطاط الخاص باطباء الاسنان الى المانيا فاعترفوا بانهم كانوا يبيعون الرطل منهُ بما قيمتهُ ٧٣ ريالاً ، وكان الالمان يستعملونهُ لاحكام وصل الاجزاء في الكمامات الواقية من الغاز . وهذا مثال واحد يدلُّ على ان مقدار ما صنع من المطّاط الصناعي في المانيا خلال الحرب بطريقة هوفمن او طريقة هرز لم يكن كبيراً

اما الانكليز فانفقوا نحو اربعين الف جنيه على طريقة بركن مدة سنتين ولكنهم لم يبلغوا فيها شأواً بعيداً . الاَّ ان حاجتهم الى المطاط لم تكن ماسة لان مصادر المطاط الطبيعي كانت تحت سيطرتهم

فاذا كان الالمان قد عجزوا في خلال الحرب عن صنع المطاط بطريقة التركيب الكيماوي ، وحاجتهم اليهِ اشدُّ ما تكون ، ومسألة الثمن ليست بذات بال ، فالراجح انهُ لا يحتمل منافسة المطاط الصناعي للمطاط الطبيعي في ابان السلم ، الاَّ اذا اكتشفت طريقة جديدة ، اسهل من الطرق التي تقدم ذكرها

واذن فمشكلة المطاط الصناعي قد حلَّت من الوجهة العلمية ، ولكنها لم تحلَّ من الوجهة الصناعية . . . . . الا . . . !

ونقول . . الاَّ . . لاننا اطلعنا في العدد الاخير من مجلة السينتفك اميركا على مقال لعالم اميركي يدعى الاب نيولند (Nieuwland) فيهِ وصف لطريقة استنبطها لصنع ضرب من المطاط ، يصلح لما لا يصلح لهُ المطاط الطبيعي مع انهُ يفوقهُ ثمناً . وهذا للمطاط الصناعي الجديد يدعى « دوپرن » Duprene

يقول الكاتب ان صناعة «الدوپرن» نشأت من بحث نظري في تفاعلات غاز الاسيتيلين . ذلك انهُ لاحظ سنة ١٩٠٦ ان تفاعلاً كيائيًّا يحدث عندما يمرُّ غاز الاسيتيلين في كلوريد Chloride النحاس وكلوريدات الفلزات القلوية . لم يكن التفاعل عنيفاً ، فلم يتولَّد سائل جديد ولا جامد جديد . بل كان هناك رائحة جديدة . فظنَّ ان هناك غازاً جديداً وان هذه الرائحة رائحتهُ

وقضيت السنون الاربع عشرة التالية ، حتى سنة ١٩٢٠ ، في تجربة التجارب بغية زيادة التفاعل للحصول على الغاز الذي يولد هذه الرائحة ، اذا امكن ، ودراسة تركيبه وخواصهِ . واخيراً وضع كلوريد الامونيا محل كلوريدات الفلزات القلوية ، فلما مرَّ غاز الاسيتيلين في محلول كلوريد النحاس (Cuprous Chloride) وكلوريد الامونيا ، ظهر ان التفاعل اسرع جدًّا مما كان في المحلول القديم واستنفد المحلول مقادير كبيرة من غاز الاسيتلين في خلال التفاعل . وكانت دهشة الاب نيولند وصحبهِ عظيمة عند ما رأوا زيتاً جديداً قد تولَّد علاوة على الغاز ذي الرائحة المعروفة

وفي سنة ١٩٢١ ظهر ان هذا الزيت، مركّب جديد والجزيئة مؤلف من اتحاد ثلاثة جزيئات من الاسيتيلين فدعي دايفينيل اسيتلين (divinylacetylene) ومن خواصه شدة فعله، ومنها ان معالجته بدايكلوريد الكبريت (sulphur dichloride) تسفر عن مادة مطاطة تشبه المطاط الطبيعي من بعض الوجوه ولكنها اكثر منها ميوعة مما يحول دون استعمالها

وفي سنة ١٩٢٥ حضر الآب نيولند مؤتمر الكيمياء العضوية في مدينة روتشستر بنيويورك فحدّث اعضاء المؤتمر بحديث هذه التفاعلات الجديدة التي كشفها فاهتم بالموضوع اصحاب شركة «دوبونت دو نمور» (وهي من اكبر شركات المواد المتفجرة والمفرقعة والسلاح في اميركا) فاشتروا امتياز هذا الاكتشاف من الناحية التجارية . ولكن البحث اثبت ان المطاط المصنوع من هذا الزيت لا يصلح لانهُ لا يحتفظ بليونته الا مدة قصيرة ، وكل سعي لتصحيح هذا النقص فيه افضى الى الخيبة

الا ان كيماويي الشركة لم يغفلوا في الوقت نفسه دراسة ذلك الغاز الذي استُدِلَّ عليه اولاً بوائحته. فبعد بحث قليل تبيّنوا انهُ في الامكان توليد مقادير كبيرة منهُ وعند تحليله ثبت انهُ مركب من اندماج جزيئين من جزيئات الاسيتلين ودعي (مونوفينيل اسيتلين)

وقد بلغ علماء هذه الشركة من سيطرتهم على التفاعل الكيماوي الذي يولد الزيت والغاز المذكورين انهم يستطيعون اذا شاؤوا ان يقللوا من توليد الزيت ويزيدوا من توليد الغاز. وهذا من محاسن الصدف او من بدائع الاستنباط ، لان الغاز دون الزيت يصلح لصنع المطاط المعروف باسم دوبرين

واذ كان علماء شركة دو بونت ماضين في دراسة الغاز تبين لهم انهُ يتفاعل بسهولة مع كلوريد الايدروجين اي الحامض الايدروكلوريك ، فيتولد سائل طيار (اسمه كلوروبرين او كلوروبوتادين) وان جزيئات هذا السائل تتحد بعضها ببعض ، فتزداد كثافة السائل ثم يصبح مادة مطاطة ، يمكن تقسيتها بالاحماء فتصبح مطّاطاً صناعيًّا جيداً — وهذا المطاط الجديد هو الدوبرين Duprene

ان نفقة تحضير الدوبرين الآن تجعله اغلى من المطاط الطبيعي . ولكنهُ يصلح لوجوه من الاستعمال لا يصلح لها المطاط الطبيعي فهو شديد المقاومة للغازولين والكيروسين والزيوت والاوزون والهواء والحوامض ، فلا بدّ ان يفتح استعماله سبلاً جديدة في صناعة المطاط . وهذه صناعة يمكن ان تتوزع في ايان السلم ثم تشجع ويوسع نطاقها في ايان الحرب في البلدان التي تخشى انقطاع الوارد من المطاط الطبيعي اليها . وجميع المواد الاساسية التي يحتاج اليها كوك Coke وجير لتوليد الاسيتلين وملح الطعام لتوليد الحامض الايدروكلوريك

فالكيمياء خلقت صناعة جديدة ومهدت لاميركا — ولمن يتبعها — سبيلاً جديداً للاستغناء عن بعض المصادر الطبيعية التي خارج بلادها

الدوامة الكونية

الدليل على ان المجرّة تدور كعجلة كبيرة

لعلّ اثبات دوران المجرّة اقوم دليل على وحدة الكون النجمي . وفكرة دوران المجرة ليست بالفكرة الجديدة . فقد سلّم بناة العوالم في الانظمة الكونية التي ابتدعوها بان الدوران يشمل المجرّات كما يشمل الذرّات . ولكن هذا الرأي النظري ، من حيث تطبيقه على المجرّة لم يفرغ في قالب علمي الاّ سنة ١٩٢٦ ولم يقم الدليل التام على صحته الاّ سنة ١٩٣٣

ففي سنة ١٩٢٦ قدم الفلكي السويدي لندبلاد Lindblad رسالة الى اكاديمية العلوم السويدية ، بسط فيها نظرية حاول ان يعلّل فيها بعض اوصاف الحركة النجمية ، بفرضه انها نتائج لدوران المجرّة . وبعد بضعة اشهر ، وصف اورت Oort — وهو فلكي في مرصد ليدن لا يتجاوز السابعة والعشرين من العمر — وسائل الرصد التي يمكن الاعتماد عليها لامتحان نظرية لندبلاد وشرع في تطبيقها . وفي سنة ١٩٢٧ شرع الفلكي بلاسكت Plaskett — وهو احد علماء مرصد فكتوريا بولاية كولومبيا البريطانية بكندا — يطبق وسائل اورت على النجوم السحيقة التي سبق لهُ رصدها في مرصد فكتوريا ثم توسع سنة ١٩٣٣ في تطبيقها على مئات من النجوم الاخرى

فأحدث صورة رسمها العلم لدوران المجرّة ، قائمة على المباحث التي اتمّها هؤلاء العلماء الثلاثة ، اي لندبلاد السويدي واورت الهولندي وبلاسكت الكندي !

ولكن . . . ولكن اذا صحّ القول بان المجرّة قاطبة تدور كعجلة ، فكيف يمكن ان يكون فيها تياران من النجوم يسيران في اتجاهين متقابلين ، وهما التياران اللذان اكتشفهما العلاّمة كابتين Kapteyn سنة ١٩٠٤ ؟ ثم ان سترومبرج Stromberg اكتشف سنة ١٩٢٤ ان النجوم السريعة — اي النجوم التي تزيد سرعتها على ٥٠ ميلاً في الثانية — متجهة جميعاً الى نصف واحد من القبة الفلكية دون الآخر وان حركتها عامودية تقريباً على مركز المجرّة في كوكبة الرامي فكيف يتفق كلّ هذا ودوران المجرّة ؟ وكيف يمكن تفسيره ؟

ooo

لنفرض ان دوران المجرّة حقيقةٌ واقعة . فكيف يكون دوران النجوم في هذه الحالة ؟ كل ذلك يتوقف على توزيعها في الفضاء . فاذا كانت موزعة في المجرّة توزيعاً متساوياً اي اذا كانت ابعاد بعضها عن بعض متساوية ، فتأثير الجذب الى المركز ، يختلف بالنسبة الى بعدها عن المركز . وفي

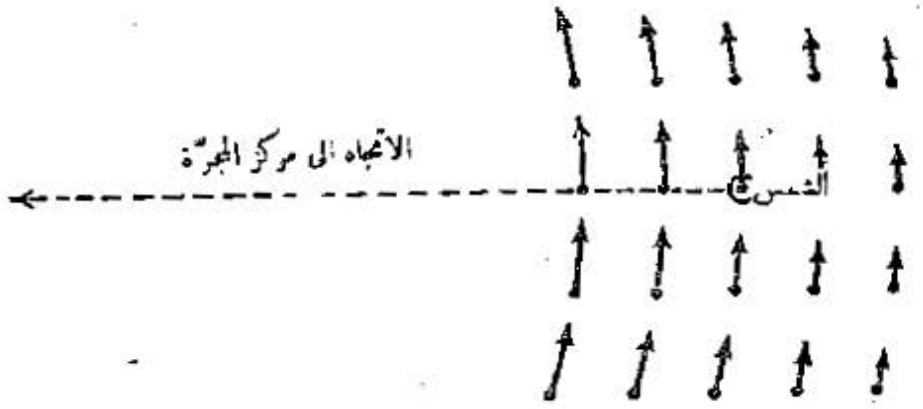

الرسم الأول

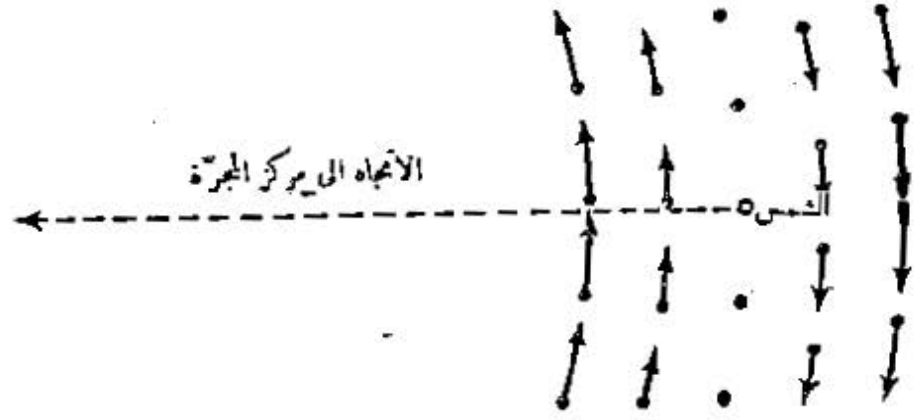

الرسم الثاني

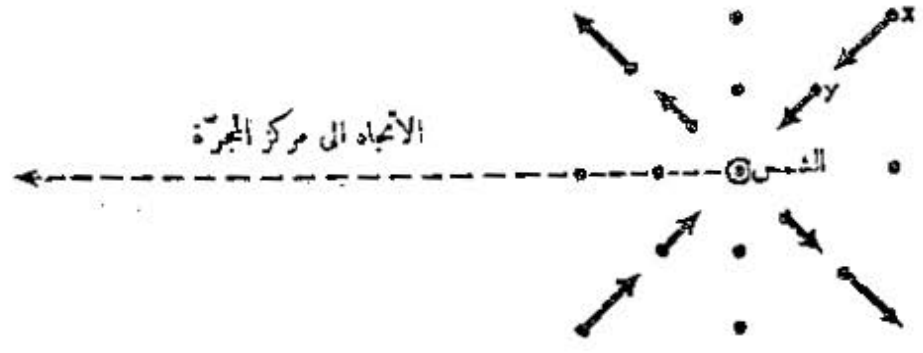

الرسم الثالث

هذه الحالة تدور المجرّة كأنها عجلة ، متماسكة الاجزاء اي انها تدور كأنها قطعة واحدة

ولكن النجوم غير موزّعة توزيعاً متساوياً في قبة الفلك ، بل هي اكثف تجمهراً قرب المركز منها عند الاطراف ، فقوة الجذب لا يمكن ان تعتمد على ابعاد النجوم فقط بل على مربّع الابعاد وفي هذه الحالة تكون النجوم القريبة من المركز اسرع دوراناً من البعيدة عنهُ . فأقربها اليهِ أسرعها. وأبعدها عنهُ أبطؤها . ولنا على ذلك مثال في النظام الشمسي . فعطارد وهو اقرب السيارات الى الشمس سرعتهُ ٢٩ ميلاً في الثانية . وتليه الزهرة وسرعتها ٢١ ميلاً في الثانية . فالارض وسرعتها ١٨ ميلاً في الثانية وهكذا الى بلوطون وسرعتهُ ميلان في الثانية . وهناك مثال آخر في النظام الشمسي نفسهِ وهو حلقات زحل فالدقائق المنتظمة في هذه الحلقات اسرع دوراناً في الحلقة الداخلية منها في الحلقة الخارجية

والمجرّة مؤلفة من ملايين النجوم ، بل ان عددها اكبر من عدد الدقائق التي تتألف منها حلقات زحل . ففي هذه الحالة ، ألا يكون من المعقول ان يفرض ان النجوم المتجمعة حول المركز ، تدور حولهُ بسرعات مختلفة ، في اتجاهها الى كوكبة الرامي؟ وقد يمكن تبيّن ذلك في الرسم الاول ، مع ان النسبة في الابعاد والسرعة غير محفوظة لتعذر ذلك على صفحات مجلة عند التمثيل الكوني

فقد يرى القارىء أن السهام في الخط المتوسط تمثل سرعة الشمس . وهي سرعة متوسطة . فالنجوم التي اقرب من الشمس الى مركز المجرّة اسرع منها ولذلك يرى السهام التي تمثل السرعة اطول من السهام التي تمثل سرعة الشمس . اما النجوم التي تفوق الشمس في بعدها عن مركز المجرّة فاصغر من سهام الشمس للدلالة على ان سرعتها اقل

هذه هي حركة النجوم كما تبدو لمراقب ينظر الى المجرة من نقطة في الكون خارجها . ولكننا نحن على سيار يدور حول شمس ، هي نفسها احدى شموس المجرة . فلا نستطيع ان نرى هذه الحركة البسيطة . وهذا يعني ان جميع النجوم التي اقرب منا الى مركز المجرة اسرع منا دوراناً حوله ، وهي لذلك تفوتنا في مسارها الكوني ، واما النجوم التي ابعد منا عنهُ فأبطأ منا حركة ، ولذلك تتأخر عنا في مسارها الكوني ، فتبدو كأنها تتحرك في اتجاه مناقض لاتجاه حركتها الحقيقية

ويمكن التمثيل على ذلك بالرسم الثاني

فهذا رهم بصري ، من قبيل الوهم البصري الذي يصيب رجلاً يطل من قطار سريع على قطار آخر بطيء السير ولكنه ماضٍ في اتجاه القطار الاول . فان المطل من نافذة القطار الاول يتوهم ان القطار الثاني يرجع الى الوراء

والواقع ان حركة اي نجم من النجوم هي خليط حركتين — عبور السماء وهي الحركة الحقيقية. وحركة التقدم او التباعد بالقياس الى المراقب على سطح الارض وتعرف بالحركة الشعاعية Radial Velocity ولما كانت النجوم اجساماً بعيدة عنا بعداً عظيماً فحركتها الحقيقية لا يمكن تبينها خلال عشرات

السنين التي رصدت فيها رصداً دقيقاً. واذاً فنحن نعلق املنا على معرفة حركتها التي تبدو فيها احياناً مقتربة منا او مبتعدة عنا

ومما يبحث على الاغتباط ان هذه حركة يمكن قياسها بصرف النظر عن بعد النجم عن الارض. وانما يشترط امكان الحصول على طيف واضح لضوء النجم الذي يراد قياس حركته. فاذا كان النجم مقترباً منا تجه الخيوط في خطوط الطيف الى اللون البنفسجي. واذا كان مبتعداً عنا كان الاتجاه الى اللون الاحمر. وبقياس مقدار الخيوط، تعرف سرعة حركة النجم. وعلى ذلك يبدو لمراقب على الارض ان النجوم طائفتان او تياران: تيار يتجه الى الارض وتيار يبتعد عنها. ولكن هناك طائفة ثالثة من النجوم يبدو انها واقفة في مكانها لا حراك فيها. وهذا يفسَّر بأنها اما ان تكون نجومها واقعة على الخط الذي يصل بين الشمس وقلب المجرة واما ان تكون نجوماً موقعها عمودي على هذا الخط حيث تقطعه الشمس. والرسم الثالث يوضح هذه الاقوال

***

فبعدما تمَّ لنديلاد وضع نظريته وضع اورت لها القواعد والعلاقات الرياضية، وعمد الى امتحان النظرية بالرصد. فالنظرية مثلاً تقتضي ان يكون بعد النجم عنا ٢٠٠ سنة ضوئية، حتى يحدث دورانه تغيراً في حركته الشعاعية مقداره كيلو متر في الثانية. ولكن ادوات الرصد لا تستطيع ان تتبين تغيراً يسيراً كهذا. فقرَّر اورت ان يحصر بحثه في النجوم التي بعدها الف سنة ضوئية على الاقل، حتى يكون مقدار التغير في حركتها نحو خمسة كيلو مترات في الثانية. فوجد نحو ٣٠٠ نجم يسهل رصدها من هذا القبيل فرصدها، فأسفر الرصد عن النتائج التي تقتضيها النظرية، اي وجد دورانها يتفق ومقتضيات نظرية لنديلاد

هذا اتفاق يستوقف النظر بين الحقيقة المشاهدة والنظرية العلمية. ولكن الحذر العلمي يقتضي دراسة عدد اكبر من النجوم قبل البت في صحة النظرية. ومن حسن الحظ ان العالم الكندي بلاسكت كان قد عني قبل بضع سنوات برصد طائفة من هذه النجوم لاغراض اخرى. ودوَّن في خلال رصدها سرعة حركتها الشعاعية. وكان عدد هذه النجوم ٥٥٣ نجماً وقد زادها بلاسكت ومعاونه بيرس Pearce الى ٨٤٩ نجماً سنة ١٩٣٣

فعندما نُظر في حركة هذه النجوم من ناحية نظرية لنديلاد ومعادلات اورت، اتضح ان كلَّ ما تتطلبه النظرية محقَّق في ما دوَّن عنها. فجاءت دليلاً قاطعاً على دوران المجرَّة بحسب نظرية لنديلاد. ودوران المجرَّة الآن من اكثر الحقائق الفلكية ثبوتاً

الفيلسوف لوك

وأثره في تطور فن التربية

حسن كامل
مدرسة العبة الثانوية الاميرية

لوك قبل كل شيء عالم نفساني واستاذ ضليع من فن تحليل اصل الآراء وعناصر العقل . وهو على رأس تلك المدرسة التي تضم تحت علمها كوندياك في فرنسا . وهربارت في المانيا وهيوم ومعظم الفلاسفة المحدثين في انكلترا . ولكن للرحلة بين علم النفس وعلم التربية سهلة الاجتياز ولذلك لم يبذل لوك مجهوداً ضخماً ليبرّز في التربية بعد ان امتوت له مكانته كفيلسوف كبير

﴿ بعض الآراء في التربية (١٦٩٣) ﴾ — هذا هو عنوان متواضع لكتاب نشره لوك في نهاية حياته واودعه ثمرة تجربته الطويلة . فقد كان طالباً نابغاً في كلية وستمنستر وشعر منذ نعومة اظفاره كما شعر ديكارت في كلية فليش — بالتحرّز من التعليم النموذجي الشكلي البحت . وكان مثلاً يحتذى للطلبة في جامعة اكسفورد . وفي عام ١٦٥٦ فاز بشهادة البكالوريا في الفنون وعين محاضراً في اللغة اليونانية فمدرساً للبلاغة والفلسفة الخلقية

ويرجع الفضل في تكوين اغلب آرائه في التربية الى اقامته في اكسفورد . وقد دأب على تطبيق هذه الآراء وتمحيصها مستعيناً في ذلك بملاحظة الاطفال في أسر اصدقائه عن كثب حتى تمكن بدراسته اياهم وتتبعه تطور امزجتهم ونفوسهم من وضع نظرياته في التربية تلك النظريات المطبوعة بآثار تجربته العملية . فما لا ريب فيه ان كتابه « آراء في التربية » هو ثمرة اشتراكه مع اصدقائه في تربية ابنائهم . وقد فاز هذا المؤلّف بشهرة عالمية . وكان لما عرض فيه من نظريات اعمق الأثر فيما كتب روسو وهيلفيتيوس في موضوع التربية . وقد قال عنه احد اساتذة علم التربية الفرنسيين في اواخر القرن الثامن عشر « لو اعيد طبع هذا المؤلف الآن لاحرز نجاحاً عظيماً جداً »

﴿ تحليل كتاب « آراء في التربية » ﴾ — هذا الكتاب جدير بأن يقرأ من اوله لآخره . فقد درس فيه لوك جميع مسائل التربية دراسة عميقة في بعضها وسطحية في البعض الآخر . ولذلك فمن العسير ان يستطيع المرء ان يقوم — في مقال قصير — بتحليل وافٍ لاجزاء هذا السفر الجليل جميعاً . ولكننا سنحاول جهد الطاقة أن نستخلص منه اهم مبادئه الاساسية وهي : أ — مبدأ

---

(١) يعني الاستاذ حسن كامل بوضع كتاب في تاريخ المذاهب المختلفة في التربية وتطورها ، وهذا المقال منتزع من فصل في « فلاسفة القرن السابع عشر وآرائهم في تطور فن التربية »

التقشف في التربية الجسدية : ٢ — مبدأ الفائدة العملية في التربية الفكرية : ٣ — اما فيما يتعلق بالتربية الخلقية فلوك ينادي بالشرف كمبدأ يعتبره قاعدة حكم الانسان لنفسه بنفسه

﴿ التربية البدنية ﴾ — مثل التربية الأعلى في نظر لوك هو مبدأ « العقل السليم في الجسم السليم » . وقد كان لوك طبيباً ولذلك فهو اخصائي في مسائل تربية الجسم . ولكن كثيراً من المربين يعتقدون انهُ اساء الى آرائهِ بمبالغته في المطالبة بحرمان الجسد حرماناً متطرفاً . فهو يقول ان نظريته تتلخص في عدد قليل من القواعد سهلة التطبيق وهي : كثير من الهواء . والتمرينات . والنوم . ونظام في الأكل بسيط يجب ان نستبعد منهُ النبيذ والمشروبات القوية . وملابس ليست كثيرة الضيق ولا شديدة التدفئة . واخيراً وبشكل خاص ينبغي ان يتعوّد الانسان ان يكون رأسه وقدماهُ باردة . وان يغسل قدميهِ كثيراً بالماء البارد واني يمرضهما للرطوبة

ولوك هو اول مربٍّ تكلم في اسهاب وانتظام عن غذاء الطفل وملابسه ونومه . وهو واضع هذا المبدأ الذي اخذه عنهُ روسو وهو : « فلتترك للطبيعة امر تكوين الجسم كما تريد » ولذلك فهو يشير بعدم استعمال الملابس الضيقة وبالحياة في الهواء الطلق والتعرض للشمس . وبأن يلعب الاطفال عراة الرؤوس والاقدام لا يؤثر فيهم الحر ولا البرد

اما فيما يتعلق بالتغذية فلوك يحرم على الاطفال حتى سن الرابعة السكر والنبيذ والتوابل واللحم وهو يبيح طعم التفاح والكمثرى ويمنعهم من اكل الخوخ والبرقوق والعنب . ولا يرى لوك انهُ من المحتم ان نحدد دائماً ساعة معينة لتناول الطعام . وهذا خطأ لا يقره عليهِ أحد . ثم انهُ يطالب بأن يكون حذاء الطفل رقيقاً لدرجة تسمح للماء ان ينفذ الى قدميهِ اذا وضعتا فيهِ ! . . .

والثابت ان لوك يريد معاملة الاطفال في قسوة كبيرة . وهذا غريب حقاً لو عرفنا ان لوك نفسه كان رقيق المزاج . ولعل مدام دوسو فيليبه كانت اكثر منهُ حكمة واقرب منهُ الى الصواب عند ما قالت : « اذا كان ابنك قوي البنية فالتربية الخشنة هي التربية المثلى لهُ . وان كان رقيقاً في محاولة جعله قويًّا قتلتهُ »

واساس فكرة لوك انهُ يعتقد ان الجسم يتعوّد كل شيء . ولإثبات خطأ هذه الفكرة يكفي ان نسرد قصة بطرس الاكبر الذي اعتقد يوماً انهُ ينبغي على جنود البحرية ان يعتادوا شرب الماء المالح وأصدر فعلاً امره الى الصبية الذين كانوا لا يزالون في دور التمرين بألاّ يشربوا الاّ ماء البحر . فكانت النتيجة ان ماتوا عن آخرهم . ووقفت التجربة عند هذا الحد

وعلى الرغم من ان تعاليم لوك من هذه الجهة لم تجد مؤيداً لها غير روسو الاّ انهُ يجب علينا الاعتراف بأنها في مجموعها اثارت اعجاب كثير من المربين لانها قائمة على فكرة الرجولة في المعاملة والقناعة ولانها تقرب الطفل من الطبيعة بقدر الامكان مستبعدة بذلك كل رخاوة وافتعال للرقة

﴿ التربية الخلقية ﴾ في اعتقاد لوك ان التربية الخلقية تفوق التعليم الحقيقي شأناً وتأثيراً ويقول

في ذلك . ان ما يتمناه الرجل الكامل لابنه الى جانب ما يتركه لهُ من ثروة هو اولاً : الفضيلة . ثانياً : التبصر . ثالثاً : الاخلاق الحسنة . رابعاً : التعليم

والفضيلة والتبصر اي الصفات الخلقية والصفات العلمية هي في رأيه في المكان الاول . « اما التعليم فهو أتفه اجزاء التربية» وهو في كتابه «آراء التربية» يكثر من التكرار والعود الى ما عرض لهُ من مسائل . ولكنهُ اكثر ما يكون الحاحاً في ضرورة تدرُّع الانسان بالفضيلة وتمسكه بأهدابها

وليس من شك في ان لوك — ويشبهه في ذلك هربرت سبنسر — لم يلتفت الى التأثير الخلقي الذي يتركه نور العلم في قلب المرء وارادته . ولكنهُ عارض بفكرته السابقة رأي البعض القائل بوجوب تجميل الذاكرة بالمعلومات وانماء الذكاء قبل كل شيء فلا ريب ان اهم مسائل التربية هي تكوين عادات خلقية طيبة وبذر بذور العواطف النبيلة وانشاء اخلاق فاضلة

﴿ الشرف مبدأ النظام الخلقي ﴾ ماذا اعدَّ لوك من وسائل لتحقيق ما يصبو اليه من تربية خلقية يضعها موضعها اعني في المحل الاول ؟ لم يكن مبدؤه المنفعة قبل كل شيء كما نادى بذلك روسو فيما بعد . لانهُ وان كان نفعيًّا (utilitaire) في التعليم والتربية الفكرية كما سيظهر فيما بعد فانه لم يكن كذلك في التربية الخلقية . وكان يعارض معارضة شديدة في مبادىء الارهاب وسلطة المدرّس والآباء القائمة على الخوف من العقاب وعلى الشعور بالرهب الذي يبغضه لوك لما فيه من عبودية . وهو لذلك ينقم على نظام العقاب . ولم يتكلم لوك عن حنان الآباء وعطفهم لانهُ كان لا يعتقد بامكان الحصول على نتيجة كبيرة من طريق حساسية الطفل (la sensibilité de l'enfant)

ولكنه كان يريد معاملة الطفل منذ نعومة اظفاره معاملة الرجال . ناسياً بذلك ضعف طبيعة الطفل . ولذلك تراه ينادي بتأصيل عاطفة الشرف في نفس الطفل من البدء وحثّهُ على الخوف من الخجل ولعلَّ هذا شعور نبيل اخشى ان يكون فوق مستوى مواهب الطفل . فالشرف وهي كلمة يعتبرها — المفكرون مرادفة لكلمة الواجب — يمكن ان يكون مرشداً لضمير مراهق تمَّ تكوينه او ما يقرب من ذلك . ولكن أليس من غير المعقول من الناحية العملية ، ان يشعر الطفل منذ سنواته الاولى بتقدير او باحتقار من حوله ؟ وقد قال في ذلك احد ناقدي لوك الانكليز : « اذا كان من المستطاع ان نوحي الى الطفل بالاهتمام بسمعته . اذن لاعترفت مع لوك بأن في مقدورنا ان نكوّن الطفل كما نريد وان نلهمه حب الفضيلة باشكالها المتباينة » . ويضيف هذا الناقد الى ذلك قوله « ولكنني اشك في ذلك كل الشك رغم كل تأكيدات لوك »

وقال (كانت) بحق « انه لجهد ضائع ذلك الذي نبذله في التحدث الى الاطفال عن الواجب . فهم يرونهُ شيئاً لو خولف لتبع مخالفته العقاب . لذلك لا يجب ان نحاول اثارة عاطفة الخجل عند الطفل . بل يجب الانتظار حتى يصبح شابًّا لان هذه العاطفة لا يمكن ان تجد لها مجالاً في نفسه الاَّ اذا ثبتت فكرة الشرف فيها » . ولوك يخطىء عند توهمه ان للطفل من النشاط الخلقي ما يسمح

لنا بالاعتقاد بان مجرد الشعور بالشرف يمكن ان يكون رادعاً قوياً . وهو يخطىء ايضاً في اعتماده على قوى الطفل الفكرية التي يراها كافية للتباحث معه ابتداءً من اليوم الذي يتكلم فيه

ولا جل تزويد الطفل بالعادات الطيبة وتهيأته للفضيلة تضع الطبيعة تحت تصرف المربي حساسية الطفل نفسه ومتفهمته ونور ذكائه . ولا يمكن الا مع انقضاء الزمن وتقدم السن ان يصبح مبدأ سام كالشعور بالشرف وبالواجب، قانوناً اعلى يسيطر على ارادة الطفل ويلزمهُ بضرب خاص من التصرُّف

وخطأ لوك في طريقته في التربية الخلقية يرجع الى انهُ لا يريد الاستعانة بقلب الطفل ومقدرته الكبيرة على الحب . وإلى اسرافه في معاملة الطفل كمخلوق عاقل وتقرية مبدأ استقلال النفس عنده

ولعلَّ من الصواب ان يقال انهُ اذ كان من الخير ان نحترم حرية الرجل وكرامته عند الطفل فلا ينبغي بتاتاً ان ينقلب هذا الاحترام خرافة . وليس من المؤكد ان استبعاد الخوف والضغط هو من شروط تكوين الارادة الثابتة القوية

﴿ استبعاد العقوبات الجسمانية ﴾ — لم يتوسع لوك في شرح نظريته في النظام الخلقي (la discipline morale) . ولكنهُ يقدر نقص تفصيله في شرح الجزء الايجابي من نظريته اسهب في تفصيل ما لا يجب ان نفعله لتحقيق اغراضه . وتعد الفصول التي كتبها لوك عن العقاب الجسماني من أمتع ما كتب . وقد نقل روسو كثيراً منها . وثمة تشابه بين نظرية مونتيني في « الوداعة القاسية » وقاعدة لوك في التربية الخلقية . فكلاهما يقول بان نظام السوط نظام استعباد يجعل من الطفل عبداً . ولم يخرج لوك على آراء عصره الا في نقطة واحدة وهي انهُ اباح استعمال السوط في الاحوال الخطيرة ولاجل كبح جماح الطفل الثائر العنيد . ولا شك ان في هذا الرأي جرأة ممدوحة في وقت كانت فيهِ المعاهد العلمية في انكلترا تعتقد انها ملزمة بأن تذيع على الجمهور وتنشر في اعلانات الصحف ان تحريم العقاب الجسماني يعد بين مزايا التربية فيها

ومن العجيب ان نعرف ان المدرسين احتفظوا على الرغم من كل ذلك بعادتهم القديمة في تأديب التلاميذ بالسوط . والاغرب ان الطلبة انفسهم كانوا متمسكين به كل التمسك . فقد كتب احد الطلبة الانكليز القدماء يقول « في عام ١٨١٨ كان لناظر مدرستنا آراء خاصة جريئة . فاراد استبدال السوط بالغرامة المالية . ولكن الطلبة قاموا في وجه هذا الاصلاح . وذلك لان السوط كان لا يتعارض في نظرنا وكرامة الرجال . ولكن الغرامة اهانة لا يمكن ان تمحى ! . . وصاح الطلبة فلتسقط الغرامة وليحيا السوط ! وانتصرت ثورة الطلبة واعيد نظام السوط . وفرحنا لعودته فرحاً عظيماً . وفي صبيحة اليوم التالي لالغاء الغرامة وجدنا عند دخولنا قاعة الدرس غابة من الاسواط كبيرة وقفني المدرسون وقتهم في استعمالها بأمانة تامة »

﴿ التربية الفكرية ﴾ ينتمي لوك الى عائلة المربين النفعيين (pédagogues utilitaires) قليلي العدد في ايامه . فهم لا يريدون تكوين رجال ادب وعلم بل رجالاً عمليين مسلحين للنضال في الحياة

مزودين بالمعارف التي هم في حاجة اليها لتسوية حسابهم وتسيير دفة شؤونهم المالية وارضاء مطالب حرفهم واخيراً للقيام بما عليهم كرجال ومواطنين

﴿ دراسات نفعية ﴾ (Etudes utilitaires) . من اهم ميزات لوك انهُ كافح التعليم الشكلي البحت الذي لا يفوز الانسان فيهِ الاَّ بثقافة اسمية . وهو يزدري الدراسات التي تؤدي مباشرة للاستعداد للحياة. ولكنهُ بالغ في نقده ومديح التعليم الواقعي (réaliste) ناسياً بذلك ان الدراسات القديمة ان لم تكن نافعة بمعنى الكلمة الحقيقي وان لم تكن تكفي لسد الحاجات العادية للعيشة فأن لها فائدة اسمى بمعنى انها تصبح اداة جيدة في التنظيم الفكري اذا استخدمت استخداماً حسناً. ولكن لوك كان يخاطب اناساً متعصبين متحذلقين يعتقدون ان دراسة اللغتين اللاتينية واليونانية هي كل التعليم وغاية الغايات لا وسيلة من وسائل التعليم

ولا يجب ان نفهم ان لوك كان نفعيًّا اعمى يرغب في استبعاد كل دراسة ليس من ورائها نفع محقق . وكل ما هنالك انهُ لا يريد ان يضحي في سبيل هذا النوع الاخير من الدراسة تعليماً اعظم شأناً واكبر نفعاً

﴿ برنامج الدراسة ﴾ . يعتقد لوك انهُ ينبغي ان يتعلم الطفل الرسم منذ الصغر بالقراءة والكتابة ولكنهُ يحتقر الفنون التي لم يسمح لهُ رواده الطبيعي بفهم اثرها العميق الوديع في نفس الطفل . وهو يحبذ الرسم لما لهُ من فائدة عملية وهو لذلك يضعه في مستوى القراءة والكتابة

فاذا ألم الطفل بهذه العناصر وجب ان يمرن بلغة والديهِ على قراءة القصص الصغيرة وعلى الانشاء وكتابة الخطابات العائلية وما الى ذلك

ويتبع ذلك دراسة لغة اجنبية حية . وينصح لوك لمواطنيه بدراسة اللغة الفرنسية فاذا تمكن الطفل منها تعلم اللاتينية. وقد طبق ما يشبه هذا النظام في فرنسا في القرن العشرين واضيفت اليهِ العلوم

***

اما فيما يتعلق باللغة اللاتينية فلوك يريد ان يتعلمها الطفل بواسطة الاستعمال والمحادثة اذا امكن وجود استاذ لتعليمها فاذا كان ذلك مستحيلاً فبالقراءة . وينصح بالاقلال من قواعد النحو والصرف بقدر المستطاع ! وهذا من آخر ما وصل اليهِ علماء التربية في تعليم اللغات في أيامنا هذه) والغاء المحفوظات وموضوعات الانشاء اللاتينية نظماً كانت او نثراً . ويحبذ التبكير في قراءة نصوص لاتينية سهلة . فهو لا يريد ان يتقن الطفل الكتابة باللغة اللاتينية بل يقول بان الغرض من دراسة هذه اللغة هو امكان فهم المؤلفين الذين كتبوا بها . ولكن المشايعين للقصائد الشعرية والخطب اللاتينية لم يسكتوا على احتجاج لوك على طريقتهم ومضوا يعذبون الطفل بارغامه على الكتابة بلغة لا يجيدها وفي موضوعات يكاد يجهلها . اما اللغة اليونانية فلوك يريد استبعادها تماماً ويقول انهُ يعرف تماماً ما لهذه اللغة من جمال . ويعترف انها مصدر التحف الفنية التي تفخر بها علومنا وآدابنا

ولكنهُ يريد ان يقصر دراستها على المطلعين والادباء والعلماء الاخصائيين وينصح بالغائها من التعليم الثانوي الذي يجب ان يكون مدرسة الحياة

فاذا خفف نظام الدراسات القديمة اتسع المجال لدراسات ذات فائدة عملية مثل دراسة الجغرافيا التي يضعها لوك في المكان الاول لان فيها مرانة جيدة للذاكرة والنظر . والحساب لانهُ ذو فائدة كبيرة في جميع اعمال الحياة حتى انهُ لا يكاد يوجد عمل لا يلجأ فيه للاعمال الحسابية . وما يسميه هو علم الفلك وهو في الواقع دراسة مبدئية لسير الكواكب . والجزاء الهندسة اللازمة لرجل الاعمال « والتاريخ » وهو « اكثر الدراسات لذة وابعدها اثراً في تثقيف العقل » وعلم الاخلاق والقانون والتشريع العادي كثير الاستعمال والفلسفة الطبيعية اي العلوم الطبيعية واخيراً حرفة يدوية وامساك الدفاتر

﴿ دراسات جذابة ﴾ ولما كان لوك نفعيًّا في اغراضه فهو يود ان نستخدم في التربية الفكرية وسائل جذابة فهو بعد ان وجه نقداً مرًّا الى المربين الذين يبعثرون قوى الطفل في دراسات مجدبة اعلن كراهيته لما يراهُ من شدة التمسك والاخلاص للاساليب التعليمية البحتة تلك الشدة التي ادت الى وسائل تمجها النفس وطرق مضنية لا يظهر المدرس بسببها الاَّ بمثابة معكر لصفو حياة الطالب

وعلى الرغم من انه يبالغ في آرائه من هذه الناحية فان له كل الحق في المطالبة بتطبيق اساليب جذابة ولقد ذهب في هذا الصدد الى حدّ القول بأنهُ يريد ألاَّ يجد الطالب فارقاً بين الدراسة واي نوع آخر من التسلية . وفي هذا ولا ريب شيء كثير من المبالغة . ولعله اراد ان يقول انهُ ينبغي علينا العمل على تذليل الصعاب الاولى في دراسة العلوم وعلى اغراء الطفل واسره دون الضغط عليه والابتعاد كل البعد عن الظهور بمظهر من يريد ان يلزم الطفل بالدراسة . وهو الامر الذي طالما اوحى الى الاطفال نوعاً من الاشمئزاز . وهو لذلك ينصح بالالعاب التي يمكن استخدامها في التعليم (jeux instructifs) لاجل تعليم الاطفال القراءة والاعمال الاولى ويقول في ذلك « يجب ان يتعلم الطفل القراءة وهو شاعر انهُ يتسلى »

ذلك ان الطفل في رأيه غيور على استقلاله ولسنا نعرف مربياً عرف قبل لوك حاجة الطفل الى النشاط والحرية . وانهما امران طبيعيان فيه . كما لا يعرف مربياً سبقه الى الالحاح في ضرورة احترام ذوق الطفل الشخصي وتعلقه باستقلاله

وقد قال بعده سلفه الانكليزي هربرت سبنسر « لا يحتفظ العقل الاَّ بالمعارف التي توحي اليه السرور والانتعاش . ولا يجد العقل سروراً وانتعاشاً الاَّ عندما تثير فيه نشاطاً عاديًّا يتناسب مع قواه الطبيعية . ولا يمكن ان يصح تعليم الاَّ في جو من النشاط »

﴿ الاستظهار ﴾ يقول لوك انه لا فائدة من الحفظ عن ظهر قلب . وذلك لان الذاكرة في رأيه ليست قابلة للتقدم وهو يقول ان النفس كفاءة فارغة جامدة وليست مجموعة من النشاط والقوى

الحية التي تفيدها المرانة وهو لا يعتقد ان المواهب على اختلاف انواعها يمكن ان تكبر او تنمو . وذلك لانهُ لا وجود لها بتاتاً في نظره ! . . ولعلَّ من الخير ان نترك هنا لوك يتكلم عن نظرياته بنفسهِ : اعرف جيداً بوجود مربين يشعرون انهُ يجب على الطفل ان يستظهر بعض الدروس لأن في ذلك مرانة لذاكرتهِ واعتناء لها . ولكن هذا الادعاء لا يستند الى ملاحظات صحيحة بل الى مجرد وجود عادة قديمة . ولست اشك في ان قوة الذاكرة ترجع الى طريقة تكوينها لا الى تقدم تكتسبهُ بالمرانة والعادة . والواقع ان العقل لا يستطيع ان يعي الاَّ الاشياء التي يعيرها انتباهه . وانه — لاجل ان يحتفظ بها — في حاجة الى التفكير فيها ليطبعها من جديد في ذاكرته . وهذا يجري بنسبة قوة الذاكرة الطبيعية . واذا نحن طبعنا الشمع او القصدير بطابع فان هذا الطابع يظل زمناً اقصر بكثير من طابع آخر على النحاس او الحديد . ولاشك ان التأثير في النفس يدوم زمناً اطول اذا دامسنا على تجديده بالتفكير فيهِ . ولنعلم ان كل عمل من اعمال التفكير في تأثير ما هو بمثابة تأثير جديد . ولا يجب ان نفكر الاَّ في عدد هذه التأثيرات اذا اردنا ان نعرف الزمن الذي يمكن للعقل ان يحتفظ خلالهُ بهذا التأثير . ونحن اذا دفعنا الطفل الى استظهار بضع صفحات باللغة اللاتينية لانؤهل ذاكرتهُ لان تعي شيئاً آخر غير هذه الصفحات الاَّ بقدر ما تهيء سلاحاً من القصدير لان يحتفظ بطوابع اخرى غير فكرة لكون قد حفرناها عليهِ ! ! . واذا صح كلام لوك أصبحت التربية بامرها مستحيلة لانها تفرض مبدئيًّا وجود مواهب طبيعية يمكن ان نجعلها بالمرانة خصبة نامية

﴿ وجوب تعلُّم حرفة ﴾ واخيراً يريد لوك ان يتعلم تلميذه حرفة . ولكن الاسباب التي استند اليها في ذلك تختلف عما استند اليهِ روسو من اسباب . فلوك يقصد من وراء تعليم حرفة يدوية للرجل الكامل (the gentleman) ان يهيأ لعقله تسلية وفرصة للراحة من جهة ولجسمه تمرينات نافعة من جهة اخرى . ولكن روسو كان يود ان يتعلم تلميذه حرفة يدوية ليقي نفسه شر الحاجة اذا ما ثارت ثورة انتزعت منهُ ثروته . بل ان روسو كان متأثراً في رأيه هذا بهواجس اجتماعية يعتبرها البعض مخاوف اشتراكية فالعمل في نظره واجب يتحتم على كل فرد القيام بهِ « غنيًّا كان او فقيراً »

﴿ دور العمل ﴾ ومع ان لوك وجه كل اهتمامه الى الدراسات القديمة وتربية الرجل الكامل الاَّ انه لم يهمل تماماً مسائل التعليم الابتدائي . فقد كتب للحكومة الانكليزية تقريراً في عام ١٦٩٦ طالب فيهِ بتنظيم دور للعمل (Working schools) لاولاد الفقراء . وذكر في هذا التقرير ان كل طفل يزيد عن الثالثة من عمره ويقل عن الرابعة عشرة يجب ان يجد في هذه الملاجيء عملاً وغذاء

وفكرة لوك في ذلك هي ضرورة مكافحة فساد الاخلاق وذيوع الفاقة في طبقة خاصة من الشعب ومحاولة معالجة الكسل والتشرد وتخفيف رقابة الام المنصرفة الى عملها وتكوين رجال جد وعمال مجدين . وقد حاول بذلك تحقيق اصلاح اجتماعي واسع النطاق . واصبح مربي الرجل الكامل مهذب الفقراء

وقفة امام (ابي الهول)

لراجي الراعي

يا آلهة الصمت . ويا ملتقى الاسرار . ويا عقدة الالسنة . ويا مثال للمتأملين . ايها العظيم الذي اتخذ عظمته من صمته . يا ربيب الرمال ويا رفيق « الاهرام » ويا محبوبة المصريين . . ايها الاسد الرائع المتحفز منذ القدم للوثوب على فريسته التي لم يجدها بعد . . يا مصيبة الثرثارين . . ويا محط رحال الحائرين . . ايها المتجبر العنيد الذي لم يخفض رأسه لاحد في الدنيا التي مرّت كلها من امامه . . . ايها الضاحك الباكي ، السعيد البائس ، الحائر المهتدي ، المثل الصامي ، القوي بأهرامه ، الضعيف برماله ، الجريء بصدره ، الجبان بلسانه . . . ايها البحر الذي تلاطمت فيه الامواج ولم تنفث زبدها في فمه . . ايها الساحر المسحور ، سحَره غده الذي يزحف اليه فسحر بدوره يومه الذي يطل عليه . . . ايها الناسك الاكبر الذي لم يؤمن بالعالم فأقام في صومعة الرمال وانقطع الى ربه والى نفسه ، زعيم الناسكين تدق لهُ نواقيس الذكرى في اودية التاريخ التي تعاقبت عليه ومن يستطيع ان يحصيها . . . ايها المثل بالذكريات ضمرته بحضورها فلم يقو على العربدة وكيف يعربد الغريق ، وصرعته بحياتها وقبحها فجمد كالمجنون وتطأطأت عليه الخلائق . .

ايها البطل الضائع الذي ازدحمت في بطولته مشاهد القرون على مختلف صورها والوانها فضاقت بها فرحاً ولبثت مكانها لا تبدي حراكاً !

ايها المبرّد بوسادته الحجرية لظى المغرمين ، المخجل برباطة جأشه المذعورين الثائرين ، المحطم بصخرة حيرته وشكه سفينة المهتدين ، المخرس بفصاحة عينيه زمرة المعربدين ، الهازىء بالعابرات والعابرين ، الضاحك على الاذلاء الخائنين ، الباكي على الضاحكين الموقظ الراقدين المتعرس في المستيقظين

يا « ابا الهول » الذي حالته نفسه فلم يعرف اين يضعها وكيف يعبر عنها ، ويا ابنة « النيل » ويا سمير الفراعنة ويا رب وادي الملوك ، ايها الامين الاكبر الذي يحمل مفاتيح

التاريخ ولم يخن يوماً واجب الامانة ، ايها المُبرم مع المجهول عهداً يحسده عليه المعلوم، ايها الغارق في لجج اللانهاية ولم يبلل ثوبه ، ايها المبسوط في حجره المتكئ في تسليه ، أيها الطليق بعينيه السجين بين أحاجيه ، ايها الناظر الينا نظرته الغريبة بين صممه وبكمه كأنهُ يفتش في الارض عمن جاءه بالصمم وعقل لسانه ليصعقه ويضمه الى قلب رماله ! !

ايها الرجل العجيب الذي لم يتحرك بعد والكهرباء تشع في فمه وعينيه والطيارة تحلّق فوق رأسه ، ايها الصابر صبراً دهش له ايوب ، ودهشت له الارض التي تحمل موتاها ودهش له البحر الذي يحمل غرقاه والاثير الذي يحمل زفرات البائسين . .

ايها المتمرد الاكبر الذي لو استكشفت اسرار الخليقة كلها لظل وحده بنفسه سرًّا خفيًّا . . ايها الحاكي الذي يردد صدى الانسانية ، ايها المدّاد الاكبر الذي يحصي انوار الخليقة وظلماتها وساعات نعيمها وبؤسها . . .

يا ابا الهول . . اتيتك بعد تلك القرون التي توالت على رأسك ، اتيتك متأخراً . . . اتيتك في القرن العشرين وتفرست فيك فخطرت لي النعوت والاسماء التي كسوتك بها ، رأيتك بعيني ولم ادر بأي عين رآك اسلافي . . وحرت فيك كما حار الذين تفرسوا فيك من قبلي ورمتني تلك الحيرة بين امواج الخيال فغرقت في اوصافك وتخبطت في اسرارك . . .

ما هي حقيقتك ؟ واين هي ؟ . . وهل تجهلني يا سيدي كما اجهلك . . . من انا ؟ . . انظر اليّ جيداً . . أقويٌّ انا ام ضعيف ؟ اسعيدٌ انا ام بائس . . . انا كاتب يصبح ويمرض في القراطيس رسوم النفس والحياة فهل ازعجك صياحي وهل رأيت رسومي ؟ هل انت شاعرٌ بي ام انت تنظر اليّ وترى نفسك ؟ ؟

قل لي يا « ابا الهول » ألأمسي انا ام لغدي ، واين هو وقتي في جدول الانسانية . وهل في جبيني السطر الذي تمتّش عنهُ منذ القدم ؟ امصيبٌ انا في عقيدتي ام مخطئ ؟ انا للشاعرية فهل في حجرك من شعري وهل الشعراء في نظرك هم الناس . . وهل في صدرك القاسي فؤادٌ رحيم ؟ ؟

اتيتك لاسألك عن حقيقتك وحقيقتي فهل من جواب يخرج من فلك فيريحني... اما تاقت نفسك يا صاحبي الى الكلام ولو مرة واحدة... ألم تسأم الصمت... ولكن لا.. ابق صامتاً فاني اخاف اذا تكلمت . ان لا يقال بعد ذلك : هذا « ابو الطول » . . ان صمتك حديث الناس وقد لا يكون حديثك حديثهم فتكون الكلمة الاولى التي تنطق بها وبالاً عليك ودليلاً على انك لم تكن الاّ حجراً ! ابق صامتاً ، ان قوتك في صمتك، انت ملك يجثم على عرش الصمت فلا تخلع ملكك بيدك . . .

ولعلك فقهت معنى الحياة فرأيت ان الصمت خير ما فيها ، فما الفائدة من الكلام وهل يصلح اللسان ، ذلك الثرثار الضعيف المزعج ليحلّ الاحاجي ويعبر عن اسرار النفس والطبيعة ؟ ! وهل يقوى على الثبات في ساحة النفس الكبيرة الحساسة ساعة يثور بركانها وتتطاير حممها ....

انظر الى الفيلسوف كيف يخرس ساعة يصطدم بالمجهول ويقف امامه صاغراً ! والى الجندي كيف يعقل لسانه ساعة يصطدم بالخطر ويقبل على الموت ! والى الفنان كيف يصمت صمته العميق ساعة يسحره الجمال وتحتلّ الشاعرية الحقيقية اعماق قلبه .. وانظر الى الفقير الذي شرب آلالات الكؤوس كيف يعجز عن النطق وفي فمه كل دموعه، والى المؤمن الناسك كيف يقطع لسانه ليتّصل بالخالق ، والى الفسور والاسود كيف تأوي الى عزلتها وسمتها وترتفع عن الخلائق . . .

ابق صامتاً يا « ابا الطول » فقد يكون في صدرك كثير من الحسد والضغينة والرياء والضعف والكبرياء والطمع واللؤم وانا لست بحاجة الى نفث سمومها فيكفيني ما ينساب في طريقي من الاذاعي ، يكفيني هذا الانسان الذي يرزع لسانه الشقاء في العالم ويكشف عما انطوى عليه صدره من تلك البضاعة النتنة ! . . .

ابق صامتاً فلا ادري ما وراء لسانك ... ان كنت انساناً فزميلك يكفيني ، وان كنت من جماعة « الاولب» فابق بين آلهتك . . .

ابق صامتاً ؛ فهذه الانسانية الثرثارة لا تخاف الاّ الصامتين

موقعة ناڤارين البحرية

٢٧ صفر سنة ١٢٤٣ هـ ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ م

للوكنور على مظهر

— ١ —

كانت بلاد اليونان جزءاً من بلاد السلطنة التركية العثمانية الى اوائل القرن التاسع عشر ترسل اليها الدولة من يحكمها من ولاة الاتراك . ثم بدت بها بوادر ثورة اهلية والّف أعيانها وشبانها جمعيات ثورية لتنفيذ الخطة التي رسموها من اشعال نيران الثورة في كل اليونان مع الاتصال بدول اوروبا حتى انهم جعلوا مركز هذه الجمعيات في الروسيا والنمسا لتتصل بحكومتها وتتلقى امداداتها ومعونتها المادية والادبية ولتكون بعيدة عن يد حكام اليونان من الترك . ولقيت هذه الجمعيات من تأييد الدول الاخرى ما ساعدها على اعلان العصيان والثورة في ارجاء البلاد اليونانية . نذكر من ذلك جمعية (هيتريا) الكبيرة التي تألفت سنة ١٨١٥ . وقد انضمّ اليها ذوو المكانة في اليونان من شبان وامبان ورجال الدين ولقيت التعضيد من كثير من امراء اوروبا ووزرائها وسرائها وذوي الرأي منهم . وكان ذلك بالنفوذ وبالاموال حتى ان القيصر الروسي اسكندر الاول كان في مقدمة معضديها ومؤيدي مطالبها وأهمها استقلال بلاد اليونان عن الدولة العثمانية

نشطت تلك الجمعية وغيرها على العمل سرّاً وسعت الى نشر دعايتها واذاعة اغراضها الثورية وانشاء فروع لها في بلاد اليونان وفي البلقان حتى زاد اعضاؤها على العشرين الفاً من الاعضاء حملة السلاح . ولما هبت ريح الثورة في بلاد المورة في ٢٥ مارس سنة ١٨٢١ كان في مقدمتهم رجل من رجال الدين اليوناني هو القس جرمانوس اسقف (پاراس) بشمال المورة ودعاهم للثورة فلبى اليونانيون الدعوة في البر والبحر . فكانت سفنهم المسلحة تقطع الطريق على السفن العثمانية في بحر الارخبيل وتأسر ما تأسر وتدمر ما يمكنها تدميره وتقتل ركابها وتأسرهم وتنهب ما معهم . واستولى الثوار على أهم مدن المورة حتى انهم احتلوا عاصمتها (تريبوليتسا) ونكلوا بالاتراك المقيمين بها تنكيلاً كبيراً . وأعلنوا استقلال الامة اليونانية سنة ١٨٢٢ . ورأت الدولة العثمانية ان تستعين بمصر بعد ان استفحل أمر الثورة والثوار الذين أحيوا عهد القرصنة وأحرقوا كثيراً من السفن التركية وأفسدوا أيما افساد . فأرسل السلطان محمود الى محمد علي وعهد اليه بتجريد الاسطول المصري للقضاء على القرصنة سنة ١٨٢١ ولتأديب الثائرين وانقاذ الاسطول العثماني الذي أضحى كالاسير في مياه البانيا . وأطاع محمد علي امر الخليفة السلطان محمود ولبى نداءه فكتب الى صهره محرم بك محافظ الاسكندرية وامير البحر للاسطول المصري باعداد اسطوله . ونحن ننقل ترجمة الامر التركي المقيد في سجلات البحرية القديمة

بتاريخ ٢٤ رمضان سنة ١٢٣٦ وقد نقله اسمعيل سرهنك باشا في كتابه حقائق الاخبار (ج ٢ ص ٢٣٨) وهاك نصه :

قد علم لكم انهُ أحيل تأديب وتربية الاروام التائرين على الدولة العلية على عهدتي . وبما ان السفن الحربية التي جرى استعدادها لغاية الآن قد بلغت اربع عشرة سفينة ولو ان قيادتها عائدة عليَّ (يعني انهُ كان يعتبر نفسه (محمد علي) قائداً أعظم وأميراً للبحر الاكبر للاسطول المصري) الاَّ انهُ لكثرة اشغالي قد عينتكم بدلاً عني لقيادتها . فتوكلوا على الله تعالى وأسرعوا بالاقلاع بها للجهة المقصودة. وأدوا الخدمة اللازمة عليكم في هذه المأمورية بحسب ما تقضي عليكم حقوقها المتقدمة . وقد تحرر صورة من هذا الامر الى مطوش قبودان الذي تعينت سفينته بمعيتكم . اه .

ونحن ننقل عن سرهنك باشا اسماء قباطين السفن التي ذكرها بعد ترجمة النص التركي لتولية محرم بك أمرة الاسطول المصري وهم :

فندقلي احمد قبودان وقوله لي مطوش قبودان واستانه لي نوري قبودان وارنبوط خليل قبودان وكريدلي حسن قبودان وبدرومي السيد علي قبودان وكريدلي اسمعيل قبودان واورفلي مصطفى قبودان المعروف ببشكاكي وچشمه لي مصطفى قبودان وبوزجه أطه لي حسين قبودان واسكندراني علي قبودان ولازلي عمر قبودان وازميرلي قره اوغلي قبودان وبدرومي علي محمد قبودان . اه

وذكر مسيو مانجان في كتابه تاريخ مصر في حكم محمد علي (ج ٢ ص ٢٤٠) ان الاسطول المصري اقلع من الاسكندرية في ١٠ يوليه سنة ١٨٢١ بقيادة الاميرال اسمعيل جبل طارق وانهُ كان مؤلفاً من ١٦ سفينة كاملة السلاح والمتاد وبها ٨٠٠ مقاتل بقيادة طبوز اوغلي

وقد كتب عبد الرحمن بك الرافعي في مؤلفه التنفيس عصر محمد علي (ص ١٩٩) تعليقاً على ذلك ان بعض المراجع الفرنسية تذكر قائد الاسطول باسم اسمعيل جبل طارق وبعضها باسم اسمعيل الجبل الاخضر مما يجعلنا نشك في هذا اللقب الذي ليس من الالقاب المألوفة في ذلك العصر . فالاسم الموثوق به انهُ الاميرال (امير البحر) اسمعيل بك . ثم عاد عبد الرحمن بك في الصفحة التالية فقال : تقول وهذا لا يمنعنا ان نرجع رواية المسيو مانجان لانهُ عاصر الحوادث التي كتب عنها وروايته تؤيدها المراجع الفرنسية الاخرى . ويجوز ان محمد علي عهد الى امير البحر محرم بك بقيادة الاسطول نيابة عنهُ كما جاء في الامر لكن الذي سافر فعلاً وقاد الاسطول هو اسمعيل بك كما يقول مانجان . ونحن نقول انهُ اقرب الى المعقول ان يكون مطوش قبودان هو الذي تولى القيادة فعلاً بالنيابة عن محرم بك اذا لم تصح قيادة محرم بك للاسطول الذي ابحر لسواحل بلاد اليونان لان محمد علي قد اشار اليهِ في خطابه الذي ارسلهُ الى صهره محرم بك وخصهُ بالذكر في ذلك الامر الصادر منهُ دون سائر القباطين الآخرين

ويذكر مسيو مانجان ان الاسطول المذكور ذهب الى مياه رودس لمطاردة السفن اليونانية .

والتق بالاسطول التركي في الدردنيل . ثم عاد الى الاسكندرية في مارس سنة ١٨٢٢ ليتأهب لنقل الحملة الى جزيرة كريد

ويذكر الجبرتي في نهاية ما وصلنا من تاريخه وهو آخر ما دوّنه في كتابه من حوادث ذي القعدة سنة ١٢٣٦ (اغسطس سنة ١٨٢١) ما يأتي :—

وفي منتصفه (القعدة) سافر الباشا (محمد علي) الى الاسكندرية لداعي حركة الاروام وعصيانهم وخروجهم عن الذمة ووقوفهم بمراكب كثيرة العدد بالبحر وقطعهم الطريق على المسافرين واستعصالهم بالذبح والقتل ، حتى انهم اخذوا المراكب الخارجة من استامبول وفيها قاضي العسكر المتولي قضاء مصر ومن بها ايضاً من السفار والحجاج فقتلوهم ذبحاً عن آخرهم ومعهم القاضي وجربه وبناته وجواريه وغير ذلك . وشاع ذلك بالنواحي وانقطعت السبل . فنزل الباشا الى الاسكندرية وشرع في تشهيل مراكب مساعدة للدونانمة (الاسطول) السلطانية . وسيأتي تتمة هذه الحادثة

ومما يؤسف لهُ ان تاريخ الجبرتي ينتهي بحوادث ذي الحجة سنة ١٢٣٦هـ (سبتمبر سنة ١٨٢١م) وشبت الثورة في جزيرة اقريطش (كريد) سنة ١٨٢١ وعهد السلطان محمود الى محمد علي باخماد الثورة ففعل اذ ارسل اسطولاً مصريًّا يحمل خمسة آلاف جندي بقيادة حسن باشا ونزلت القوة في ارض الجزيرة في يونيه سنة ١٨٢٢ واستمرت الحرب بين الطرفين حتى سنة ١٨٢٣ وانقذ العسكر المصري الحاميات التركية التي كان الثوار قد حاصرتها في القلاع . ومات حسن باشا القائد خلال الفتح فخلفهُ حسين بك في القيادة . وظفر المصريون بالثوار وحصروهم في جهة من الساحل . وشتتوهم شذر مذر . واضطر كثير منهم الى الفرار الى الجزر اليونانية وسادت السكينة بكريد وامكن المصريون ان يخمدوا ثورة قبرص هي الاخرى

ولما اشتدت الثورة وطال امدها في موره عهد السلطان الى محمد علي في اخمادها وجعله والياً عليها

ومما يذكر ان محرم بك لما اعد اسطولاً مكوناً من اربع عشرة سفينة حربية وجهزها بما يلزمها من الجنود والقباطين وجعل شاكر افندي السابق الذكر مهندساً لهذا الاسطول كما جاء في سجلات الدونانمة (الاسطول) المصرية انهُ لم يبق بالاسكندرية حينئذٍ غير ثماني سفن حربية فقط للمحافظة بها على السواحل المصرية فاخذ محمد علي يهتم بتجهيز اسطول آخر من السفن الجديدة التي تأتي اليهِ تباعاً من بلاد اوربا . ووصل محرم بك باسطوله الى مياه كريد فوجد من الجهة الشمالية منها سبع عشرة سفينة تجارية رومية (يونانية) تهاجم سفينة تجارية عثمانية . فهجم على الاروام واستولى على ثلاث منها . وولى الباقي الادبار وتخلصت تلك السفينة العثمانية من هلاك محقق . ثم انهُ سار الى بحر الارخبيل بحسب الاوامر الصادرة اليهِ . وبعد ذلك بشهر ارسل محمد علي اسطولاً آخر من ثماني عشرة سفينة بقيادة طبوز اوغلي قبوجي باشي محمد اغا للالتحاق بالاسطول العثماني الذي كان

يقوده البطرونة مختار بك» وامره انهُ متى انضمت كل هذه السفن الى بعضها البعض ومعها اسطول محرم بك تذهب لتخليص الاسطول العثماني المحصور بجهة رويزه «وكان يقوده القبطان نسوح زاده علي بك . وقد تم ذلك ورفع الحصار عن الاسطول العثماني . واخذ الاسطول المصري باشتراكه مع الاسطول العثماني في مطاردة مراكب الاشقياء من اليونانيين . فأحرقت كثيراً منها (سرهنك باشا ج ٢ ص ٢٣٨) . وعادت السفن الحربية المصرية الى الاسكندرية لاصلاح ما تلف منها سنة ١٢٣٨ هـ. وفي السنة التالية (٦ مارس ١٨٢٤ م) اصدر السلطان الى محمد علي بتعيين ولده ابرهيم باشا والياً على جزيرة كريد وموره وان يعمل ما يراه لحفظ النظام هناك . وارسل امراً بارسال نجدة مصرية لتساعد الجيش العثماني في بلاد اليونان . ويذكر لطفي افندي في تاريخه بأن الدولة العثمانية امرت خسرو باشا امير البحر للاسطول العثماني بمياه اليونان بان يذهب الى الاسكندرية لاصلاح سفنه فيها واخذ ما يلزم من الذخائر الحربية والمئونة منها ولمساعدة محمد علي باشا على نقل الجيوش المصرية الى بلاد موره . وكان خسرو باشا قد طلب العودة الى استنبول لاصلاح ما تخرب من سفنه الحربية . فلما صدر الامر بالتوجه الى الاسكندرية سافر اليها في ٢٨ الحجة سنة ١٢٣٩ هـ . وقبل وصوله بأيام قليلة حضرت ثلاث سفن حراقات يونانية الى ميناء الاسكندرية ودخلت واحدة منها الميناء حتى وصلت امام طابية صالح وأشعلت نارها لحرق الاسطول المصري الراسي امامها . فأطلقت عليها قوة القلعة المدافع وارسلت المراكب المصرية بعض زوارقها بالمدافع فهجمت عليها وأطفأت نارها فهربت الحراقتان الاخريان بسرعة . وامر محمد علي محرم بك وكيله بلال أغا بالخروج بخمس سفن حربية لاقتفاء اثر الحراقتين الهاربتين . وخرج بعدها محمد علي بنفسه في قرويت اسمه جناح بحري . وامكن الحراقتان الافلات من المراكب التي تعقبتهما . ثم وصل خسرو باشا العثماني وعلم بما وقع ولم يصادف السفن المصرية فاراد الاقلاع بنفسه للبحث عنها . فنعهُ موظفو الحكومة المصرية . وأسرعوا لاصلاح سفنه . وتزويد اسطوله بما يلزم من الادوات والذخائر . وارسل خسرو باشا مساعده في أمرة البحر بعشرين سفينة حربية عثمانية ذهب بها حتى سواحل الاناضول . ثم رجع فوجد محمد علي قد عاد الى الاسكندرية وشكر محمد علي لامير البحر خسرو باشا صنعه هذا . وأكرم وفادته وأمر باعطائه كل ما يطلبهُ قائلاً : اني بصفة كوني خادماً لولي نعمتي صاحب الشوكة السلطان المعظم اعلمك يا اخي الباشا انهُ ليس للدولة العلية فقط ان تطلب ذخائر وزاداً او اشياء اخرى مهمة للاسطول العثماني بل يمكنها ان تطلب جميع ما تريد . فاني مستعد للقيام به بحق الدين والملة . وان ذلك عندي من الامور المعتنى بها . واني لا اتأخر عن بذل نفسي في سبيل تقوية شأنها واعلاء كلمتها ورفع قدرها (من تاريخ لطفي افندي المذكور ونقله سرهنك باشا في تاريخه (ج ٢ ص ٢٣٩)

وابلغ خسرو باشا ذلك للباب العالي (الحكومة العثمانية) رسمياً فورد لهُ كتاب الشكر والثناء على محمد علي باشا لخدمته الجليلة التي ادّاها اولاً وثانياً ولقيامه باصلاح اسطولها وتجهيزه

الجيوش لمساعدتها وامره السلطان بتبليغ ذلك لمحمد علي باشا بالنيابة عنهُ

واعد محمد علي جيشه واسطوله الذي كان يستعد لتلبية نداء السلطان . اما الجيش المصري فكان مؤلفاً من ١٧٠٠٠ جندي مشاة وسبعمائة من الخيالة واربع بطاريات مدفعية ومدافع اخرى للقلاع والجبال وكان الجيش بقيادة ابنهُ الاكبر ابراهيم باشا البطل الشهير . اما الاسطول المصري فكان مكوناً من ٩٩ سفينة منها ٦٣ بين حربية وقنالات و ٣٦ تجارية استؤجرت لنقل العدد والذخائر . وكانت بقيادة امير البحر محرم بك على رواية سرهنك باشا (ج ٢ ص ٢٣٩) وبقيادة امير البحر اسمعيل جبل طارق على ما رواه عبد الرحمن بك الرافعي في تاريخه عصر محمد علي (ص ٢٠٢)

اما مسيو دروفتي قنصل فرنسا الذي رأى الاسطول المصري في الاسكندرية وكتب عنهُ بياناً الى وزير الخارجية الفرنسية في رسالته (وثائق مورد التي نشرتها الجمعية الجغرافية وثيقة رقم ١٤) فيذكر ان الاسطول كان مكوناً من ٥١ سفينة حربية و ١٤٦ سفينة نقل . قال المسيو دريو ان محمد علي اشترى من اوربا كثيراً من السفن حتى اصبحت عمارته البحرية تشبه الارمادا (وهي التي اعدها فيليب الثاني ملك اسبانيا لمحاربة انجلترا في القرن السادس عشر) . ويستمر مسيو دريو في حديثه عنها في كتابهِ (تاريخ اليونان السياسي ج ١ ص ٢٥٧) فقال : ولم ير الشرق حملة تدانيها في ضخامتها منذ حملة بونابرت . فكان الشرق اراد ان يغزو الغرب جواباً على حملة اوربا عليهِ . وهكذا تتقلب الاطوار في سير التاريخ (نقلاً من عصر محمد علي للرافعي بك ص ٢٠٣)

***

وابحر الاسطول العثماني الذي كان بالاسكندرية يوم ٣ ربيع الاول سنة ١٢٣٩ هـ (١٠ يولية سنة ١٨٢٤ م .) . ثم ابحر بعده الاسطول المصري . ومرت هذه الاساطيل على رودس ومنها الى خليج (ماكري) على شاطىء الاناضول لتلتقي بالاسطول التركي العثماني . وقد عهد الى رجاله بمطاردة مراكب الاروام (اليونان) التي كانت في بحر الارخبيل والقضاء على القرصنة فيهِ واخماد ثورة الجزر . ونزل ابراهيم باشا جنوده في خليج (ماكري) . واستعد للاقلاع بالاسطول المصري حتى يتقابل بالاسطول التركي . وقد عاد من الدردنيل حتى تقابلا في ميناء (بودروم) على شاطىء الاناضول . وكان ذلك في اواخر اغسطس . ومما لا مراء فيهِ ان الاسطول المصري كان اتم نظاماً من الاسطول التركي لما لاقاه هذا من مهاجمة الثوار اليونانيين ولا سيما سفن الحراقات التي كانت تقذف بنفسها وسط الاسطول التركي فتحرق منهُ ما تحرق بنارها . ومن ذلك ان الحراقات اليونانية قابلت الاسطول التركي فاحرقت مركب امير البحر وسفينتين اخريين . وتراجع الاسطول التركي جنوباً حتى قابل الاسطول المصري في مياه (بودروم) . وحول اليونان معظم سفنهم التجارية الى سفن مسلحة ولاحاطة مياه ابحار بلادهم وكثرة عدد جزرهم عرفت عنهم المهارة الكبرى في ركوب البحر . ولذا لا تعجب اذا عرفت ان اليونان اليوم بحرية تجارية ممدودة بالنسبة الى عددهم وصغر حجم بلادهم

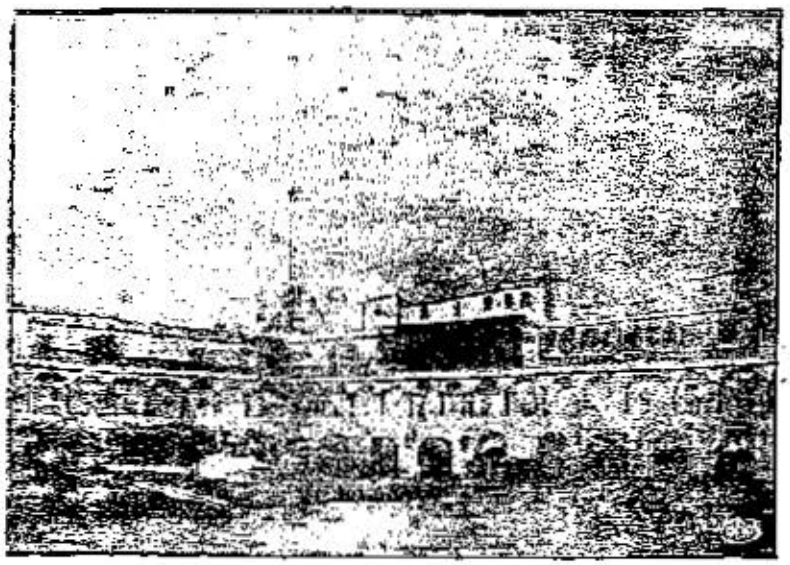

مساكن ضباط الترسانة

رسم سريزي بك

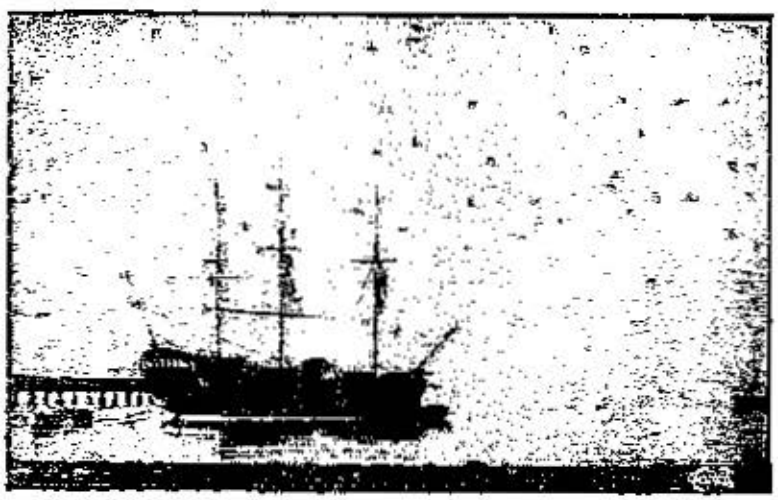

السفينة الحربية ابو قير

رسم سريزي بك

وعلى مقربة من (بودروم) هاجمت السفن اليونانية الاسطولين . وكان قتال بين الفريقين . ففرّ الاسطول التركي من الميدان وتركه للاسطول المصري يصد امام الاعداء ويضطرهم للتقهقر والفرار. وكان ذلك في سبتمبر سنة ١٨٢٤

ثم عاد الاسطولان فاتصلا مرة ثانية . وسارا الى مياه جزيرة مدللي ثم تابع الاسطول التركي سيره شمالاً الى الدردنيل . ورجع الاسطول المصري جنوباً . فقابلتهُ مراكب اليونان في مياه جزيرة (ساقز) وكانت معركة شديدة غرق فيها مركبان مصريان في اكتوبر سنة ١٩٢٤ . ثم عاد ابرهيم باشا بالاسطول الى ميناء (بدروم)

***

ورأى ابرهيم باشا ان القضاء على الثورة في الاراضي الرومية في شبه جزيرة (موره) . فأقلع الى ميناء (نوبليس) جنوباً . ثم سار منها الى كريت في ديسمبر سنة ١٨٢٤ . ورسا بسفنه في خليج السودة ليتحين الوقت المناسب للسفر الى سواحل مورة . ولننقل هنا ما ذكره مسيو دوبز في كتابه (فرقاطات محمد علي الاولى ص ١٢) الذي اشرنا اليهِ اذ يقول :

مضت خمسة اشهر على مغادرة الاسطول المصري الاسكندرية . خمسة اشهر مضت في جهود شاقة ومتاعب كثيرة ومخاطر كل يوم تتجدد . ولقد ابدى ابرهيم باشا في خلال ذلك من الثبات ورباطة الجأش ما يسترعي النظر ، اذ كان يقود اسطولاً مع سفن النقالات . وهي مهمة ليس من السهل الاضطلاع بها . وكان ابرهيم باشا في قيادته اسطولاً مكوناً من مائتي سفينة تقل نحو عشرين الف رجل من جنود وبحارة يضطلع بمهمة كما فعل بونابرت من قبل مع حفظ النسبة بين الموقفين حينما اجتاز البحر المتوسط في اواخر القرن الماضي (يقصد القرن الثامن عشر) بمهارة مكونة من ٢٨٠ سفينة تقل ٣٨٠٠٠ مقاتل . واذا عرفنا ان مصر لم يكن لها في ذلك الحين اسطول منتظم ولا تقاليد بحرية ولا هيئة من الضباط البحريين الاكفاء ولا العدد الكافي من البحارة المدربين ، وكان على ابراهيم باشا أن يبتكر وينظم بسرعة كل ما يلزم الحملة البحرية من سفن حربية وسفن للنقل ورجال وعتاد وان يروّض نفسه على ركوب البحر والقتال بين امواجه واهواله — اذا تذكرنا كل ذلك فانهُ يحق لنا ان نعجب كيف ان الاسطول الذي حشده محمد علي امكنهُ ان يثبت امام الهجوم الشديد الذي استهدف لهُ واصابهُ من عدوّ لهُ حظ كبير من المهارة من دون ان يخسر سوى سفينتين حربيتين وبضع نقالات . ولاشك ان هذه الحقائق تدلنا على مضاء عزيمة ابراهيم باشا وعلو همته ونظهر ما كانت عليهِ نفسه من صفات العظمة ومزايا الرآسة والقيادة . كما ان مواقفه في ميادين القتال ورباطة جأشه في مغالبة المحن تدل على شجاعة كبرى لا يسع اي انسان الاّ ان يبادر بالاعجاب بها . اه

وتنازع زعماء الحكومة الثورية اليونانية فيما بينهم ولم تصرف اعطية بحارة مراكبهم فاضطربوا لذلك . ورأوا الاستمرار في القتال وعلم ابراهيم باشا بذلك فانتهز الفرصة واقلع بأسطوله من (خانية) الى ميناء (مودون) في جنوب شبه جزيرة مورة ونزل الجنود الى البر في يناير سنة ١٨٢٥ وقد لاقى الجند التركي ما لاقى من المصاعب لتشديد الثوار عليهم براً وبحراً حتى لم يكن باقياً تحت يد الترك من المواقع سوى مودون التي نزل فيها ابراهيم باشا جنوده وميناء (كورون) التي كان يحاصرها اليونانيون

***

وللمواقع البحرية التي حدثت بشبه جزيرة مورة مكانها في كتب التاريخ . ونرى ان يكون كلامنا هنا قاصراً على موقعة ناڤارين البحرية ونرى ان نشير الى استيلاء المصريين على ناڤارين نفسها في ١٨ مايو سنة ١٨٢٥ ودخولهم المدينة منتصرين اعظم انتصار مما جعل اليأس يدب في صفوف اليونانيين ووطد مركز الجيش المصري لان ناڤارين ومودون وكورون قواعد حربية هامة يهيمن بواسطتها الجيش على مورة كلها . وقد حدث اثناء حصار المصريين لناڤارين ان امر المصريون سفينتين يونانيتين وافلتت بقية سفنهم الى بحر الارخبيل ، وتمكن امير البحر اليوناني (ميوليس) من الاقتراب من ميناء (مودون) التي كان الاسطول المصري راسياً بها واستطاعت الحراقات اليونانية من اشعال النار في السفن المصرية الراسية خارج الميناء . واشتدت الريح فامتدت النيران الى بقية السفن فتعذر اطفاؤها ولم ينج بحارتها بأنفسهم الا بمشقة فائقة وحرق كثير من السفن لذلك . وامتدت النيران الى المدينة نفسها فالتهمت جزءاً منها وتناولت مخازن البارود فنسفتها وتهدم بنيانها وهدمت الاماكن المجاورة لها . كل ذلك حدث اثناء حصار ناڤارين فلم يثن ذلك ابراهيم باشا عن عزمه

واستمر على القتال حتى استولى على المدينة ثم استولى بعدئذ على ميناء (كلاماتا) بعد استبسال مقاتليها . ثم فتح (اركاديا) الواقعة على البحر غربي مورة . ثم فتح مدينة تريپولتسا Tripolitsa عاصمة مورة في يونية سنة ١٨٢٥ وكانت موقعاً منيعاً للثوار . ثم قهر جمعاً من الثوار في وادي ارجوس Argos وعلى مقاتل الثوار بوادي (لكونيا) ثم احتل پاتراس . وبذلك اصبح شبه جزيرة مورة في قبضة الجيش المصري ما عدا مدينة (نوپلي) . واستنجد رشيد باشا قائد الجيش التركي بابراهيم باشا وكان الاول محاصراً لمدينة ميسولونجي وقد استعصت عليه . فسار اليها بحراً بعد ان وصله الامداد من مصر وحاصرها براً وبحراً . وكانت السفن المصرية بقيادة محرم بك فاحتل الجزر الواقعة في مدخل الميناء وحصنها لمنع ورود المدد بحراً الى ميسولونجي والذي تقدم لمهاجمة الاستحكامات المشيدة على الجزيرة الصغيرة الواقعة امام ميسولونجي هو سر چشمه حسين بك لحد

وؤساء البحرية المصرية وبذلك سهل هجوم الجيش على تلك المدينة . وداهم الثوار عنها دفاعاً عنيداً وآثروا الموت على التسليم اخيراً فاشعلوا النيران بما كان عندهم من البارود فانفجر . وقتلوا جميعاً . وكانت خسارة الجيش المصري جسيمة . فقد بلغ عدد قتلاهم في الهجمة الاخيرة نحو الفي قتيل . ولكنهم استولوا على ميسولونجي في ٢٢ ابريل سنة ١٨٢٦ . ثم فتح الجيش التركي بعدئذ اتينا بعد حصار شديد فسلمت في يونية سنة ١٨٢٧

وعاد معظم الاسطول المصري الى مصر لاصلاح ما اصاب سفنه من عطب وجاءت السفن التركية لنفس السبب . وضم محمد علي الى ذلك ما كان قد اوصى عليه من سفن حربية جديدة في مرسيليا وليفورن وفينسيا (البندقية) واعد مدداً من الجند مكوناً من عدة آلاف حشدهم في الاسكندرية . فكانت في شهر ابريل سنة ١٨٢٧ قاعدة لحملة كبيرة برية وبحرية واستعدت للاقلاع الى بلاد اليونان لقضاء الامر على الثوار في جزيرة هيدرا واسبتزيا وميناء نوبلي

واستصرخت جماعات الثورة اليونانية دول اوربا لمناصرة اليونان . وتحرك انصار الثورة من رجال السيف والعلم في روسيا وانجلترا وفرنسا لدعوة الدول للتدخل من ذلك رجال امثال لورد بايرون وفيكتور هوجو وشاتوبريان . وغيرهم . فكانوا يستصرخون الرأي العام في اوربا ويضربون على الوتر الديني الحساس لنجدة اليونان . وقد تطوع لورد بايرون في صفوف الثوار ومات في ميسولونجي سنة ١٨٢٤

وفي ٦ يوليو سنة ١٨٢٧ ابرمت معاهدة لندن بين انجلترا وفرنسا وروسيا للتدخل بين تركيا واليونان على اساس استقلال اليونان الداخلي مع بقاء سيادة تركيا الاسمية عليها . وطلبت الدول وقف القتال بين الفريقين تمهيداً للوساطة بينهما واتفقت الدول فيما بينها على ان يعرض هذا على الباب العالي (حكومة تركيا باستنبول) فاذا لم يقبلها في مدى شهر لجأت تلك الدول الى تنفيذ ما ترى من استقلال اليونان وسلخها عن تركيا بالقوة

واتفقت الدول الثلاث على ارسال اساطيلها الى مياه اليونان لعلم تلك الدول باصرار تركيا على الرفض ولمنع السفن المصرية والعثمانية من الوصول الى شواطىء اليونان وارسال المدد الى الجيش المصري والتركي هناك . فأرسلت انجلترا الى بحر الارخبيل اسطولاً مؤلفاً من ١٢ سفينة حربية بقيادة امير البحر ادوارد كودرنجتون Codrington . ثم ارسلت فرنسا سبع سفن بقيادة امير البحر كونتر اميرال ريني Rigny . ومن بعدها وصل اسطول روسي من بحر البلطيك متأخراً وكان مكوناً من ثماني سفن بقيادة امير البحر كونتر اميرال هيدن Heiden وانضمت الاساطيل الى بعضها البعض بقيادة امير البحر الانجليزي

« في العدد القادم وصف معركة ناقارين البحرية »

«حياة عابر»

بيير لوتي

وصفحة من حياته على شواطىء البوسفور

يوسف البيّ

قبلَ أن يحدر بيير لوتي، ذلك الكاتب الرقيق والشاعرُ الحسّاس، إلى ظلمة قبرهِ بأيام، ويقف شبحُ الفنّ مكبراً فجيعةَ المثل الأعلى بكرت يراعهِ وتلاشي أنغامهِ . . انتشر في أندية باريس الأدبيّة كتابٌ أصفرُ اللون تبطّنتْ سطوره وحواشيه بأهواء هذا الفنّانِ العجيب وبذكريات لياليهِ الماضية

لقد كان بيير لوتي ضنيناً بهتك أسرارهِ وإباحة تذكارات غرامهِ . وهكذا لم يودّع الحياة دون أن يُطلع هؤلاء المتقوّلينَ فيهِ شتّى الأخبار والأكاذيب عن مكنون قلبه، ذلك القلب الرقيق الموشّح بكلّ ما في الحياة من نزعات وحبّ وصبابة . . فنشر كتابهُ الأصفرَ اللون وأنغم كلّ كلمة من كلماته بمرارة روحهِ وضباب أحلامه

ولم تكنْ تلك الحرارة سوى عاطفة شجيّة محزنة تغلغلتْ في اعماق القلوب ولم تقوَ على محوها ظلماتُ القبور ونكباتُ الحياة !!

***

كلما تصفّحتُ هذا الكتاب وتكشّفتْ أسرارهُ الراغية بلذّة الهوى ومعانيه المرعة بنشوة الغرام، تضربني رعشةٌ روحيةٌ مجهولة فأستغرق في سباتٍ عميق بعيد القرار مستعيداً لتفكر احلامَ الماضي المبعثرة في وادي الحياة تبعثر الاوراق الواهية في فصل الخريف

وأروع ما في تلك الصفحات هو ذلك الوصف الساحر الفتّان والوجد الغائر المعصفر بصفرة الخيبة واليأس والحنين

فالشمس وقد آذنتْ بالرحيل غابتْ وراء حُجُب الابدية تاركةً على ثغر الافق المتورّد قبلةَ الوداع، كما تترك العابدة المفتونة لهاثَ صدرها على شفتيْ حبيبها

والمساءُ الصامت الحنون يحتضنُ الطبيعة ويسربلها بسكينة ساجية رائعة . .

والليلُ يمرّ في الحقول والاوديةِ منغّماً على مسامع الاشباح تذكارات الماضي الدفين . .

والنجوم تحدّق بلوعة وحزن وحيرة كأنها مواكبُ المآتم تبكي حولَ نعش الحبيب . .

وجداولُ الحسن والجمال تنسابُ بين الأودية والصخور موقّعةً على اوتار الدجى بلاياً روعها المفجوع وصدرها المكلوم

نعم .. الشمس ، والمساء ، والليل والنجوم والجداول ، وكلُّ ما يثير الروح بأمثل الشعور والاحساس .. يصفها بيير لوتي في كتابه اللطيف . وأنا عندما أُصغي الى موسيقى تلك العبارات والسطور التي أبدعتها ريشة الكاتب الفنّان ، يضربني ضبابٌ سحريٌّ غريب فأبيتُ في مخدعِ العاطفة كما تبيتُ الزهرةُ المقدّسة في ظلالِ الهياكلِ القديمة

***

وأتمّ الكتاب (حياة عابر) فما أروع هذه اللّمحة وما أشجاها ! !

لقد صرفَ الكاتبُ المبدع اوقاتاً عذاباً مُسكرة في ممارح الشرق وتنسّمَ من ربوعه وسروجه نسمةَ حبٍّ مبهمٍ استقرّت بينَ جوانح روحه . فكانَ كلما تنشق عبيرها ، وهو في باريس ، تفيضُ على عينيه دمعةٌ أجيجة محرقة وتُغشي في روعٍ يراعهِ اطيافَ الشوقِ والحنين

وإنّ مَنْ كانَ لهُ ماكانَ للكاتبِ الشعريِّ المطول من صفحات غراميّة رقيقة لا تُمحى آثارُها ولا تتبعثر رسومها على ضفاف البوسفور ، استكثرَ من تذكّرِ الماضي الحبيب الذي مضى ولن يعود . واستزادَ في بكاء تلك الليالي التي مرّتْ في ضوء القمر راقصةً على رنات المياه عندما يداعبها نسيمُ الليل بلمساتهِ ودغدغته

ولست أعلم كيفَ كان موقفُ البوسفور عندما عقل الموت ريشة بيير لوتي وعاث بنضرة فؤاده . فهل تألم الخليج الساحر الجميل لموت الصديق المخلص الوفي ، وتعلل الماء سلتاعاً ينعى الى الصخور والربى وفاة الكاتب الرسام الذي أحبّهُ حبًّا لا شكيكَ فيهِ ؟ من يدري . لقد تسامرا في الماضي كثيراً . وكانت لهما ساعات شفّها الوجد بشكواه ، ومواقف أضناها الهوى بأنينهِ وبلواه

لم يبق كاتب من عشاق الشرق ومحبّيه إلاّ كتب عن البوسفور واصفاً تلك الزهرة العلوية التي تهيمن على الخليج الجبّار . أما بيير لوتي فقد أبدع وأجاد في ما كتب ووصف ، ثم ترك عنهُ تذكارات عذبة تروي العاطفة وينذيها الشعور والاحساس

ولذلك تمنّى وهو يختم انفاسه الاخيرة تحت سماء باريس ويُودع حياته في قبضة الردى ، لو مشى أبناءُ البوسفور جميعهم وراء نعشهِ . وأوصى أن يفرشوا في تربة قبرهِ زهرةً من تلك الازاهير المتأرجة النابتة على ضفاف الخليج الذي كان يشكو اليهِ اسرار فؤاده وخبايا خياله

***

اما الصفحة التي أريد أن استشفها من حياة بيير لوتي على شواطىء البوسفور ولا استطيع لها

يسترقني من لاعجة وسباية ، فهي هذه المقاطع الرائعة في حلل وضاءة من الجمال . وحسبك أن تقرأها فتنخضل عينك بالدموع وتبعث في الروح ذكرى الامس الدفين

الصيف جميل في كل مكان لكنه في تركيا اكثر من جميل . هو حلم مجهول ينبعث من صدر الطبيعة فيغمر النفس بالشوق والحنين . . وفي ليلة من تلك الليالي الصافية البيض خرج لوتي يمرح على شواطىء البوسفور وينعم بمرأى تلك بلونه القمر بضوئه الفضي الخالب . وفيما هو يبث خادمه الامين (جميل) شعور روحه واحساسها لامسته اشباح خفية واحلام لذيذة

وظل يتذوق هذه الكأس المسكرة وينعم عينه بمنظر الامواج يزينها النور بأكاليل الفضة حتى ايقظه جميل قائلاً ان الاميرة النبيلة « د . . » ترغب في ان يسامرها ويسكب في فمها خمرة الحب والحياة . . وما هي الا برهة حتى اقلع العاشقان يداعبان بالحياة على ضوء القمر

مر زمن والاثنان يأنسان كل مساء الى تلك الاماكن الشعرية الهادئة ويودعان في الخضم اسرار قلبيهما . وفي ذات يوم علم والد الاميرة بحبها لذلك الفرنسي الانيق فأنذر ابنته بالرحيل عن البوسفور

وهكذا قضت الاقدار العاتية ان يفترق ذانك العاشقان فلا يلتقيان ابداً . وقد آلم هذا الافتراق الكاتب العاطفي ألماً عميقاً وجرحه في صميم قلبه . ثم اشتد عليه الغرام فكان يصرف ايامه وليالي دائماً في تلك الربوع المحتفظة بآثارها والشاهدة على ايامها الماضية

اثرت هذه الحادثة في نفس الخادم جميل فمضى يبحث عن حبيبة سيده الكاتب . وفي ذات يوم عاد حاملاً سفراً كتاباً جاء فيه ما معناه : ايها الحبيب

لا تغضب علي يا « بيير » ولا تنسب الي الخيانة . لقد فارقتك مرغمة ، وكان بودي ان ابقى قربك لاقاسمك لذة العيش وخمرة الحياة . . ولكن ما العمل ! بهذا حكمت الاقدار

اني ابكي الآن ايها الحبيب ، وفي دموعي حرارة لاظية تحرق فؤادي وتؤلمه . . اريد ان ابوح لك بغرامي . . وان عاشقة مثلي مولهة تفارق الحياة لاجل حبيبها لتستطيع الاعتراف بغرامها . . لقد احببتك حتى آخر ساعة من حياتي . . ابعث لك بخصلة من شعري لتذكرك بي كلما لج بك التذكار والحنين ! !

ويقص لوتي هذه الرواية بنغمة موجعة لا يمحوها الدهر . اما جميل فلم يكن خادماً بسيطاً لا شأن له ، بل كان اديباً ذكياً وافر العلم والتهذيب يدعى جميل بك [1] . وقد ركن الى هذه الحيلة ليقف على عبقرية الكاتب الحساس ويستلهم روحه المضمومة بالاسرار والتذكارات

وبقي امر جميل مكتوماً على بيير لوتي حتى اواخر ايامه . واعتقد ان من اطلعه على خبية جميل

(١) لي مذكرات جبران خليل جبران حدثت عن جميل بك . وقد كانا يتبادلان الرسائل . وهذه الرسائل تدل على ان جميل بك هو اديب لبناني مكتئم ! (المقتطف : يقول احد اصدقاء جبران ان لا علم له بمذكرات لجبران ولا يظن ان له مذكرات لهذا الحال لو خلا الكاتب هذا الامر)

بك هو شاعرنا الكبير جبران . وقد عثروا بين اوراق المابغة الفرنسي على كتاب لطيف . اليك بعضه:

«لقد عرفتك يا جميل خادماً وفيًّا وصديقاً مخلصاً تركتْ صداقتهُ في حواشي قلبي أثراً شيِّقاً. لكنَّك أسأتَ إليَّ كثيراً بما خلعتَ على شخصيتكَ من غموض واسرار . وعندما اذكر تلك الاوقات التي كنتُ آمرك فيها تتملكني مرارة قاسية مفعمة بالخجل

امَّا الاميرة الحبيبة التي عرفتها على شواطىء البوسفور فقد اذبل موتها ازاهير آمالي واحلامي وإني الآن ابكيها بلوعة وكآبة . ارجوك يا جميل ان تكتب إليَّ وتخبرني هل كان ذلك الخليج يحنُّ إليَّ ويذكر ايامي الماضية ؟ ؟

انَّ المنيَّة ترفرف حولي يا جميل . وعن قريب يجرِّدُ الموت أغصانَ احلامي المورقة ويعدُّني في ظلمة الضريح . فهل تبكيني يا جميل وتذكرني بكلمة عذبة رقيقة ؟ من يعلم . . . فالوداع يا صديق الامس . . »

***

فالدمعةُ البليلة التي تسكبها العين في ساعة اليأس والحنين . . والقُبلة المرة الدامية التي يطبعها العاشق على ضريح من يُحب . . والسرير الذي يحتفظ بنفحات حبيبة محَّتها الاقدار من الوجود.. والحسناء الراقصة على انَّات الرباب في ضوء القمر . . فالزفرة التي تطلقها الروح وقد فجعتْ بأعزِّ امانيها . . فالأملُ الخائب والرجاء المتلاشي . . والابتسامة الجافَّة على شفتين موردتين ! ! تلمسها كلها في كتابات بيير لوتي واقواله

اما اليوم فيرقد هذا الناسك الشعريُّ العجيب رقدتهُ الاخيرة في مقبرة من مقابر باريس . تكتنفهُ الاسرار بعد مماته كما اكتنفتهُ السآمة في حياته . فهل تأسو الطبيعة جراح وجدته

فيكفنهُ المساء بردائه

ويفرحهُ النسيم عند ما يهبُّ في الصباح

وتنعشه الزنابق عند ما يفوح عطرها

وتساهره اطياف الليل بعد ان يمانق الكرى ابناء الحياة

ويلبث الله في قلبهِ زهرةَ التعزية قبل مجيء الربيع وحلول ليالي الافراح ! من يدري . .

ان الشرق المتحفِّز الآن لتلمُّس المثل الاعلى في القلب والروح ، لفي حاجة عميقة الى أن يقرأ هذا الكاتب ويتفهَّم اسراره وحواشيه . وهذه القافلة الادبية السائرة الى الموت بخطى متناسقة خليقٌ بها ان تطلب الحياة في كتب بيير لوتي وروايته التي وشحها بحبِّ الشرق وغذَّاها بجماله

البرازيل يوسف البعيني

الإغراق في الثورات

مقابلات في فلسفة التاريخ والاجتماع

لسليم نبالة

عندما نقول « الثورات » يجب ان لا نقصد الفترة القصيرة التي احتدمت فيها معاركها الفاصلة، بل حقبة النضال الطويلة التي تقدمت تلك المعارك أو الحقبة الطويلة التي عقبتها وتبين فيها الثائرون على الحكم وحققوا افكارهم. كذلك يجب ان لا نحصر انفسنا في تلك الفكرة المبتذلة التي تسيء فهم الثورة ولا ترى فيها الا انهاراً من الدماء المسفوكة وصوراً مروّعة من الهيجان والفوضى وطوفان الكراهيات المدمرة ، بدلاً من ان تتجلى لها فيها الانقلابات الاجتماعية العميقة ، ومشاهد الصرح التاريخي الذي يتدرج عليه الانسان نحو تحقيق خيره وخير ابنائه ، او التعبير عن مطالب جماهير بشرية معذبة قد تتحقق لها تلك المطالب في ثوراتها وقد لا تتحقق ، وقد تتقدم بها نهائيًا او تتوقف او تتأخر لوقت فحسب . غير اننا ايضاً يجب ان لا نفوتنا ملاحظة خاصّةٍ رافقت معظم الثورات ، وهي خاصّة الاغراق. فان كل الثورات أغرقت في بعض ما قامت ضده . تعدّت حدود النقمة على ما في عدوتها من شرور الى الوقوع في شرور تقابلها ، والاصابة بالعمى أو التعامي عن ما قد يكون في تلك العدوة من خير ، مبتعدة في الجملة عن هذه الفلسفة اليونانية الرصينة ، العاقلة التي كانت تعبر عنها لفظة « الاعتدال » . اقول كلها — مستثنياً فقط ثورة العمال والفلاحين في بلاد الروس . والآن خذ على هذا الكلام بعض الأمثلة :

تطرفت الحركة المسيحية في كره وثنيات العالم الروماني ورذائلها التَرَفيّة (من تَرَف) حتى مال بها تطرفها الى الناحية المقابلة . ولنسق كشاهد على هذا الادعاء مظهراً واحداً مما انطبعت به تلك الحركة ، هو المظهر المختص بالعلاقة بين الرجل والمرأة . فقد كان حبل الطلاق والانفصال بينهما رخواً جداً عند الرومان ، وجاءت المسيحية فانقلبت على هذه الرخاوة انقلاباً « طوطمياً »[1] مفرقاً حتى جعلت الطلاق مستحيلاً او شبه مستحيل . كانت العلاقة بين الرجل والمرأة على انحلال عرفي وقانوني في « الأخلاقية » الوثنية[2] ، فصارت على جمود وانحباس ديني مضنٍ في الأخلاق المسيحية.

---

(١) من « طبو » المقابلة لـ Tabou ، وتعني « المقدس » او « المحرم » من الاشياء عند الهمج ، وآثارها عند المتمدنين . (٢) يستثنى من هذه علاقة الامة بسيدها والعبد بسيدته ، اذ لم تكن مرتبطة عندهما ارتباط عبودية مطلقة ، حتى اذا كانا يستعملان للاسترقاق او الاستذاذ الجنسي ولم يكن بوسعهما ان يمتنعا عملياً عن ذلك بطريق الاتصال لعدم الاعتراف بقدرتهما عليه

كان الشكل الوثني لهذه العلاقة رذيلة وشرًّا ، بمعنى أنها مضرة ، فصارت الى ما يماثل هذا في شكلها الجديد في العهد المسيحي

ان الدفة التي ساقت سفينة العلاقة الزوجية في الحالين معًا كانت دفة نظام الفردية والملكية الخاصة المطلقة في صورتها القديمة . وإذ قامت كل الثورات الناجحة في الماضي بدوافع مطامع الملكية الفردية [1] واخلاقها وغاياتها ، فقد ارتكبت كلها تطرفًا أهوج ينتج عن اعتبار حرية التنافس والتحارب من اجل استعلاء الفرد على الفرد واستغلاله ، ومن ثمّ طبقة الافراد المستعلين على طبقة المستضعفين واستغلالهم استغلالاً قانونيًّا ومقبولاً وطبيعيًّا . ذلك لان اعتبار هذا الاستبداد حلالاً لشيء دائمًا يقترن في النفس بنزعات التطرف والاغراق في امداد الانانية بمطامعها ، في تحقيق هذه المطامع بكل وسيلة . وهذه الانانية الفردية ، الاباحية المطامع ، كانت تجعل الرجل مالكًا للمرأة عند الرومان يرميها عندما يملّ له ، الاّ اذا كانت غنية وذات اسرة قوية تشد ازرها فترميه وقتذاك ساعة يملّ لها هي . ثم ان نفس هذه الفردية الاباحية في الملكية المطلقة للقوي او الغني عادت عند المسيحيين فقيدت المرأة بالرجل تقييداً لا انفصام له

خذ مثلاً آخر :

كان تراخي العلاقة بين المرأة والرجل قبل الثورة الفرنسية من مميزات النبلاء الاقطاعيين ، الحائمين حول البلاط كالفراشات الواهية ، حتى ان شاعرهم «لافونتين» كان يتهكم في اشعاره « اقاصيص واخبار [2] » على «البون بورجوى » (اي البورجوازي الطيب) لتماسك اخلاقه الجنسية . كان هؤلاء النبلاء على هذه الحالة رغم القيود المسيحية التي صارت في بيئتهم الى وجود شكلي . ولكن بعد ان نشبت الثورة الفرنسية الكبرى ، وكانت نتيجتها ان فازت البورجوازية واستقرت (وهي طبقة من الاقلية استخدمت جماهير الشعب وطبيعته بنزعتها الخلقية ، متوسلة به دائمًا الى جعل نفسها اقطاعية جديدة مؤسسة على رؤوس الاموال بدل الارض ، افلتت من قيود الزوجية المسيحية التي كانت تربطها نوعًا ما قبل الثورة ، وراحت تتخلّق برخاوة النبالة الاقطاعية ، ممعنة مغرقة في هذا التخلق ، متخلصة بعنف وسرعة وهوس من قيودها السابقة ، مرخية الحبل لاهوائها وغرائزها ارخاءً كاد يكون جنونيًّا احيانًا . كانت كأنما تنتقم بذلك مما كانت تجد في الاقطاعية ، وفي اخلاقها المسيحية الخاصة سابقًا ، من ضغط وكبح جماح فرديتها و« حق » تملكها وتحقيق مطامعها . وهكذا نجد عداوة الثائرين بالثورة لسالفيهم قد حدت بهم الى الاغراق في التشبه بهم كما حدت بالمسيحية الاولى الى الاغراق في الابتعاد عمن سلفهم وهكذا ايضًا نجد نزعة الاغراق هذه من مميزات الثورات القديمة الناجحة التي كانت تدعو اليها

(١) يقول ماركس وانجلز في بيانهما (عام ١٨٤٨) : « كل الحركات التاريخية السابقة كانت حركات الاقليات، او لمصلحة الاقليات » . (ص ٢٠ — طبعة « مارتن لوراس » — لندن)

(٢) نخبر لنة في الرواية ، ولذا ترجمت اسم الكتاب "Contes et nouvelles" كما ذكرنا

مصالح الطبقات الطالبة السيطرة ، وان هذه الثورات تشابهت ضمن نطاق نظام متشابه في صوره المتنقلة ، لما يقوم عليه من اسس ومبادىء اباحة التنافس الفردي والتملك الخاص ، من ارخاء العنان بالتالي للمطامع والشهوات في ميدان حُرٍّ رَثَّةُ القوى او الفنى

غير اننا اذ ندرس ثورة العمال والفلاحين ، التي تختلف بصراحة عن جميع الثورات القديمة الناجحة اختلافاً جوهرياً من حيث انها لم تقم بدافع من دوافع طلب السلطة على اساس التنافس الفردي ، او دوافع نقمة مظلومين حائرين متمردين حسب (كحالة الثورة السبارتاكوسية ضد اسياد روما او حرب الفلاحين في مفتتح عهد الاصلاح اللوثري في المانيا) ، بل اشتملت من اجل حلول كل سلطة استبداد وتملك واحتكار فردي او طبقي — نعم ، اذ ندرس هذه الثورة بدقة وحياد علمي نجد ان ذلك الميل الى الاغراق في الهوى الاناني الفردي لم يكن ليظهر الاّ بصور عرضية ، وقتية زائلة ، لم تكن الاّ من بقايا النزعة الخلقية في العهد القديم . وما ذلك الاّ لانها كانت ثورة ترمي الى عقل المطامع الفردية — الاّ لان هذه المطامع وثوراتها وحركاتها ونظمها هي التي تتساق معها انساقاً دائماً غير وقتي وغير عارض ، كلُّ المظاهر الهوج والانحرافات المتطرفة والفيضانات الطغيانية المشوهة سواء كانت عقلية او مصلحية او عصبية او فنية او اخلاقية او حتى — علمية ! هذا الذي «كان» يدّعي البورجوازيون انهم يضعونه على الحياد قبل ان تجيء الفاشستية وتعلن الحقيقة !

***

لقد كان من جملة خواص ثورة العمال والفلاحين في بلاد قياصرة الروس انها لم تعمد الى الهجوم الحربي الايجابي والتعلق بالعنك الدموي . بل بادرتها بهما البورجوازية والاقطاعية الروسية والعالمية المتحدتان . انها لم تتطرف ، كحال الثورات السابقة ، في نبذ كل ما كان في النظام العتيق ، بل عملت على الاحتفاظ بخيره ونبذ شره ، متحذرة من الوقوع في الرذيلة الاجتماعية المضرة بدافع الكراهية او البغض الاعمى . انها لم تنتقم من اعدائها باصطناع نزعتها الخلقية ، كما فعل بورجوازيو الثورة الفرنسية او الابتعاد عنهم الى الطرف الآخر النائي . بل تمسكت بوسط معقول

ولما كنا اخذنا العلاقة بين الرجل والمرأة مثلاً نتكلم عنه في الثورتين المسيحية والفرنسية ، فلنتكلم عنها الآن بصدد هذه الثورة الثالثة . فان العلاقة بينهما لم تتخذ في هذه ، بعد تسلُّم العمال والفلاحين السلطة ، لا صفة الانحلال الاقطاعي البورجوازي ولا صفة الارتباط «الطبوي» المسيحي الشديد . فلما قام بعض الشبان المتحمسين ، الذين كانوا لا يزالون متأثرين بشيء من النزعة العقلية في النظام الراحل ، بمظاهرات يدعون فيها الى خلع كل حائل يقوم في سبيل الاجتماع المطلق بين الجنسين ، وراحوا يزينون صدورهم بأشرطة كتبوا عليها عبارات مثل : « ليسقط الحياء » ، هَبَّ لينين ورفاقه الى عقل هذه الموجة الهستيرية والى تنبيه اولئك الشبان الى خطأهم العظيم ، وتبيان الشرور الكامنة في الاغراق في الاهتمام بالاجتماع الجنسي

وان هذا كمثل شيء آخر يجب ان يتبع نظاماً مفيداً ، نظيفاً ، جميلاً ، يجمع بين مطالب الثقافة وحاجات الحياة . وحاضر لنين وتشذ محاضرات قوية بديعة في الموضوع ، وحدّث شيخة الثورة ، الرفيقة الالمانية « كلارا زتكين » حديثاً طويلاً جاء فيه ما معناه : « اي انسان عاقل لا يأنف من الشرب من كأس شرب منها الناس قبله »

ثم لما ظهرت في تلك الثورة ، من الناحية الاخرى ، دعوة الى نوع من الزهد « الرهبانية » المنحرف تقول بعدم وجوب وجود « الكومفور » [1] في حياة النظام الجديد ، أجاب ستالين على اولئك بالنيابة عن الحزب الشيوعي الدعاة في المؤتمر السابع عشر للحزب المذكور . بتسخيف نظرتهم هذه ، وبإفهامهم ان العمال والفلاحين وعلماءهم يلتجون بالاشتراك اكبر قدر ممكن من المستهلكات ووسائل الراحة ليوجدوا للانسانية سعادة التمتع بما تنتج . وهكذا نرى التعقل الرصين الذي اخذت به ثورة العمال والفلاحين ، التي لا تميل مع مطامع فردٍ او طبقة من الافراد القليلين ، او تنطبع بطابع نظامهم الذي تسود فيه العقلية التي تقبل إشباع الشهوات والمطالب الاستبدادية المرضي لها العنان كثيره ، ليس فيه إدّ عظيم أو كثير ما يقال . بل تميل الى إراحة المجموع الاكبر ، ومن بعده المجموع كله ، وتنظيم علاقاته بعضه ببعض تنظيماً معتدلاً ، فضيلاً ، صحيّاً ، ونظيفاً

***

ومما يحضرني الآن من المقابلات مقابلة خطرت لي بين موقف كلٍّ من ثورة تركيا الوطنية والثورة الشيوعية الاجتماعية من اللغة . فان تركيا ، التي ما زال طابع البورجوازية على ثورتها الناهضة قوي الدمغة ، قد انحرفت في مجال اصلاح لغتها الى ناحية في تقفيرها . الثورة التركية الوطنية على حقٍّ من الناحية القومية الوطنية في محاولتها قطع كل دابر للتأثير السيء الذي كان لهُ ان يفيض من بقايا الحياة العثمانية ، ومن استطراد العلاقات السابقة مع سائر اجزاء الدولة العثمانية . غير انها ، كما يبدو لي أغرقت في ذلك حيث مالت الى التخلص من الكلمات الفارسية والعربية التركية . فالمصير للغة ان يكون الاهتمام في ابداع كلمات جديدة وفي استمدادها من لغات حية ، اكبر مما يكون في إضاعة الوقت في العمل على قتل الكلمات التي تمرت من تصها اذا لم تعد مفيدة أو ملائمة لحياة التركية الجديدة ، وتبقى حية اذا كانت تفيد او تلائم . ان الثورة ابدعت واستحارت ، ولكن كان عليها ان تبدع وتستعير دون ان تتحمس في القتل . ذلك لانهُ كلما كان في اللغة الفاظ حية مستعملة (ولا يكون التعمد في احياء الميت منها مفيداً ، كما تفعل المجامات اللغوية في الغالب) مهما كان مصدرها ، أثرت اللغة وآلانت من قفارها وأسلست من قيادها وساعدت العلم والادب والفن والثقافة على الارتقاء ،

(١) اي التمتع بأسباب الراحة والطمأنينة البدنية ، التي تهيؤها الوسائل والمخترعات والاتجاهات المتوافرة في الحضارة الصناعية والزراعية الحديثة في العصر الحديث

وسهلت العمل على اصحابها . ليس كل ما في الماضي مما يحسن بنا او مما نستطيع قذفه في سلة المهملات ، وليس كذلك ، كل ما فيه مما يحسن او يستطاع عدم قذفه في هذه السلة المباركة !

***

اللغة وآدابها أثمن ما ننتزعه من الماضي لفائدة الحاضر ورفاهه . وكيفما كانت هذه اللغة ، فانها تبقى تراثاً موهوباً يحسن بنا ان يُترك تحسينه وتجميله من جهة تنقية ما لا يصلح استعماله فيها لتطور الاجتماعي ، الذي يغني عن جهود الدكتاتورية في ذلك ، بل ان قيام النظام الجديد يحتم وقوع هذا التطور.

وهذا خيرٌ من ان نعمد الى التقطيع والتشذيب تشذيباً او تقطيعاً اصطناعيًّا يفقر ذلك التراث اكثر مما يغنيه . ثم ان اللغة هي الشيء الذي يجب علينا ان نوسع فيه ما نستطيع ، مجال تنازع البقاء وبقاء الأنسب . لندخل الى اللغة كل ما يمكننا من الالفاظ ، حتى ما لا يلزم او ما لا يبدو لازماً ، ثم لنترك المجتمع ونظامه وحاجته تنتقي منها ما يلزمها . وكلما رقّينا المجتمع ورفعناه وحررناه ترقت اللغة وتقدّمت وتحررت من تلقاء ذاتها ، لانها أداة المجتمع في ارتقائه وتابعٌ يمشي معهُ

وما الضرر في ان يكون لكل معنىً مترادفات عدة ، واحدة من جذر عربي ، واخرى من اصل فرنسي ، وثالثة من سلالة طورانية ، مثلاً ؟ ان ذلك يعمق تربة اللغة ويسمّدها ، يسهل استعمالها على الشاعر والعالم والكاتب ، وعلى الشعب بأجمعه ايضاً . اما الالفاظ الجافة ، غير الصالحة ، فتموت من نفسها . وما اكثر ما في العالم اليوم من اكاديميات ومجامع لغوية قد تكون اقل تعاوناً من جماعاتنا اللغوية ، ولكنها مع ذلك تحاول الوقوف احجار عثرة بحصر الالفاظ في مصدر واحد هو المصدر القديم «العربي» او المنصري الصبغة (لاتيني ، عربي ، ايراني ، طوراني ، فرنسي ، الماني ، انكليزي ..) دون تطور اللغات و « تموّلها » من المصدر العامي الذي هو اغزر ينابيعها والخالق الاول لالفاظها ومن مصدر اللغات الاجنبية الذي تستفيد جميع اللغات فيه بعضها من بعض كانما هناك تعاون بينها على التقريب بين البشر ، او تعاون بين البشر على التقريب بينها ؟ لكن هل جمود هذه المجامع واختصاصها في التحجير والاصطناع المتكلس يحول دون تطور تلك اللغات تطورها الطبيعي الاجتماعي ؟ كلاّ ! وهذا اقرب برهان على ما اقول تجده في اخفاق مجامع لغتنا العربية بوجهٍ عام ، كأن همها نشر الجهل وصد الشعب عن سبيل التعلم ، كأنها موكلة بقطع اقنية الاغتذاء عن لغتنا المحبوبة وفصم علاقتها بالحياة . ان احداً لا يلتفت الى محاولات هذه المجامع التفاتاً جديًّا ، والالفاظ الثقيلة التي تخترعها لا يستعملها سوى نفر من اعضائها ولا يقرأها سواهم . اما في بقية العالم ، فمثل هذه المجامع موضوع للتفكهة عند المفكرين ، وموضوع « مريحي » عند الشعب اذ لا يكاد يدري بوجودها

والآن ، وهذا هو أصل اللغة ، نرى ان الثورة التركية الوطنية قد انحرفت ، وهي في سبيل القيام باصلاحاتها العظيمة ، عن جادة الصواب في شأن لغتها بمحاولة احياء الرميم واقصاء الحي . ولقد انحرفت في ذلك بالغراق يتنج ضرراً للغة التركية . ولكن ما الباعث على هذا ؟ الباعث هو ان الثورة التركية كانت ، حتى وقت بورجوازية ، قائمة على اساس فتح السبيل للتملك الشخصي واباحة الميدان لنمو الثروة الفردية ، لنمو التجار وأصحاب الصناعات الناشئة ومن اليهم . ذلك انه لما كانت البورجوازية التركية قد وجدت نفسها في حالة حرب مع بورجوازيات اجنبية ضخمة تحاول سلبها ذلك السبيل والميدان ، فقد عمدت الى استخدام كل وسيلة لتأمين مصالحها الخاصة . ومن هذه السبل ، هذا الاصلاحات الانشائية الواسعة ، المفيدة للبلاد عموماً ولها خصوصاً ، كان ذلك « الاصلاح » اللغوي الذي لم يكن في الحقيقة اصلاحاً بل « وسيلة » . وسيلة لاثارة روح الوطنية في الشعب ضد الاجنبي الخطر المضر ، المعادي لنهضة الاتراك . والروح الوطنية حقاً وفضيلةً كانت كمالها في تركيا او الحبشة مثلاً ، او ظالمة ورذيلةً كانت كمالها في المانيا وايطاليا مثلاً ، هي التي تعتمد عليها كل بورجوازية كأساس رقوة لتحقيق مطالبها او مطامعها

***

وقد يكون (وغالب الامر كذلك) أن مصلحة الطبقات العاملة في تركيا كانت في ان لا تعارض بورجوازيتها في غلوائها طالما انها لا تزال وطنيةً دفاعية مناهضةً للاستعمار ، فتنتفي هذه الطبقات بذلك قائلة البورجوازيات الاستعمارية التي ترمي الى التسلط على جميع الاتراك بالسواء . كذلك قد تكون في جانبها فائدة موقتة ، هي نتيجة لحالة سيادة النظام الاستعماري في معظم العالم (وهي سيادة تسير نحو الاندثار بسرعة لخروج الاستعمار عن مصلحة الجمعية عموماً وعدم استطاعته تأمين حق البقاء لها ، الامر الذي يعاكس ارادة الجمعية واعمق غرائزها ومقاصدها) ، فلا تأسف كثيراً لتطرف بورجوازيتها الفتية في قطع كل صلة باقطار اخرى لا تزال محنية الهام لاناس يحكمونها بالحراب واسم الاديان والتحديث

لكن عندما تقوم الطبقات العاملة في تركيا بثورتها الصافية ، الخالصة من كل ضرورة قاهرة تفرضها عليها طبيعة التحارب في النظام الذي لا يزال صاحب الصبغة الظاهرة في اغلب المجتمع — انها عندذاك تعامل لغتها بغير ما تعامل به اليوم من الاغراق في جزّها . انها عندئذٍ تسير السير المعقول ، المتشدد المفيد الذي حتّم على ثورات الطبقات العاملة ان تمشي على صراطه بطبيعتها الانتاجية ، المناقضة لكل تخريب وغلوّ في اهواء المصلحية الفردية

هنا نصل الى قمة المقارنة التي قصدناها ، لان هذا الصراط المستقيم عينه هو الذي سبقت الطبقات العاملة الروسية شقيقتها التركية الى السير عليه ، هو الدرب والخط الذي ابانه زعيمها ولسان

حالها ، لين ، برمتوح ودقة ، في تعاليمه . ذلك ان فريقاً من الناشئة اغرق أيام الثورة الاولى في محاولة تجديد اللغة كما كان اغرق زملاؤهم الآخرون في مسألة علاقات الجنسين . لقد كان هؤلاء الشباب لايزالون تحت تأثير شيات تتلاشى من عقلية التطوّح البورجوازي ، تلك النزعة العقلية التي تميل الى المغامرة والمغالاة في كل شيء من دون تدقيق الحساب تدقيقاً جامداً سلبياً لغير المصالح الفردية والطبقية الضيقة التي تملك قيادتها . لذا كانت هذه الناشئة بومذاك تتحمس في تمردها على القديم حتى حدود نكران كل شيء فيه ، حتى الحد المضر غير المعقول في نكران لغتها ، في الاستسلام الى النقمة العمياء على طائفة كبيرة من الفاظها واساليب تعبيرها وامثالها وقواعدها ، وبالايجاز : من كل هذه الذخيرة اللغوية العريقة ، التي يخلقها تطور عصور طويلة دع عنك اجيالاً منزاكمة من الاختبارات والتحسينات وتكوّن النفسية والعقلية الشعبية ، التي خلقتها وهذبتها جمعية انسانية بأسرها والتي صفّاها تاريخ كامل لشعب كامل في غربالهِ العظيم

***

فلما رأى لنين هذه الميول الفوضوية ، المؤذية والسابقة لوقتها ، راح يخصص وقتاً ، وهو فارق مع رفاقه في بحر مُضطخِبٍ من مهامّ الدولة الجديدة ومشكلاتها لدرس المسألة ودحض حجج ذلك التيار الذي وقع فيه الشباب الفائزون . واني كثيراً ما اتذكر قول هذا الرجل في كتابه « الدولة والثورة » :

« لكن الحياة ترينا في كل خطوة من خطواتها ، في حيّز الطبيعة وحيّز المجتمع معاً ، أن آثاراً من الماضي تبقى في الحاضر . لذلك لم يكن ماركس متحكماً لما أدخل شيئاً من « الحقوق البورجوازية » في الشيوعية . بل انه لم يفعل سوى تقرير ما كان محتم الوقوع اقتصاديًّا وسياسيًّا في مجتمع يخرج من رحم الرأسمالية »

***

وهكذا نجد الاغراق منحصراً في الثورات التي تحركها دوافع المطامع الفردية ، مطامع طبقات الأقليات . ومن هذه النتائج المدينة واحدة يجدر عدم المرور بها مرّ الكرام . ان هذه الثورات هي التي خلقت في الدرجة الاولى تلك الفكرة المبتذلة الشوهاء ، التي لا ترى في الثورة إلاّ انهار دماء ، التي يجب ان لا تخلو من الدماء . ذلك لان جميع الثورات الناجحات والسابقات لثورة الطبقات العاملة غالَيْنَ في التقتيل والتدمير

لقد كانت البورجوازية الفرنسية في ثورتها الكبرى كثيراً ما لا تدري لماذا تقتل وكثيراً ما كان منظر المقصلة تحزّ الاعناق يلذها ويشعرها بالطمأنينة . ولم تقف عن استعمالها الاّ لما رأت بأنها اخذت تتقاذف رؤوس بعضها البعض .

ألفاظ الآلات الزراعية

للامير مصطفى الشهابي

هذه جملة من الالفاظ العربية لأهم الآلات الحديثة المستعملة في الفلاحة اعرضها على ارباب الزراعة وعلى اساتذة المدارس الزراعية لعلهم يقتبسون منها ما فيه فائدة لهم ويتما يأتيهم المجمع اللغوي ومجلته بأصلح منها !

﴿ آلات تهيئة التراب ﴾ — أهم الآلات الزراعية المحراث . والمحراث الحديث اي الأوربي يتركب مما يلي : اولاً — أداة أصلية تحمل سائر الأدوات تسمى Age وبالعربية السِلْب والنِصاب والوَيْج . ثانياً — أداة تشق الأرض عمودياً وهي الكين Coutre . ثالثاً — أداة تفصل كتلة التراب أفقياً وتسمى المِقْطَع Soc . رابعاً — اداة تقلب كتلة التراب المفصولة اسمها المِقْلَب Versoir . خامساً — أداة يرتكز المحراث عليها فتزحف به فهي اذن المِزْحف Sep . ويكون للمزحف عقب يسمى عقب المزحف Talon du sep . سادساً — أداة يعين بها عمق الحرث وعرضه وهي الميزان Régulateur سابعاً — اداة يقبض الحرّاث عليها لتسيير محراثه وهي المِقْوم والمِقْبض والدَسْتَق Mancheron

والمحاريث الحديثة انواع يسهل ايجاد الفاظ عربية لها بترجمة الالفاظ الاعجمية كالمحراث العادي وذي العجلة وذي العجلتين وذي المقطعين وكثير المقاطع Polysoc وذي الصفائح او الأقراص ch. à disques ومحراث الكروم والمحراث المتقلّب ch. tourne-oreille ومحراث النَقْب او محراث الخَرْق ch. défonceuse ومحراث الجَبْث ch. déboiseuse ومحراث الجداول او محراث التَلْجان ch. rigoleuse الخ

ومن الأدوات اليدوية لحرث الأداة المعروفة التي تسمى المَرّ Bêche وهو محراث صغار الأكارين والبستانيين . ويكون على اشكال منها العادي والتركي والمثلث . ومن الأدوات التي تنفذ في الأرض بالضرب المِعول Houe . واستعرنا له ايضاً لفظة المِنكاش لأن الفلاحين في الشام وفي لبنان خاصة يسمونهُ «المكوش» . وبعد ان تحرث الأرض تمشط بآلة تسمى المشط Herse . والغاية من التمشيط تسوية سطح التراب وتجزئة الكتل الكبيرة منهُ وقلع بعض النباتات المضرة وغير ذلك . والمشط اشكال منها المشط الزاحف H. trainante والدائر H. rotative ومفتت المدر H. émotteuse والمفصلي H. articulée والمرن H. souple والكندي (نسبة الى كندا) وذو الصفائح H. à disques

ويستعملون في الأرض الصلبة المندجة بدلاً من المشط آلة تسمى Scarificateur و Cultivateur وهي المِسْلَفة والكاربة والمِسْخَفة تحرث بها الأرض حرثاً سطحياً فتقتلع ذرات التراب وتسوي ولا تقلب . ويكثر الأوربيون من استعمال المِسْلَسة او المَلاّسة Rouleau وهي اسطوانة تضغط التراب وتجمع ذراته وتسوي سطحه وتجزىء المدر وتغطي البزور الملقاة وتقتل بعض الحشرات . وهي على أشكال المِلسة الراصّة R. plombeur ومفتّتة المَدَر R. brise-motte والمخطّطة R. marqueur والمموجة R. ondulé الخ

وبعد ان تُزرع الأرض ربما لزم خرث سطحها وتسوية ترابها وتهويته وقتل الأعشاب المضرة وبعثرة ذرات التراب لمنع انطلاق ماء الأرض بخاراً . فالعمل الذي يتضمن هذه الغايات يسمى العزق والأداة التي تستعمل فيه هي المِعزق Binette . والمعازق أشكال منها اليدوية ومنها التي تجرها الدواب

﴿ الآلات الفارة ﴾ — قلما يبذر الأوربيون البذار نثراً باليد ولا سيما في الأرض المتسعة ، بل يبذرونها بواسطة المِبذر Semoir وهو يوزّع الحبوب على خطوط منتظمة ويطمرها في اعماق متساوية . ومتى استحصد الزرع يحصدونهُ إما بالمِنجل Faucille واما بالمِقضب او الحاصدة (السيف) Faux واما بالمِحصد وهو آلة الحصاد Moissonneuse . والمحصد الجامع M. javeleuse هو الذي يجمع الحصائد كُدَراً او غُبُوطاً javelles ولا يربطها . اما المِحصد الرابط M. lieuse فهو يربطها . والآلة التي يُحش بها الكلأ في المروج تسمى المِحَشّ Faucheuse . ومتى حصد الزرع بلث كثير من السنابل مبعثراً على الأرض وهو للُّقاط والقُطاط فيجمع بالمِلَمّ Rateau . وتنقل الحصائد الى البيدر او الجَرين فتدرس بالنورج المعروف أو بالمِدرس Batteuse يدار بمحرك أو بصاحب Tracteur . ومن المعروف ان الصاحب او الجارّ (او المِسْحَب او المِجَرّ) يستعمل ايضاً في الحرث وفي اعمال اخرى . ومتى فصل الحب عن التبن وجب غربلة الحبوب لتنقى . ويستعملون لهذه الغاية غرابيل مختلفة منها الغربال الهوائي Tarare وغربال الاسطفاء او المصطفية Trieur

ويفصل حب الذرة او القطن بالمِنزع او المِنقَض Egreneuse . ولتفريق هذه الآلات بعضها عن بعض تضاف الى النبات التي تنفض بزوره فيقال مِنزع الذرة ومنزع القطن الخ . والمحالج معروفة

ويستعمل الأوربيون خاصة آلة تسمى مِهشَماً او مِقطَعاً تضاف الى ما تهشمه مثل مهشم الكلأ Hache-fourrage ومهشم البقل Hache-légume ومهشم القش Hache-paille ومهشم الذرة Hache-maïs وهي كلها تستعمل في تهيئة علف الخيل والأنعام . وكذا الجاروشة او المِجرش او المِرضَخة او المِرضاخ Concasseur والمِسحَق Broyeur

﴿ آلات صناعة الألبان ﴾ يفرزون القشدة عن اللبن بآلة تدعى Ecrémeuse وبالعربية المِفرزة او الفرّازة وأهم أجزائها الطَسّ Bol وأقماعه . ثم تؤخذ القشدة او الكثأة فتفرز الزبدة عن المخيض بآلة تسمى Baratte أي المِمخَض والمِمخضة . وبعد ذلك تجرد الزبدة عما يكون عالقاً بها من سكر اللبن والأملاح والجبن بأداة اسمها المِلحن Malaxeur . ومتى تمّ ذلك توضع الزبدة في القوالب المعروفة وتباع . ويستعملون في الحالب اي دور الحلابة المبرّدات Réfrigérateurs ومقاييس كثيرة لفحص اللبن مثل مقياس نظافة اللبن Lacto-sédimentateur ومقياس الحموضة Acidimètre ومقياس تخمر اللبن Lacto-fermentateur ومقياس كثافة اللبن Lacto-densimètre ومقياس القشدة Crémomètre ومقياس اللبن Pèse-lait ومقياس السمن Butyromètre . ولعلي اعود الى هذا البحث في مقال ثان فأذكر أسماء الآلات المستعملة في الأسقاء وبعض السامات الزراعية وغيرها

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

لمحمود مصطفى الدمياطي

[اجتمع لي طائفة من اسماء المفردات النباتية وحررت ما يقابلها في بعض اللغات الاجنبية لترتيبها في معجم والآن عنّ لي أن أنشرها تباعاً في مجلة المقتطف الغراء في بيان موجز أذكر فيه المفرد ووصفه وموطنه واستعماله مشيراً الى بعض ما له في الزراعة أو الصناعة أو الطب عسى أن يكون في ذلك بعض الفائدة — الدمياطي]

— ٦ —

خيار الشنبر

يطلق على شجر وثمر اما الشجر فتكون الواحدة منهُ كبيرة متوسطة الحجم تكاد تكون ملساء ذات منظر جميل ترتفع من ٢٠ — ٤٠ قدماً وذات اوراق ريشية كبيرة مركبة متبادلة على الاغصان طول الواحدة منها من ٣٠ — ٤٥ سنتيمتراً في كل ورقة من ٤ ازواج الى ٨ من الوريقات المتقابلة البيضية او البيضية المستطيلة الحادة القمة التي يتراوح طولها بين ٥ — ١٢ سنتيمتراً . أزهارها صفر فاقعة جميلة ذكية الرائحة في عناقيد كبيرة معلقة في آباط الاوراق العليا يتراوح طول العنقود بين قدم وقدمين . اما الثمار وهي التي يطلق عليها ايضاً (خيار شنبر) فقرون خرنوبية الشكل لا تنفتح ملساء اسطوانية كل قرن منها محزأ الى حواجز بينها مساكن البذور التي تكون كثيرة ووحيدة (اي منفصلة الواحدة عن الأخرى) في لب طري لزج احمر قاتم ذي رائحة ضعيفة وطعم سكري ولون القرن يكون في البدء اخضر ثم يصير الى السمرة فالسواد عند النضج ويكون معلقاً بحامل خاص متجاور مع طائفة من القرون ويتراوح طول القرن بين ٥٠ — ٧٠ سنتيمتراً وثخنه قيراط . ولفظ شنبر معرب چنبر بالفارسية وهو (خرنوب الهند)

اسمهُ العلمي (Cathartocarpus fistula, Pers.) (قثارتوقارپوس فستولا) اشتقاقاً من اليونانية Kathairo يسهل و Karpos ثمرة او (Cassia fistula, L.) (قاسيا فستولا) وفصيلة الخيار الشنبرية او السنائية (Caesalpiniaceae) سيزالپينياسية

وبالانجليزية (Drumstick Tree; Pudding Pipe tree; Purging Cassia)

وبالفرنسية (Canéficier; Cassier; C. des pharmaciens; C. purgative)

ويقال إن موطنه بلاد الحبشة وانتقل منها الى الهند والصين ومصر واريقة وجزائر النيلة والعراق وبلاد العرب التي كان يعرف فيها قبل اكتشاف امريقة . والمستعمل منهُ في الطب الثمار (القرون) لاشتمال لبها على (القثارتين) (Cathartin) الذي يوجد في انواع السنى المختلفة . وهو خليط من العناصر الفعّالة المسهلة. ويدخل اللب في معجونة الدخان الانجليزي المعروف. وفي الهند يستعمل قلف جذور الاشجار لاطلاق البطن الشديد. اما قلف الجذوع فيستعمل في الدباغة. ويحمل من الشجر على نوع من الصمغ . وخشبه منضج ثقيل ابيض يضرب الى الحمرة اذا نشر الواحاً وعرض للشمس صار احمر داكناً كخشب البلوط ويكتسب صقلاً جميلاً

الحَنْظَل

ويقال له (العَلْقَم) و(الشَّرْي) بفتح الشين وسكون الراء . نبات عشبي يخرج اغصاناً وورقاً يفترش الارض . ووقته شبيهة بورقة البطيخ خشنة الملمس من وجهيها ذات ثلاثة فصوص او سبعة ريشية . وأزهاره وحيدة الجنس في النبات الواحد (ذكر وانثى) برتقالية اللون تضرب الى الصفرة ناقوسية الشكل توجد فرادى . اما الثمرة وهي التي يطلق العرب على حبها (الحَبِيْد) فتدرة شبيهة بكرة متوسطة في العظم او برتقالة تحوي لبّاً شديد المرارة يضرب به المثل

اسمه العلمي (Citrullus Colocynthis, Schrad.) (سيترولُّوس قولوسنثيس) وفصيلته البقطينية او القرعية (Cucurbitaceæ) (قوقوربيتاسية)

وبالانجليزية (The Wild gourd, Colocynth, Bitter Cucumber or Bitter Apple Plant)

وبالفرنسية (Coloquinte)

ويقال إن موطنه الشرق الاقصى باليابان وانتقل منها الى الهند فبلاد العرب ومنطقة البحر المتوسط والسودان ورأس الرجاء الصالح وزرع باوربا . والمستعمل منهُ في الطب لب الثمار (Colocynth) يدخل في العقاقير لاطلاق البطن الشديد وكثيراً ما يحمل عليهِ من ازمير وتريستا وفرنسا واسپانيا . وفي رأس الرجاء الصالح يغتذي اهله بالبذور ويستخرجون منها زيتاً للاستصباح واهل السودان يحصلون من الثمار على نوع من القطران المرّ يطلون بهِ ادبم القرب المتلئة بماء الشرب اثناء الرحيل منعاً لتزيق الابل العطشى لها ويستعملون محروق لب الثمار منفرداً او مخلوطاً بالفلفل الاسود لصيانة ثيابهم الصوفية من فتك العُثّة كما ذكر في كتاب برون وماسي

الخِرْوَع

كدرهم شجيرته في مقدار شجرة التين صغيرة جميلة المنظر سريعة النمو ترتفع من ٥ اقدام الى ٨ معمرة اذا تركت ولكنها تزرع سنويًّا في الغالب للحصول على زيتها المشهور كمسهل في الطب من قديم الزمن . اوراقها كهيئة الكف شبيهة بورق الدلب خضر او حمر للواحدة سبعة فصوص غائرة. أزهارها مجتمعة في عناقيد غليظة قائمة وزهرات التذكير والتأنيث في الشجيرة الواحدة . ثمارها عبارة عن احقاق متوسطة الحجم خشنة شائكة اطرافها مستديرة . والحُقّ مركب من ثلاثة فصوص كل منها كالاسطوانة في كل فص بذرة واحدة على سطحها بقع وفي احد طرفيها زائدة لحمية. والبذور شبيهة بالقراد او بيض العصافير

اسمه العلمي (Ricinus Communis, L.) (ريسينوس قومونيس) وفصيلته التربيرنية (Euphorbiaceae) (اوفوربياسيـة) وبالانجليزية (Castor Oil or Palma Christi Plant) وبالفرنسية (Ricin Commun)

موطنه الاصلي شمال إفريقية الشرقي ويزرع الآن في بلدان كثيرة بالمناطق الاستوائية والمجاورة لها بافريقية وآسيا وفي جنوب اوربا في النادر على انهُ يوجد بريًّا في كثير من الاراضي البور من تلك المناطق . وقد عثروا على بذور منهُ في مقابر قدماء المصريين يرجع عهدها الى ٤٠٠٠ سنة مما يدل على معرفتهم بوجوه نفعه . كما وان قدماء اليونان والرومان استعملوا زيته مسهلاً واستضاءوا بهِ في مصابيحهم كما يستضاء بهِ الآن في الهند بالسكك الحديدية لتفضيله على الزيوت الاخرى لبطء احتراقه وابيضاض ضوئه الشبيه بالضوء الكهربائي ورخص ثمنه وامتناع خطره الى غير ذلك كما جاء في كتاب زراعة المنطقة الحارة تأليف السير هـ . ا . نيكولز المطبوع في سنة ١٩٢٩

ويلتمع بهِ ايضاً في تزييت الآلات الميكانيكية والساعات ويدخل في صناعة انواع من الصابون واخلاط بعض المراهم والزيوت العطرية . هذا وقد عرف من قديم ايضاً ان اوراق الخروع اذا غليت ووضعت على الثدي ساعدت على ادرار اللبن وانها اذا استعملت بحالتها الطبيعية ساعدت على انحدار الطمث (الحيض) واذا استعمل قلف الجذر كان مسهلاً . وفي بلاد البنغال من الهند تستعمل الاوراق لتغذية دود القز . واهل السودان يصنعون مجبسةً من اوراق الخروع يضعونها على رأس المريض بالصداع لشفائه

اللَّبَخ

جمع واحدته (لَبَخَة) وهو شجر كبار يرتفع الى ١٦ أو ١٨ متراً وقلف جذعه املس اسود اللون قاتم. اوراقه من نوع الورقة الريشية المركبة المضاعفة يكون في كل ورقة من زوجين الى اربعة

من الوريقات الريشية في كل واحدة من هذه من ٥ أزواج الى ٩ من وريقات ليست ريشية غير متساوية الجانبين الواحدة منها بيضية الشكل مستطيلة يتراوح طولها بين ٢٨ — ٣٠ ملّيمتراً مستديرة الطرفين . وأزهاره تضرب الى الصفرة والخضرة مجتمعة في رؤوس رأسها ذكية تزهر النحل وهي المعروفة في مصر (بذقن الباشا) وثماره قرون رقيقة تضرب الى الصفرة القاتمة مستطيلة تبلغ ٣٠ سنتيمتراً طولاً و ٥ عرضاً

واسم الشجرة العلمي (Albizzia Lebbek, Benth.) (أَلْبِزِّيَا لِبِّكْ) وفصيلتها السنطية او المستحية (Mimosaceae) (ميموزاسية)

وبالانجليزية (The Siris—Acacia; Egyptian Acacia; "Woman's Tongue" of W. Indies)

وبالفرنسية (Acacie de Malabar; Bois à fer; Ebénier d'Orient)

ويقال إن اصل هذا اللبخ من بلاد الهند الشرقية وان كان ذائعاً الآن في جنوب آسيا ووسطها وشمال إفريقية ووسطها واريقة واستراليا . وقد أُدخل الى مصر والسودان واستنبت فيهما كشجر للظل والزينة وكثر انتشاره وخاصة في القاهرة وضواحيها فقد كانت تزين به الشوارع الى ما قبل الحرب العظمى ثم ازيل بسبب فتك آفة بق الهبسكوس الدقيق وللانتفاع بخشبه اذ ذاك وخشبه ابيض يضرب الى الصفرة او السمرة مندمج قابل للصقل يستعمل في النجارة كثيراً وخاصة في صناعة المحاريث ومراكز العجلات المعدة لحمل الاثقال وانتفاعات اخرى . واهل السودان يستعملون قلفه في الدباغة كما يستعملون بذوره قابضة ويحصلون من اشجاره على صمغ يشبه الصمغ العربي

أما ما ورد في كتب اللغة والنبات والآثار كتاج العروس للزبيدي وكتاب الافادة والاعتبار للبغدادي ومفردات ابن البيطار وحاسلات بومباي الاقتصادية لبردود وبغية الطالبين لاحمد باشا كمال فيصف نوعاً آخر من اللبخ اختلف في اسمائه وصفاته . ففي التاج ان شجرته عظيمة مثل الدلب ثمارها خضر كالتمر حلو جداً لكنه كريه ولا ينبت الاّ بالصنا من صعيد مصر وهذا رأي ابي حنيفة الدينوري وقيل إن شجرته عظيمة مثل الأَثْأَبة (نوع من التين البري) او اعظم ورقها شبيه بورق الجوز ولها جنى كجنى الخَلَّط (التين الجبلي) مرّ اذا أُكل اعطش واذا شرب عليه الماء نفخ البطن حكاه ابو حنيفة المذكور وانشد :

من يشرب الماء ويأكل اللبخ ترم عروق بطنه وينتفخ

قال : وهو من شجر الجبال . قال صاحب اللسان اخبرني العالم به انهُ رأى شجرة بالصنا وذكر انهُ جيد لوجع الاضراس واذا نشر خشبه أرعف ناشره وينشر الواحاً فيبلغ اللوح منها خمسين ديناراً يجعله اصحاب المراكب في بناء السفن وزعم انه اذا ضم لوحان منهُ ضمّاً شديداً صارا لوحاً واحداً والنحا

وفي المقريزي في كلامه عن مصر : وبها اللبخ وهو ثمر قدر اللوز الاخضر كان من محاسن مصر إلاَّ انهُ انقطع قبل سنة ٧٠٠ هجرية . قال دليل (Delile) إن ابحاث دي ساسي (De Sacy) اوصلتني الى تقرير ان اللبخ الذي اطلق اسمه على جملة اشجار اخرى انما هو الطجليج في بلاد النوبة وبلاد العرب وهو نادر الوجود في مصر وقد اسميه (بالانيتس اجيبتياكا) (Balanites Aegyptiaca, Delile) وانا لا اشك كذلك في مشابهته الى (پرسيا) (Persea) عند القدماء وانها ترجع الى (پرسيكا) (Persica) اي الخوخ في بعض الآراء . وفي بغية الطالبين ان اللبخ يسمى (ميموزوپس شمپري) (Mimusops Schimperi, Hochst) وهو شجر كثير الوجود قديماً في ارض مصر ولذا وجد في المقابر كثير من اثماره وأوراقه الشبيهة بورق الصفصاف كانت تضد في اكاليل الموتى . وحقق (كُنْث) (Kunth) ان ثمر النبت المسمى (ميموزوپس إلنجي) (Mimusops Elengi) هو الذي ذكر ضمن الفاكهة المدونة في صحيفة ٤٥٤ من مجموعة بسالكا . وخالفه (أنجر) ذاهباً الى انهُ ثمر المخاط (المخيط) الشهير بمصر (وبتؤيد رأي أنجر ما قال بردود في كتابه ان السُخَيط اعتبر پرسيا القدماء التي تنسب الى بالانيتس اجيبتياكا ومن المحتمل كثيراً انها المخيط والبرقوق المصري الذي ذكره پلني (Pliny) وكان يصنع من خشبها توابيت الموتى) . وظن شوينفورت ان الشجرة المسماة (ميموزوپس شمپري) التي لا وجود لها الآن الاَّ في بلاد الحبشة هي المعروفة عند قدماء المؤرخين باسم (پرسيا) وهي التي اسهبوا فيها الشرح واطالوا الكلام

ومما تقدم يتخلص ان اللبخ انواع : اولها اللبخ المسمى علميًّا (البزيالبّك) وهو من الفصيلة السنطية وسبق وصفه وانه ذائع في جنوب آسيا ووسطها وشمال افريقية واستنبت في مصر والسودان. وثانيها ما ورد في كتب اللغة المختلفة في اسمائه وصفاته وقيل إنه كان في صعيد مصر قديماً ويسمى الطجليج وسماه دليل (بالانيتس اجيبتياكا) وقيل بمشابهته الى (پرسيا) وهو من الفصيلة السيارويية (Simarubaceae) . وثالثها ما في بغية الطالبين من ان اللبخ يسمى (ميموزوپس شمپري) من فصيلة (Sapotaceae) (سابوتية) وعلق عليه (كُونْث) و(شوينفورث) الذي قال إنهُ لا وجود لهُ الآن الاَّ في بلاد الحبشة وانهُ هو (پرسيا) . ورابعها ما ذهب اليه (أنجر) مما يشعر بأن لبخ القدماء هو السُخَاط (المخيط) (Cordia Myxa) (كورديا مكسا) بدليل ان الثمر الذي وجد في مقابرهم هو ثمر المخيط والذي كانت تصنع من اخشابه توابيت الموتى. فاذا صح انهُ المخيط نسب الى الفصيلة الشجارية اي فصيلة لسان الثور (Boraginaceae) (بوراجيناسية)

هذا ولا بد من الاشارة الى ما وقع من الاختلاط في التسمية بكلمة لبخ فهي على ما افهم في كتب العرب اسم موضوع للنوع المتقدم. وقد اطلق اسم اللبخ على (البزيالبّك) لاعلى انهُ اللبخ القديم بل اخذاً من كلمة (لبّك) الموجودة في الاسم الحديث ومن ذلك حصل الاختلاط والاَّ فهما نوعان من فصيلتين مختلفتين

المتنبي

للشاعر القروي

نبيٌّ ولو ضجّت شيوخٌ ورهبانُ ... وهل بعد إعجاز ابن كندة برهانُ ؟
وكلّ كلام يرفع النفسَ منزلٌ ... وكل مقالٍ يُنعِشُ العقلَ بُهتانُ

***

تحيّيك يا نسر القريض بلابلٌ ... يعيب عليها الشدوَ بومٌ وغربانُ !
اذا انت ارقصت النجوم ترنحت ... ازاهيرُ من تغريدهن وافنانُ
فيا لك من نسر له زأر ضيغمٍ ... زمازمهُ في مسمع الدهر ألحانُ
تخطّى سماء المبقرّين واجتلت ... لهُ خلف اكوان الانامي اكوانُ

***

لك الله تطوي شاسع البيد عاقداً ... على (الرنج) (١) ما عيت به اليض (حدان) ؟!
ترامى لك الآمال نُضراً دوانياً ... ففي الصدر بُركانٌ وفي العين بستانُ
اذا غاض ماء الجِدّ فالرمح مجدبٌ ... ولو علّهُ نيلٌ وغذّته اطيانُ . . .
وان شئت امراً شاء ربّك ضدّه ... تعجّبت من عصيانه وهو اذعانُ !
وكم رغب الانسان في ما يضرّه ... وناح على فقدانهِ وهو وجدانُ
ولولا رجاء الفوز لم يتب مضجعٌ ... بحُرٍّ ولم يطمح الى المجد فتيانُ
ولو هانت الدنيا على كل طالبٍ ... لما شاقنا ربحٌ ولا شقّ خسرانُ
ولو حُزِرَ الممنوع قبل امتناعه ... على الجهد لم يستوجب العذل كسلانُ
ولو أُعلنَ التدبير من وزّع الثُّهى ... على الناس لم يعتب على الحظ انسانُ
وفي الملأ الأعلى غناءٌ لشاعرٍ ... وفي الوهم عن مرّ الحقائق سلوانُ
رعى الله نجماً اسعدَ الشعرَ نحسه ... فنمّكه من دولة الشعر شكرانُ
رمى بك في الصحراء عن مصر نابياً ... وفي النفس عدّ الرمل همٌّ واشجانُ
تلفّتّ ايجاساً ومهرك منصتٌ ... ورمحك مشتاقٌ وعضبك يقظانُ
وقُدّت قميص الفجر إلاّ غِلالةً ... كما شفّ من معناك للعمه تبيانُ

---

(١) يعني كافور الاخشيدي سلطان مصر

وفاضت شآبيب المجبن وفجّرت جداول من ماس الشعاع وغدران
وعبّ عباب التبر في كل ساحل من الافق حتى لاضفاف وشطآن
فولّت سراعاً خيفة النوء واختفت اساطيل مجم ما عليهن ربّان
وعامت على المدّ الغيوم كأنها جزائر في بحر الضياء وخلجان
روائع تنسي طائر الجد همه واطيب ذكرى للتناكيد نسيان ! . .
تفذت الى ما خلفهن بناظر لإنسانه خلف الحاجر إنسان
رأيت به ما لا يرى كل مبصر كأنّ جميع الناس إلاك عميان
كأنك في فلك على الفجر سابح وفيض شعاع الوحي حولك طوفان
أهبتَ بربّات الفنون فرتّلت مزاهر في احضانهن وعيدان
وقامت مع الالحان من كل وجهة معان من السحر الحلال وأوزان
همت فتلقّاها براع مثقّف خبير بتعريف الأماليّ فنّان
تُراض به شمس القوافي كأنه خزائم في اخطامهن وارسان
وزلّتها للناس آيات حكمة جواهرها في مفرق الشعر تيجان

***

ألا أي ينبوع سقاك معينه فاني الى تلك المناهل ظمآن
أصاب «ابن أوس» منه حسوة طائر وبلّت لسان «البحتري» به الجان
وأنت مقيم كارع من دنانه يشعشعها بالكوثر العذب رضوان
تعاطيك اكواب الخلود ملاثك اذا لقّن الاشعار غيرك شيطان
وتسعى اليك الجنّ تسأل حكمة فيزجرها زجر الغيور سليمان
يمن علينا الدهر فيك وانه على نقسه لو يعلم الدهر منّان
بك اشتهر العصر الذي انت نظمه وأنت له التاريخ والمجد والشان
عيال على ذكراك ذكرى ملوكه واسماؤهم فيه على اسمك ضيفان
خلدت فخلّدت الزمان وهكذا تموت وتحيا بالنوابغ ازمان

***

ابا الطيّب استعصت على الطب علة ويخشى لها في مهجة الشعر إزمان
فأزرى بقدر العبقري شويعر وباء بألقاب الحناذيذ وزّان

اكنتَ طرحت البوق في الحي جانباً ... وقد نام آساد وروّع غزلانُ ؟
أحقّاً احاتيف الحمامة خيفةً ... وابطالها الغُرُّ الميامين صبيانُ ؟
ألا افتِنا فالنقد ضاعت اصوله ... وشوّه وجه الرأي حبٌّ وصدوانُ !

٭٭٭

«بُنَيَّ ذرِ التاريخ يُنصفْ رجاله ... ففي كفّهِ الميزان ان ضاع ميزانُ
أجدنا فجُنَّ الحاسدون وليتنا ... اسأنا ففي بعض الاساءة احسانُ
اغاروا على الفاظنا بمراقهم ... يُقرُّ لها بالطعن . . . بيضٌ وسمرانُ
لَهَوا بانتقاد الثوب عما يشفُّه ... وتُنتخَبُ الحسناء والجسم عريانُ
وداوَوا بتذمام الغبار عيونهم ... اذا برّزَت في حلبة الشعر فرسانُ
فان تلقَ منهم ما لقينا فانما ... هم الناس يا ابني لم يزالوا كما كانوا
بشاعرها فلتفتخر كل امةٍ ... يهددها بالموت والعار طغيانُ
اذا طويت اعلامها فهو بيرق ... وان اخمدت انفاسها فهو بركانُ
بهز رقاب الغابرين صراخه ... فتنشقُّ ارماس وتنطقُّ اكفانُ
وتُبعثُ ابطالٌ وتُنضى صوارم ... وتلثرُ اعلامٌ وتُنصَفُّ اوطانُ
وقفتم على اطلال مجدٍ مُضيَّعٍ ... فحظُّكمُ منهُ شقاء وحرمانُ
وماذا يرجّي الشاعر الحرّ بينكم ... وما حولهُ الاّ اماعٌ وعبدانُ
تصرّم عهد العزّ والبأس والندى ... وبُدِّل من اخلاق (يعرب) (طوران)
فخالت سيوف الدولة البيض اعظُماً ... ويا ليتهم فيكم « كوافير » سودانُ

٭٭٭

ابا الشعر هذا محفلٌ من محافل ... تهزُّ بها الدنيا بذكرك قحطانُ
صحا الدهر يستسقيك كأساً جديدةً ... قضى الف عام قبلها وهو سكرانُ
ألا نُهلةٌ أخرى ؟ أما من ثُمالةٍ ... يهشُّ لها سادٍ ونادٍ وندمانُ ؟
خلا العرش بعد (ابن الحسين[1]) على المدى ... وعُطل من كسرى البلاغة ايوانُ
تمرُّ البرايا موكباً إثر موكبٍ ... يقلُّ فحول الشعر والشعر سهرانُ
يفتش فيها عن خليفةِ « احمدٍ » ... فتمضي الليالي وهو حيران يأسانُ

(١) يعني المتنبي ابن الحسين

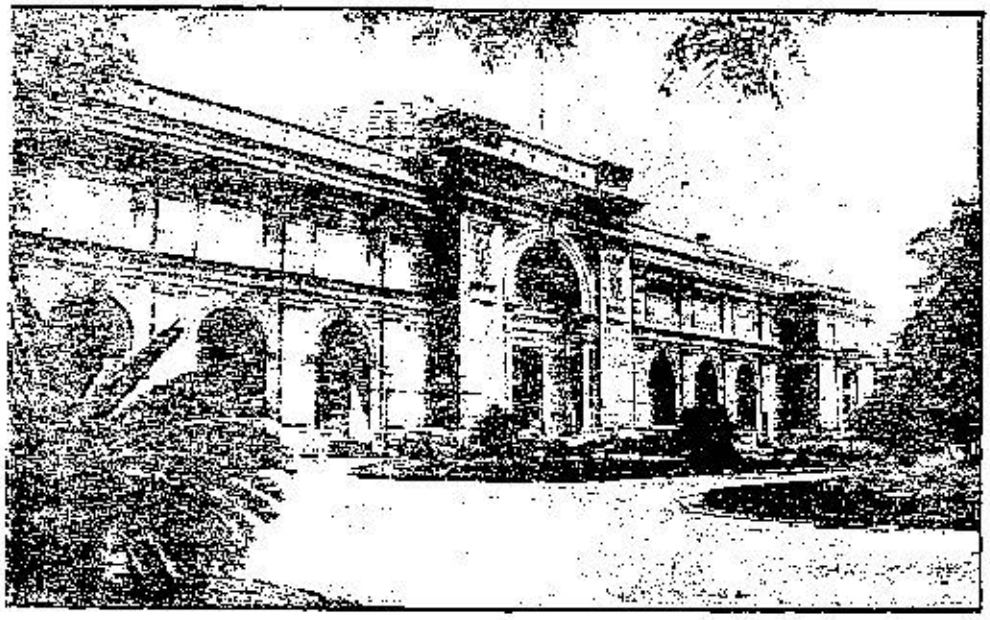

دار الآثار المصرية في قصر النيل

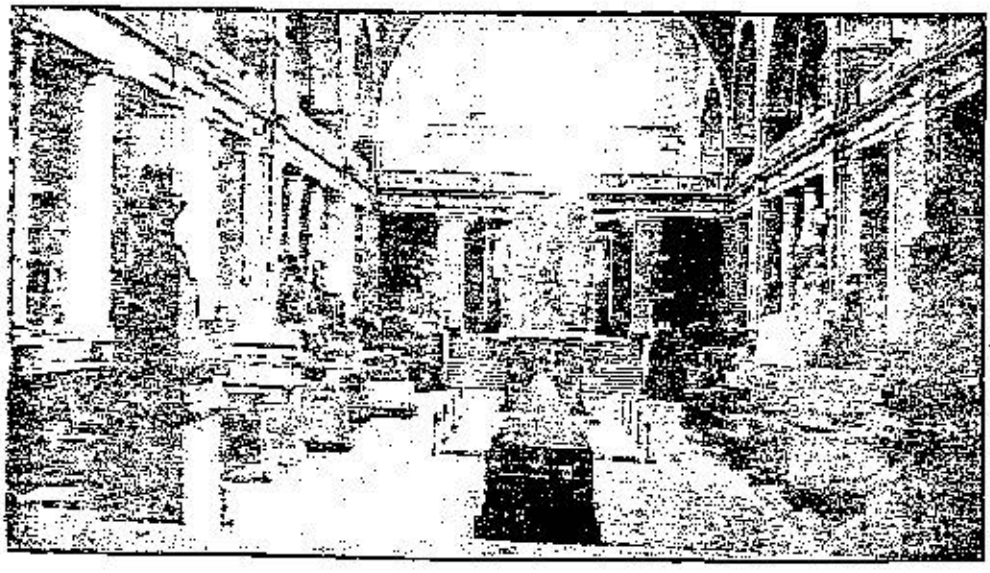

الدور الأرضي في دار الآثار المصرية

مصلحة الآثار المصرية

ودار الآثار المصرية وتاريخ انشائها

للدكتور حسن كمال

حدث في ربيع سنة ١٨٥٧ ميلادية ان الامير نابوليون ابن عم الامبراطور نابوليون الثالث امبراطور فرنسا وقتئذٍ وصل الى وطنه حديثاً من رحلة بالقطب الشمالي . وكان محبوه كثير الحركة قليل القناعة فكان قلقهُ مدعاة لقلق عمه واحراجه كثيراً . وتاق محبوه يوماً ما الى الذهاب في رحلة الى الشرق فقوبلت هذه الرغبة بكل وسائل التشجيع والتسهيل . وكان الارشيدوق ماكسمليان قد سبقهُ في رحلة الى مصر واحضر معهُ آثاراً نالت اعجاب اهل وطنه . فصمّم محبو الامير نابوليون ان يقوم برحلة تفوق رحلة الارشيدوق ماكسمليان . فأرسلت افادة بذلك الى محبوّ والي مصر سعيد باشا الذي قرّر ان يقابل بكل وسائل الاكرام

عندئذٍ اشار (ديلسبس) على محبو الوالي ان يبعث في طلب انتداب الاستاذ (ماريت) من فرنسا لمدة ثمانية اشهر فقط وذلك في اكتوبر سنة ١٨٥٧ . فحضر (ماريت) الى مصر فسافر في النيل يبحث في الوادي عن الآثار ويدفن ما يعثر عليه بالتالي في محله حتى يجيء الامير نابوليون كي لا يتجشم هذا الاخير مشقة الحفر والتنقيب

بعد ذلك بقليل وصل الى القاهرة الاستاذ (هينرخ بروكش) الالماني . ورغبةً في عدم ضياع الوقت ذهب (ماريت باشا) وقابل الاستاذ (بروكش باشا) في محطة السكة الحديد وطلب منه إعداد نفسه بأسرع ما يمكن كي يشترك معهُ في الحفريات المطلوب القيام بها

وقد افاض علماء الآثار في شرح هذه القصة بعبارات مختلفة . نخص بالذكر منهم (ماسبرو) و (دي مرجان) و(دي روجيه) و (بروكش) وذلك في عدة مجلات اثرية ليس هذا مقام شرحها

وبدأت الحفريات في الجيزة وسقارة والعرابة وطيبة (الاقصر) وجزيرة الفيل باسوان وعثر على مقادير كبيرة من الآثار وقتئذٍ . واستمر العمل سائراً بنجاح من كل الوجوه الا وجه واحد وهو مجيء الامير نابوليون الذي اعتذر عن الحضور الى مصر «لاسباب هامة» . وفي ٨ يناير سنة ١٨٥٨ ورد نبأ الى (مريت) من فرنسا يطلب رجوعه اليها ولسلمه اعماله في متحف اللوفر

عندئذٍ صمم (ماريت) ان يؤسس لهُ مستقبلاً بمصر . فارسل الى الامير نابوليون انهُ يمكنه ان يحضر معهُ مجموعة اثرية لسموه اذا تفضل سموّه ومكّنه من تأخير عودته الى فرنسا . فأتى

اليه الردّ من سكرتير سموه المدعو (فرّ يزاني) بأن سموه يكون شديد الامتنان اذا تكرّم (ماريت) من احضار « بعض حليّ وتماثيل صغيرة وقطع من الفنون المصرية الجميلة مع بيانات بطريقة العثور عليها » فاخذ (ماريت) ما يعتبره موافقاً لذوق سموّ الامير نابوليون الملقّب وقتئذٍ بلقب (پلون پلون). ولما وصلت الهدية الثمينة الى الامير المذكور رشّح (ماريت) مأموراً للآثار المصرية وذلك بعد مضي بضعة اشهر

هذه باختصار قصة انشاء مصلحة الآثار المصرية وظهورها في عالم الوجود. ومن اهم ما عثر عليه وقتئذٍ تابوت الملك (كامس) فقد اكتشفه (ماريت) و (بروكش) في ديسمبر سنة ١٨٥٧ في حفرة جهة (دراع ابي النجا). فلما رآه (ماريت) ظنه لا يروق في عين الامير (نابوليون) فأبقاه في مصر حتى حفظ بدار تحف القاهرة. اما جثة الملك فكانت في حالة تحلل تام. حتى انها تفتّتت بمجرد فتح التابوت. ووُجد مع الجثة باطة وتمثالان لاسدين وخانة ملكية ارسلت جميعها ضمن الهدية المقدمة الى الامير (نابوليون). وهي الآن في دار تحف اللوفر بفرنسا

و (كامس) هذا حكم القطر المصري في القرن السادس عشر قبل الميلاد ولما توفي دفن باهرامه بالساحل الغربي بالاقصر. وقد كافح الهيكسوس كفاح المستميت وبعده اتت الاسرة الثامنة عشرة وحكمت القطر بصولتها وجبروتها ثم تلتها الاسرة التاسعة عشرة بعزها وجاهها. بعد ذلك اخذ القطر في الاضمحلال وبدأت ايدي اللصوص تعبث بعدائن فراعنة مصر الاقدمين قصد اقتناص الحلى والادوات الثمينة التي اعتاد القوم ان يدفنوها مع ملوكهم كما هي الحال مع (توت عنخ امون)

وورد بقرطاس (ابوت) التاريخي ان البوليس المصري القديم فتش قبر الملك (كامس) وقتئذٍ ووجده سليماً. لكن وقع على اثر ذلك ان ازداد اللصوص اجماماً في سرقة المقابر الملكية. فخاف القوم على جثث ملوكهم واخذوا ينقلونها من مقابرهم ذات المعالم الواضحة الى حفر مختبئة معلومة الدلائل والقرائن. فكان من حظ الملك (كامس) المذكور ان نقل من قبره العظيم الى حفرة صغيرة اسفل (دراع ابي النجا) وهناك بقيت جثته مع تابوتها وبعض ممتلكاتها حتى ديسمبر ١٨٥٧ ميلادية لما اكتشفها (ماريت) و (بروكش) بالطريقة السابق شرحها

دار الآثار المصرية

والآن وقد ألمعنا سابقاً الى تاريخ انشاء مصلحة الآثار المصرية ننتقل بالقارىء الى تاريخ انشاء المتحف المصري فنقول ان (ماريت باشا) بدأ المتحف المصري عام ١٨٥٧ ميلادية (بديكر عن مصر) بحي بولاق. واول دليل وضع لهذا المتحف كتبه ماريت عام ١٨٦٤ تحت عنوان Les principaux monuments du musée de Boulacq. وفي سنة ١٨٨٣ وضع الاستاذ ماسپرو دليلاً ثانياً. وبعد الاحتلال الانكليزي للقطر بمدة يسيرة نقل المتحف من بولاق الى سراي الخديو اسماعيل باشا بالجيزة وبقي هناك حتى ٩ مارس سنة ١٩٠٢ لما بدىء في نقل محتوياته الى المتحف الحالي بقصر النيل

العالم الأثري المصري المغفور لهُ
احمد كمال باشا

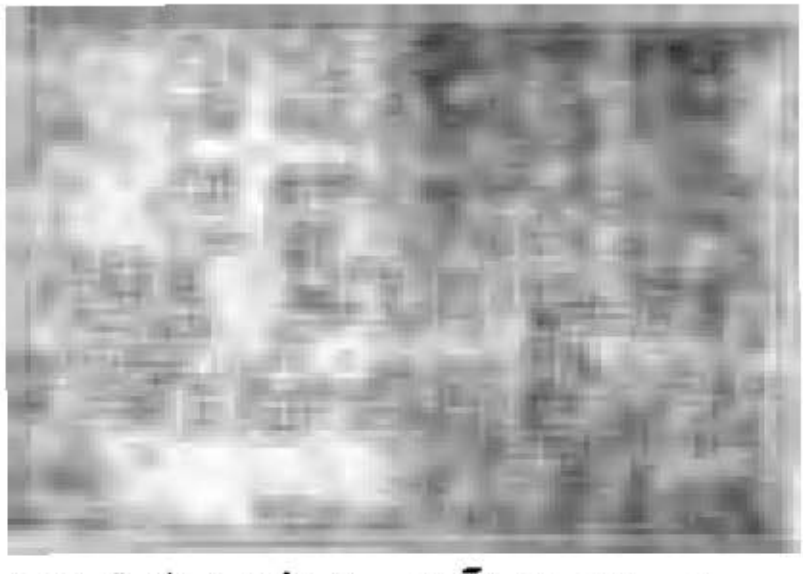

رسم الدور الارضي لدار الآثار المصرية في الجيزة وهي الدار التي تقدمت
دار الآثار المصرية الحديثة في قصر النيل

لوحة تمثل الملك اخناتون يعبد الشمس

رأس مومياء رمسيس الثاني

ونم نقل المتحف في ١٣ يوليه سنة ١٩٠٢ وكان كلما نُقل أثر وضع في المحل المعد له حتى اذا ما استهل شهر اغسطس صار متحف القاهرة الجديد مستعداً لدخول المتفرجين . الاّ ان اصلاح الانصاب والقواعد والحيطان عقب ما اصابها من التخديش الناشيء عن نقل الآثار كان مانعاً لذلك . فلما انتهى هذا الاصلاح فتح المتحف في ١٥ نوفمبر سنة ١٩٠٢ (راجع مقدمة دليل متحف القاهرة سنة ١٩٠٣) واعدت أبهاؤه لمن اراد التفرج عليها

واول مدير (مأمور) لمصلحة الآثار كان بطبيعة الحال (اوجست ماريت) (١٨١٢ — ١٨٨١) . ثم اتى بعده (جريبو) و (دي مورجان) و (لوريه) و (ماسبرو) و (لاكو) . ويرجع الفضل في اكبر توسعة لمتحف هذه الدار الى عهد جاستون ماسبرو الذي توفي عام ١٩١٦ ميلادية . ولعل اهم كنز أري عثر عليه في الآثار المصرية كلها بما في ذلك الحديث هو المومياات الملكية — او جثث فراعنة مصر — الذين دوخوا العالم واعلوا منزلة مصر حتى بلغت عنان السماء . والى هذا الكنز يرجع الفضل الاكبر في تعرف العالم الحديث بالقديم . لان الروايات الاثرية والقصص التاريخية التي كانت معروفة عند هؤلاء القوم لم تقدر حق قدرها ولم تصبح لها منزلتها العالية الاّ بعد ما شاهد اهل هذا العصر وجوه حكام تلك الازمنة ولمسوها بأيديهم . فكان هذا الاكتشاف كرميض البرق في الدجى الحالك يكشف عن مئات من المعالم كانت مختبئة تحت جنح الظلام الدامس

والفضل في اكتشاف هذه المومياات الملكية يرجع الى الاستاذين احمد افندي كمال [1] (وقد انعم عليه بالباشوية في اواخر حياته — وتوفي عام ١٩٢٣ م) واميل بروكش فانهما في يوم الاربعاء ٦ يوليو سنة ١٨٧٩ تمكنا بمعرفة محمد احمد عبد الرسول من الوصول الى ذلك الكنز في بئر عميقة بالقرب من الشيخ عبد القرنة بالاقصر . وهذه البئر تنتهي من اسفل بسرداب متعرّج وطويل ينتهي بحجرة واسعة يبلغ طولها حوالي ثمانية امتار تقريباً . واول ما وقع نظر الاستاذين كان على تابوت (نسي خونسو) ثم (سيتي الاول) ثم على كثير من اثاث المنازل وادوات الزينة وتماثيل المقابر على اختلاف انواعها ولكنها كانت بغير نظام . وتحت بصيص الشمعة تمكن العالمان من معرفة توابيت ومومياات الملك (امنحوتب الاول) و(تحوتمس الثاني) و(احمس الاول) محرر مصر من الهيكسوس و (سكنرع) شهيد الثورة القومية ضد الهيكسوس و (تحوتمس الثالث) البطل الفاتح و (رمسيس الثاني) الامبراطور العظيم ! ! ! وغيرهم ممن حكموا العالم القديم . واستمرّ فحص هذا الكنز ساعتين (راجع (Historiana History of the World) مجلد ١ ص ١٥٦)

وفي الحال اتيا بحوالي مائتين من الانفار بعونة سعادة مدير المديرية . وبدءا في نقل تلك الآثار . وبقي احمد افندي كمال واميل بروكش يتسلمان الآثار قطعة قطعة مدة ثماني واربعين ساعة من دون ادنى راحة حتى نقلا جميع التحف . ثم بدأت مهمة نقل ذلك الكنز الى السفينة النيلية.

(١) المنتصف : والد الدكتور حسن كمال

وفي ١١ يوليو كانت هذه الآثار على شاطئ النيل بالاقصر . وكلنا نعرف مقدار التعب الذي حلّ بالقائمين بهذا العمل في حرارة شهر يوليو المحرقة بالاقصر . وفي يوم ١٤ يوليو وصلت السفينة النيلية الى الاقصر لشحن مخلفات الذكر ثم أقلعت الى بولاق . ومن ثمّ نقلت محتوياتها الى المتحف المصري وكان في بولاق وقتئذٍ

ومن ظريف ما حدثنا به الوالد انهما توجها الى الاقصر للقيام بهذا العمل اراد مقابلة سعادة مدير قنا . فنزل من السفينة هو والاستاذ اميل بروكش لهذا الغرض . وتعذّر عليهما الحصول على عربة وكان وقت الظهيرة . فتراءى لهما السير على الاقدام قاصدا هذه المسافة الطويلة من النيل الى ديوان المديرية في لهيب شمس يوليو . وحدث في اثناء سيرهما ان الاستاذ (بروكش) اعترته نوبة مغص كلوي شديدة اضطر من جرائها الى الاستراحة هنيهة تحت شجرة . وكان كمال افندي وقتئذٍ يواسيه. قال هذا الاخير ولما ذهب عن (بروكش) الالم تفقد احدنا حذاءه اللامع فوجد طبقته اللامعة قد سالت وخلفت قاشاً اسوداً من شدة الحرارة !! ولما وصلا الى ديوان المديرية لمقابلة سعادة المدير علما ان سعادته في الحمام يطنيه لهيب الحر !! والقصد من سرد هذه الحكاية هنا اظهار بعض ما عاناه الاستاذان من التعب في انجاز ذلك العمل الشاق

ويتلخص السبب في تكديس مومياوات وآثار مقابر هؤلاء الملوك بعضها فوق بعض في ذلك المكان المختبيء في ان المملكة المصرية لما ضعفت سلطتها بدأت القصوص في نهب مقابر الحكام الاقدمين لخلو الكهنة على مومياوات ملوكهم وتمكنوا من حفر البئر التي تقدم ذكرها حيث واروا مومياوات حكامهم . فبقيت هذه في حرز امين الى ان تسلّمها احد افندي كمال و(اميل بروكش) وأودعاها بدار تحف بولاق . وكلنا نعرف دار التحف المصرية التي في قصر النيل الآن . اما دار التحف المصرية السابقة لها فكانت تعرف باسم دار تحف الجيزة وهي سراي المغفور له اسماعيل باشا الخديوي الاول حوّلت هذه الدار الى دار تحف ونقلت اليها محتويات دار تحف بولاق . وكانت هذه السراي ذات طابقين ارضي وعلوي . وكل طابق مكوّن من نحو ثمانين غرفة تقريباً . ومنه يتضح للقارئ ان محتويات المتحف وقتئذٍ كانت كثيرة جداً — ولا غرابة فقد كانت حينذاك اغنى مجموعة من نوعها في العالم. وكانت تحفها مقسّمة تقسيماً علمياً بحسب العصور من اقدم الازمنة الى العهد القبطي . وقد جاء ذكر هذا المتحف في حديث عيسى بن هشام حيث يجد الباحث العبارة الآتية ضمن عباراته عن المتحف المذكور « ولو انك عرضت اهل مصر على هذه الآثار واحداً واحداً لما استفادوا منها شيئاً ولا افادوك عنها شيئاً ولما وجدوا لها قيمة تذكر سوى التذر اليسير من المقلدين الغربيين ولم تجد بين عشرة الملايين اليوم سوى شخص واحد يفقه « لغة الهيروغليف » اعني لغة آبائهم واجدادهم كما يزعم الزاعمون مع كثرة الخبيرين بها في الامم الغربية » وهو يعني بذلك المرحوم كمال باشا صبحي . اما الآن فان تلاميذ الباشا المذكور اخذوا يتبوأون مكانهم تحت الشمس في علم الآثار وصار لهم منزلة محترمة بين ابناء وطنهم

رسالة "السيرة الفلسفية"

للطبيب الفيلسوف أبو بكر الرازي

بقلم فؤاد الأهواني

هي رسالة صغيرة الحجم كبيرة الفائدة العلمية ، أخرجها من عالم المخطوطات إلى عالم المطبوعات مستشرق ألماني يشتغل الآن في باريس أستاذاً بمدرسة الدراسات العليا الملحقة بجامعة السوربون ، اسمهُ بول كراوس Paul Kraus . تقابلت وإياه في باريس في صيف هذا العام ، وأطلعني على هذه الرسالة التي نشرها في مجلة اوريانتاليا [1] التي تصدر في روما ، وأردفها بترجمة فرنسية للرسالة ، وتحليل لها أيضاً ، والاستاذ كراوس قد اختص بدراسة الرازي ويعمل بالفعل على إخراج كثير من كتبهِ ، وقد اعجبتني هذه الرسالة الصغيرة من السيرة الفلسفية التي وضعها الرازي فأحببت ان اقدم ملخصها للقراء لما فيها من نفع . ويترجم له صاحب أخبار الحكماء فيقول: [2]

محمد بن زكريا أبو بكر الرازي طبيب المسلمين غير مدافع ، وأحد المشهورين في علم المنطق والهندسة وغيرها من علوم الفلسفة . وكان في ابتداء أمره يضرب بالعود ثم ترك ذلك وأقبل على تعلم الفلسفة فنال منها كثيراً . وألّف كتباً كثيرة يأتي ذكرها ان شاء الله تعالى اكثرها في صناعة الطب ، وسائرها في ضروب من المعارف الطبيعية والالهية ، الا انهُ توغل في العلم الالهي وما فُهم غرضهُ الاقصى فاضطرب لذلك رأيه وتقلد آراء سخيفة وانتحل مذاهب خبيثة وثم أقوام لم يفهم عنهم ولا هدى لسبيلهم . ودبر مارستان الري ثم مارستان بغداد زماناً ثم عمي في آخر عمرهِ وتوفي قريباً من سنة عشرين وثلثمائة . هذا قول القاضي صاعد بن الحسن الاندلسي . وذكر ابن شيراز في تاريخه انهُ توفي سنة اربع وستين وثلثمائة . وذكره ابن جلجل الاندلسي في كتابه فقال : ابو بكر الرازي مسلم النحلة اديب طبيب مارستاني ، دبر مارستان الري ثم مارستان بغداد طويلاً ، وكان في ابتداء أمره يضرب بالعود ثم نزع عن ذلك واكبّ على النظر في الطب والفلسفة وبرع فيها براعة المتقدمين ، وألّف في الطب كتباً كثيرة بديعة ... وعمي في آخر زمانه بماء نزل على عينيهِ فقيل له لو قلعت ؟ قال : لا ، قد أبصرت من الدنيا حتى مللت ، فلم يسمح لعينيهِ بالقدح ، وكان في زمن للكتفي ، قلت وفي بعض زمن المقتدر .

وذكره محمد بن اسحاق بن النديم في كتابهِ فقال : أبو بكر محمد بن زكريا الرازي من اهل الري ، أوحد دهره ، وفريد عصره ، قد جمع المعرفة بعلوم القدماء لاسيما الطب . وكان ينتقل في البلدان ، وبينهُ وبين المنصور بن اسماعيل صداقة ، وله ألف كتاب المنصوري . قال ابو الحسن

---

(١) Revue Orientalia (٢) اخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي طبعة الخانجي في مصر ص ١٧٨

الوراق : قال لي رجل من اهل الري شيخ كبير سألته عن الرازي فقال : كان شيخاً كبير الرأس مسفطه وكان يجلس في مجلسه ودونه التلاميذ ودونهم تلاميذهم ودونهم تلاميذ آخرون ، وكان يجيء الرجل فيسمع ما يجد لاول من يلقاه منهم ، فان كان عنده علم والاّ تعداه الى غيره ، فان اصابوا والاّ تكلم الرازي في ذلك . وكان كريماً متفضلاً باراً بالناس ، حسن الرأفة بالفقراء والاعلاّء ، حتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة ويمرضهم . قال ولم يكن يفارق النسخ إما يبيض وإما يسوّد . وكانت في بصره رطوبة لكثرة أكله الباقلاء ، وفي آخر عمره عمي . . . »

ويقول الاستاذ كراوس في تحقيق هذا المخطوط إن « السيرة الفلسفية » قد ذكرت ضمن الكتب المنسوبة الى الرازي . وقد ذكره « البيروني » في رسالته تحت هذا العنوان « السيرة الفلسفية » وهو العنوان المرقوم في هذا المخطوط الوحيد . اما ابن ابي اصيبعة فيذكر عدة تآليف الأرجح — في نظر الاستاذ كراوس — انها ترجع الى كتاب واحد منها كتاب « سيرة الحكماء » ، و« في السيرة الفاضلة » و« سيرة أهل المدينة الفاضلة » ، و« في سيرته » . أما القفطي فيذكر عن ابن النديم ضمن تآليف الرازي « كتاب في السيرة الفاضلة » . وتبدأ الرسالة على هذا النحو

« بسم الله الرحمن الرحيم . قال ابو بكر محمد ابن زكريا الرازي — أحق الله روحه بالروح والراحة

إن ناساً من أهل النظر والتمييز والتحصيل ، لما رأونا نداخل الناس ونتصرف في وجوه من المعاش عابونا واستنقصونا وزعموا أنا حائدون عن سيرة الفلاسفة ولا سيما عن سيرة إمامنا سقراط المأثور عنهُ أنهُ كان لا يغشى الملوك ويستخف بهم إذ هم غشوه ، ولا يأكل لذيذ الطعام ، ولا يلبس فاخر الثياب ، ولا يبني ولا يقتني ولا يلبس ولا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يشهد لهواً ، بل كان مقتصراً على أكل الحشيش ، والالتفاف في كساء خلق والايواء إلى جب في البرية ، وأنهُ ايضاً لم يكن يستعمل التقية للعوام ولا للسلطان بل يجيبهم بما هو الحق عنده بأشرح الالفاظ وأبينها وأما نحن فعلى خلاف ذلك . ثم قالوا في مساوىء هذه السيرة التي صار بها إمامنا سقراط أنها مخالفة لما عليهِ مجرى الطبع ، وقوام الحرث والنسل ، وداعية إلى خراب العالم وبوار الناس وهلاكهم ، وسنجيبهم بما عندنا في ذلك إن شاء الله

فنقول : أما ما أثروهُ عن سقراط وذكروه فقد صدقوا وقد كان ذلك منهُ ، لكنهم جهلوا منهُ أشياء أخر وتركوا ذكرها تعمداً لوجوب موضع الحجة علينا . وذلك أن هذه الامور التي أثروها عن سقراط قد كانت منهُ في ابتداء أمره إلى مدة طويلة من عمره ثم انتقل عن كثير منها حتى انهُ مات عن بنات ، وحارب العدو ، وحضر مجالس اللهو ، وأكل الطيبات إلاّ من اللحم ، وشرب يسير المسكر ، وذلك معلوم مأثور عند من عني باستقصاء أخبار هذا الرجل . وإنما كان منهُ ما كان في بدأ أمره لشدة محبته بالفلسفة وحبه لها ، وحرصه على صرف زمان الشهوات ، واشتغل بالذات إليها ومواتاة طبعه لهُ على ذلك واستخفافه واسترذاله لمن يلاحظ الفلسفة بالعين التي تستحق أن تلاحظ بها ، وآثر ما هو أخص منها عليها . ولا بدّ في أول الأمور المشوقة المعشوقة من فضل

ميل إليها وإفراط في حبها وزوجها وشنآن المخالفين فيها ، حتى إذا وغل فيها ، وقرّت الأمور به قرارها سقط الافراط فيها ، ورجع إلى الاعتدال كما يقال في المثل « لكل جديد لذة » . فهذه كانت حال سقراط في تلك المدة من عمره ، وصار ما أتوه منه من هذه الامور أشهر وأكثر لأنها أطرف وأعجب وأبعد من أحوال الناس ، والناس مولعون باذاعة الطريف النادر ، والاضراب عن المألوف والمعتاد . فلسنا إذاً بمخالفين للأمر الأحمد من سيرة سقراط ، وإن كنا مقصرين عنه في ذلك تقصيراً كثيراً ومقرين بالنقص عن استعمال السيرة العادلة وقمع الهوى ومحبة العلم والحرص عليه . فخلافنا اذاً لسقراط ليس في كيفية السيرة بل في كميتها ، ولسنا بمنتقصين إن اقترنا بالنقص عنه إذ كان ذلك هو الحق ، وكان الاقرار بالحق أكثر شرفاً وفضيلة . فهذا ما نقوله في هذا الموضع

وأما ما عابوه من السيرة الاولى من سيرتي سقراط فانا نقول : إن العيب منها بحق أيضاً كميتها لا كيفيتها ، إذ من البين انهُ ليس الانهماك في الشهوات وايثارها الأمر الأفضل الأشرف على ما بيّنا في كتابنا « الطب الروحاني » لكن الأخذ من كل حاجة بمقدار ما لابد منهُ او بمقدار ما لا يجلب ألماً على اللذة المصابة منها . وقد رجع سقراط عن الفرط منها الذي هو للعيب بالحقيقة ، والداعي إلى خراب العالم وبوار الناس ، إذ قد عاد الى ان أنسل وحارب العدو وحضر مجالس اللهو . ومن فعل ذلك فقد خرج عن أن يكون ساعياً في خراب الدنيا وبوار الناس ، وليس يجب أن لا يكون كذلك حتى يكون مغرقاً في الشهوات ونحن وان كنا غير مستحقين لاسم الفلسفة بالاضافة الى سقراط ، فانا مستحقون لاسمها بالاضافة الى الناس غير المتفلسفين . . . .

« واذ قد بينا ما اردنا بيانه في هذا الموضع فنرجع ونبين ما عندنا ، ونذكر الطاعنين علينا ، ونذكر اذا لم نسر بسيرة الى يومنا هذا — بتوفيق الله ومعونته — نستحق ان نخرج بها عن التسمية فيلسوفاً . وذلك ان المستحق لمحو اسم الفلسفة عنه ، مَن قصّر في جزءي الفلسفة جميعاً ، اعني العلم والعمل بجهل ما للفيلسوف ان يعلمه ، او سار بما ليس للفيلسوف ان يسير به . ونحن بحمد الله ومنّه وتوفيقه وارشاده فبرآء من ذلك . اما في باب العلم فمن قِبَل انّا لو لم تكن عندنا منه الاّ القوة على تأليف مثل هذا الكتاب لكان ذلك مانعاً عن ان يمحى عنا اسم الفلسفة فضلاً عن مثل كتابنا في البرهان ، وفي العلم الالهي ، وفي الطب الروحاني . . . والكتاب الموسوم بالجامع الذي لم يسبقني اليه احد من اهل المملكة ولا احتذى فيه احد بعد احتذائي وحذوي . . . فان لم يكن مبلغي من العلم المبلغ الذي استحق ان اسمّى فيلسوفاً ، فمن هو ليت شعري ذلك في دهرنا هذا »

خصص الرازي هذه الرسالة في الرد على مهاجميه ومنتقديه ، وعرض للذين يخلعون عنه لقب الفيلسوف ، فرسم الطريق الذي يسلكه صاحب الفلسفة عامة ، وشرح حياة سقراط ليستخرج منها المنهج السوي اذ كان سقراط المثل الاعلى الذي يحتذى في الاخلاق . وقد نعود في كلمة اخرى الى المبادىء الاخلاقية التي ذكرها الرازي في هذه الرسالة فهي طريفة حقاً وجديرة بالبسط والتفكير . ولكني اريد ان اوجه النظر الى الطريقة التي عالج بها هذا الفيلسوف الدفاع عن نفسه ،

فاز صفة العلماء التواضع ، ولكن كثيراً من المفكرين خرجوا على هذا التقليد ، فكتبوا تاريخ حياتهم ، ذكروا فيه احوالهم الشخصية ، ورسموا طرائق معاشهم ، ولم يجدوا في مدح انفسهم نقصاً او عيباً ، وكل ادرى بنفسه . ولعل الرازي اذا لم يكن قد سلم من هجمات المعارضين ، ونقدات الناقدين ، فذلك لانهُ هو كان البادىء بمهاجمة علماء زمانهِ والحط من قدرهم ، واذا كانت هذه المؤلفات قد ضاعت اصولها وفقدت متونها ، فان اسماءها تدل عليها ، وقد عددت مؤلفاته حسب ما ورد في « اخبار الحكماء » فكانت مائة وستة وثلاثين كتاباً ، « وبالجملة فقرابة مائتي كتاب ومقالة ورسالة خرجت عني الى وقت عملي هذه المقالة في فنون الفلسفة من العلم الطبيعي والالهي » كما ذكر هو عن نفسهِ في هذه الرسالة . ثم انظر الى كتبهِ مثل «الرد على الناشىء في نقضهِ الطب » . وكتاب « في الاسباب المميلة لقلوب الناس عن افاضل الاطباء الى اخسائهم » و « كتاب الرد على ابي قاسم البلخي في نقضهِ المقالة الثانية في العلم الالهي » و « كتاب الرد على الجاحظ في نقض الطب » و « كتاب مناقضة الجاحظ في كتابه في فضل الكلام » و « كتاب نقض النقض على البلخي في العلم الالهي » و « كتاب في ان بعض الناس ترك الطبيب » و « رسالة لم صار جهال الاطباء والنساء في المدن اكثر من النساء » .... فمن هذه الكتب ما ناقض به اعلاماً من الكتاب الذين سبقوه كالجاحظ ، ومنها ما عارض بها اعلام زمانه ومعاصريه . ويخيل الينا ان هذه المعارضة كانت عنيفة بل بالغة في العنف ، يؤيدها ايمانه المتأصل بأنه وحيد عصره في العلم والفلسفة والطب كما ذكر عن نفسه حيث قال « فان لم يكن مبلغي من العلم المبلغ الذي استحق ان اسمى فيلسوفاً فمن هو ليت شعري ذلك في دهرنا هذا »

وقد مرت بعد ذلك طرفاً من سيرتهِ الخاصة ، يعتذر بها عن نفسهِ فقال : « فاني لم أصحب السلطان صحبة حامل السلاح ، ولا متولي أعماله ، بل صحبته صحبة متطبب ومنادم يتصرف بين امرين : أما في وقت مرضه فعلاجه واصلاح امر بدنه ، وأما في وقت صحة بدنه فايناسه والمشورة عليه — يعلم الله ذلك مني — بجميع ما وجوت به فائدة صلاح عليه وعلى رعيته ، ولا ظهر مني على شره في جمع مال وصرف فيه ، ولا في منازعات الناس ومخاصماتهم وظلمهم ، بل المعلوم مني ضد ذلك كله والتجافي عن كثير من حقوقي . وأما حالتي في مطعمي ومشربي وملبوسي فقد يعلم من يكثر مشاهدة ذلك مني اني لم أتعد الى طرف الافراط ، وكذلك في سائر احوالي مما يشاهده هذا من متنبس أو مركوب أو خادم أو جارية . فاما محبتي للعلم وحرصي عليه واجتهادي فيه فمعلوم ضد من صحبني وشاهد ذلك مني ، اني لم أزل منذ حداثتي ، والى وقتي هذا ، مكباً عليه حتى أني متى اتفق لي كتاب لم اقرأه ، او رجل لم ألقه لم التفت الى شغل بتة — ولو كان في ذلك علي عظيم ضرر — دون أن آتي على الكتاب وأعرف ما عند الرجل . وإنهُ بلغ من صبري واجتهادي اني كتبت بمثل خط التعاويذ في علم واحد اكثر من عشرين الف ورقة . وبقيت في عمل الجامع الكبير خمس عشرة سنة أعمل الليل والنهار حتى ضعف بصري وحدث عليّ فسخ في عضل يدي يمنعاني في وقتي هذا من القراءة والكتابة ، وأنا على حالي لا أدعهما بمقدار جهدي ، وأستعين دائماً بمن يقرأ ويكتب لي »

سير الزمان

الدين والنهضة

الاخلاقية الحديثة

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

العقوبات الدولية

الادبية والمالية والاقتصادية

المسيح والمرأة

الاخلاقية الحديثة

للدكتور شبلي الملحم شميل

﴿ التطور في العقائد والعادات ﴾ : ليس من شأن الاجتماعي اذا ذكر الاديان بصورة مجملة ان يحصر كلامه في الاديان كما نزلت على مؤسسيها لان الشعائر والعقائد والاعمال في الامة على كرّ الزمن قد لا تبقى على صيغتها الاصلية بل ربما ارتقت عن هذه الصيغة او انحطت بحسب العوامل والطوارىء وقلما كانت ثابتة من غير تعديل او تبديل. ويهمنا ان نقرر هنا ان قابلية التطور في العقائد وما يتبعها من العادات المتجذبة بجلباب التقديس قابلية عظمى حتى ان المتتبع ليرى انتقالاً يكاد يكون فجائيًّا من النقيض الى النقيض باسم العقيدة الواحدة نفسها ، وان « البدعة » التي تضطرب لها افئدة المؤمنين في الجيل الواحد قد تصبح قاعدة من قواعد الايمان في الجيل الآخر ولاسيما اذا قدّر لها رجل مبجل يفتي بان لها اصلاً في النصوص القديمة ، وقد لازم التعصب في المجتمع الازياء خصوصاً لباس الرأس واثار في البلدان الشرقية « حروباً » حامية الوطيس لا تزال لها بقية باقية ، وذكر لنا من تقدمنا ان تغيير الاحذية من القديمة الى الحديثة في عاصمة البلدان السورية احدث هياجاً عظيماً كاد ينتهي بفتنة حمراء ، وفي اوائل القرن الحاضر ضمني ورجلاً من كبار الاعيان في بيروت مجلس ذكر المجتمعون فيه حديث القنوى بلبس القبعة كما نقل لنا عن لسان الشيخ (محمد عبده) يومئذٍ فارتعش واضطرب وامتقع لونه واظهر من النفرة ما يظهره الترك الكماليون اليوم من رؤية الطربوش على رأس السوري او المصري او العراقي !

ولا يقتصر هذا التطور على الشؤون التي اصبحنا نعدها ثانوية لا يؤبه لها بعد مرور الزمن عليها ، بل يتناول الشؤون التي نعدها اولية ، ولا ادل على ذلك في موضوع العقيدة الدينية من تولد مذهب (التوحيد) في لب البلدان البروتستنتية وتمتعه بالحرية اللائقة به مع كل ما احدثهُ من التغيير في العقائد التي اعتبرتها الاجيال السالفة جزءًا لا يتجزأ من التعاليم المسيحية ، ورأينا في اميركا من اتباع هذا المذهب الجديد والمؤمنين به من لا يقلون شأناً عن زملائهم واخوانهم الموحدين السابقين امثال (لونجفلو) و (امرسون) و(هوثورن) و (جفرسون) و(لينكون) من الاموات وغيرهم ممن زينوا اسم الولايات المتحدة واعلوا مقامها ، ويقوم مذهبهم فيما يقوم عليه من نقد العقائد المتوارثة المعتمدة على وحدانية الخالق وحدانية منزهة وانكار التثليث ، وعلى اخوة البشر وان النجاة تكون بالاعمال لا بمجرد الايمان فقط وان الارتقاء البشري سنة ثابتة الى الابد

ونرى في الشرق تحت اعيننا تبدلاً اساسيًّا في وضع من الاوضاع المقدسة مثّل اخطر الادوار في حياتنا الاجتماعية وهذا الوضع هو الحجاب ، فالذين يتمسكون به يقولون في شأنهِ مقالاة تجعله في

مصاف الاركان الجوهرية التي بني عليها الاسلام وقد لا يقل في نظرهم عن اقدس المقدسات ، واما اهل السفور فلم يخلعوا الحجاب فقط بل يدعون اليه علناً بقولهم انهُ مخالف للحياة الاسلامية الاولى مخالفة بدهية ! وكيفما كان الحال فرور المرأة المسلمة اليوم سافرةً في اهم شارع من شوارع القاهرة وعلى رأسها القبعة لا يستوقف نظر احدٍ ، ولو اقدمت على مثل هذا العمل قبل خمسين او ستين سنة مثلاً ما قارب السلامة . والذين يقرأون كتاب (تحرير المرأة) في ايامنا هذه لا يشعرون بشيء من الهزة العنيفة التي احدثها يوم ظهوره ، ذلك لانهم رأوا باعينهم من الافراط في العرى ما جعلهم يترحمون على اعتدال قاسم بك امين والسفور الذي دعى اليه

وفي النازية الالمانية اليوم نزعة اجمعت الكنيسة المحافظة على وسمها بالزندقة والوثنية وغير ذلك من الفاظ الاستنكار ، ولكن عالماً خبيراً بالنشوء الاجتماعي قال لي ، من يدري ما عسى ان يكون تاريخها في المستقبل ؟ وقد يكتب لها ان تنتشر من المانيا الى سائر العالم المسيحي كما انتشر مذهب (لوثر) في القرون الماضية ، ولكن من المحقق ان الصهيونيين واقفون اليوم في صف المدافعين عن قواعد الايمان الكتسي وهم اشد حرصاً على مقاومة (هتلر) « وبدعه » من رعاة الكنيسة الانجيلية نفسها

﴿ السخافات الباقية من العقائد الخالية ﴾ : من اعجب الظواهر الاجتماعية ان يبلغ البشر هذا المقام الرفيع في الارتقاء العقلي وتبقى بعض العقائد والشعائر الابتدائية السخيفة ملازمة له . واذا كان لها في احد الايام الغابرة ما يجوزها فليس لها في يوم الاستنارة العقلية مسوّغ ما . والعجب من ذلك ان يدأب بعض « المؤمنين » على التمسك بها وممارستها على رغم جميع المناهضات والمقاومات التي يبديها العقلاء الذين هم اقرب الى فهم الدين والاحاطة بروحه ونصوصه . وقد اثر اشد الاثر في استدامتها وتعلق الناس باهدابها ان بعض كبار الاخصائيين من اهل العلوم والفنون العملية الحسية وائمة الصناعات ممن لم يسبق لهم اي اشتراك في شيء من العلوم الاجتماعية والتاريخية والدينية ما برحوا يحفلون بها ويطأطئون رؤوسهم اجلالاً لها وتعظيماً ، فتراهم وهم أئمة مبرزون في فروعهم كالاطفال في هذه العلوم . فلا غرو ان يكون لهم من نبوغهم في المنطقة التي اختصوا بها صوت مسموع لدى العامة في منطقة لما تطأها اقدامهم ، ورأي مطاع في شأن لما يكن من شؤونهم ، لان العامة وياللاسف يظنون ان من اتقن شيئاً فقد اتقن كل شيء ، او من صنع آلة ميكانيكية حافلة بالحيل الدقيقة مثلاً او اخترع دواء ناجعاً لمرض عضال حار فيه الاطباء فان عمله مستند من منبع عميق لاطاقة للبشر ان يغترفوا منهُ ، فرأيه في السياسة او في الاجتماع او في الدين يجب ان يكون حجة يقارع بها الخصوم . وقد طرأ هذا التحول السريع بتقدم العلوم الحسية وتمتع اصحابها بالمقام الرفيع في المجتمع ، وكان هذا المقام عادة وقفاً على المشتغلين بالشؤون العقلية والروحية . وحضرت مرة مجلساً حاول فيه احد الذين يستغلّون اسماء الرجال الاخصائيين المشهورين في الفروع التي عانوها ان يبرهن على سخافة كان يؤمن بها امير الماء (نلسن) — وهي انهُ سيموت في يوم معين حققتهُ الايام — على صحة الهواجس

« الاثيرية » او الروحية التي تخامر النفوس ، وكذلك استعمل غيره اسم (باستور) لتأييد بعض الشعائر والعقائد البالية ، واني افهم كل الفهم ان يكون كلام (تلسن) حجة في القيادة البحرية وكلام (باستور) حجة في الجراثيم ولكني لا أفهم ابداً كيف يكون كلامهما حجة على صحة الهواجس النفسية والشعائر التقليدية ، ولا أقرب الى المعقول ان يستشار (توماس اديسون) في قواعد اللغة العربية ويهتدي برأي (رونتجن) في تاريخ حياة (توت عنخ امون) من ان يستشار (تلسن) او (باستور) في المشاعر الوجدانية والعقائد الدينية . على ان البلية كانت اعظم والطامة أشد وأحكم لما كان المنتسبون الى العلوم المعنوية يدّعون السيطرة على العلوم المادية والتحكم في اصحابها ، فلهم مثلاً ان يحزوا رقبة العالم الفلكي الذي يجرؤ على القول بكروية الارض ودورانها !

على ان الذي سيبقى عثرةً في سبيل الاتباع بما حدثنا واقامة الدليل على ما بينا هو ان العلوم الاجتماعية اجمالاً ليست من الضبط والاحكام في المقام الذي تتمتع به العلوم الطبيعية فيجوز لكل مُرتار ان يدعي تلك المجال واما هذه فحجتها قريبة وحبل التدجيل فيها قصير

ثم ان العقبة الكأداء التي لمّا يعرف المجتمع كيف يتغلب عليها ويأمن الالتطام بها هي السلطة القاهرة التي تتمتع بها العادة المستحكمة ولا سيما متى كان لها اتصال بالحرمة والشرف واللياقة والمروءة والاباء وغير ذلك من معاني الاعتزاز والسمو، وقد تصبح مثل هذه العادة — على ما قد يكون فيها من الهمجية والفحش والظلم — مقياساً في الاخلاق وكمالاً في العقيدة . واني لأضرب على ذلك مثلاً من الاقوام التي تعيش عيشة ابتدائية فان اوضاعها البسيطة الخالية من تعقيد الحضارة قد ترشدنا الى فهم الاوضاع الحاضرة في ارقى الاوساط المدنية . قال الاستاذ « هوبكنس » [1] عن علاقة الدين والعادة بالاخلاق إن قانص رؤوس من جزيرة (بورنيو) نص القصة الآتية التي تدل على تحكم عادات السلف في الخلف وكيف ان الاخلاق انما هي السنة التي درج عليها الآباء والجدود والتي اكتسبوها للفائدة التي استفادتها العشيرة من تطبيقها والسير عليها . قال الصياد : كنت شديد التعلق بوريثتي العجوز ، وقد حان الزمن الذي قال لي والدي فيه : يا ولدي لقد كبرت وباشرت سن الرجولة فهلمّ واقتل قتيلاً » كما هي العادة في تلك الاصقاع لاثبات الرجولة . قال الصياد « وحكم الشرع عندنا ان النساء العجائز اللاّت لم يعدن يصلحن لشيء ان يذبحن . فدلني والدي على مربيتي العجوز وكانت جالسة لوحدها وقال لي ، انني صغير السن فلا استطيع ان اقتل رجلاً ولكن يجب ان اتمرن عليها فأعطاني قوسي وسهامي وقال لي هلمّ وارمها . اما انا فلم ارد قتلها ولكنه اصر عليّ وقال لا بدّ من ذلك فرميتها بسهم ولكن طاش فلم يصبها فأدركت هي الموضوع وأخذت في البكاء وانا اخذت في العويل فاغتاظ والدي وامرني ان اسكت عن عويلي واكفكف دمعي واضبط الهدف وذكر لي انه من الشر المعيب ألاّ اقتلها . حينئذٍ اخذت ارميها رمياً متواصلاً ومع انها انحنت فلم

(1) Origin & Evolution of Religion, P. 245

التفت الى عويلها وما زلت ارميها حتى قتلتها . وكانت عندي في مقام والدتي ولكنني لم ابال . ثم ان والدي قال لي يا ولدي الآن اصبحت رجلاً صالحاً وقد عملت عمل الرجال وقمت بالحق »

﴿ الاخلاق الايجابية ﴾ حدث عند الاجتماعيين المتأخرين تطور في الاتجاه الاخلاقي لا بدّ من الاشارة اليه هنا ، وهذا التطور هو الاهتمام بما يسمى «الاخلاق الايجابية» لا الاكتفاء «بالاخلاق السلبية » — يعني اننا كنا في الماضي نعد السكال في الرجل ان يمتنع فقط عن اتيان بعض الموبقات كالخمر والميسر والزنا وغير ذلك من المحرمات التي لا يشك احد في فضيلة الابتعاد عنها ، وان يسير في حياته سيرة المسكنة والخضوع «والدروشة » وكم رأينا في الحوانيت الابيات الآتية معلقة على الجدران وهي : —

اذا شئت ان تحيا سعيداً من الاذى وحظك موفور وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة امرىء فكلك عورات وللناس السن
وعينك ان ابدت اليك معائباً فصنها وقل يا عين للناس اعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى وفارق ولكن بالتي هي احسن

لم تعد مثل هذه الاخلاق — على ما فيها من صحر وانسانية — متياساً للنشاط الاجتماعي ، فهو يتطلب الجرأة والاقدام والعمل لا الانزواء في اقوليا ولا وضع اليدين على الرأس وترديد كلمة « يا لطيف » . والمسكنة وما يتعلق بها من زهد وانقياد وتمنية للحال تروق الامم المستعبدة التي لا ترى سبيلاً الى النجاة الاّ بالخضوع وعقد الآمال بظهور المهدي او عودة المسيح او يوم الحساب واما القاعدة الاجتماعية التي يرجى منها الخير العميم فهي الامر بالمعروف كما هي النهي عن المنكر وتلقين القواعد التي تبنى عليها الاستقامة كما هي النقد الصحيح لتقويم الاعوجاج وبث روح العدالة في الافراد كما هي الضرب على ايدي المعتدين حتى لا يتجرأوا على فساد المجتمع ، فترك الحبل على الغارب في مثل هذه الجرائم التي تجترم اجتثاث لاصل من الاصول الجوهرية في الحياة الاجتماعية والسماح عن المعتدي يكاد يجعل المتسامح شريكاً في ارتكاب الجرم ، بل لا بدّ من مقابلة الظلام وجهاً لوجه . وحدث في بعض الحركات الوطنية ان أُرسل احد الزعماء الى السجن فجاء اليه بعض الاطفال يحملون باقة من الازهار اظهاراً لاعجابهم به فقال لهم من وراء قضبان الحديد « آه لو وصلت اليكم لقبلت ايديكم الصغيرة ولأخبرتكم اني الى الحناجر احوج مني الى الازهار»

ويعالج اساطين النهضة الاخلاقية في اوربا هذا الموضوع معالجةً دقيقةً ، ومن المفيد جداً ان يطلع ابناء العالم العربي على طريقتهم وعلى الغرض الذي يتوخونه من ذكر الاخلاق الايجابية في مقابل الاخلاق السلبية ، ومن خيرة الكتّاب في هذا الباب من الاجتماعيين الاستاذ (بايندر) فيجدر بنا ان ننقل لهم خلاصة منه لنهي بها سلسلتنا هذه [1] فقد قال بعنوان « الاخلاق المسيحية القديمة والحديثة » ما مؤداه : ولما كانت النصرانية في الاصل دين المظلومين

(١) Major Social Problems, p 180.

والمحرومين فقد وقفت بالضرورة موقف الخصم تجاه القويّ المتعسف بالاقتدار . وفي الاحوال والظروف الحافلة بالمتاعب والمشاق يكون الاستسلام وترك المقاومة في كثير من المواقف خير سياسة تتبع ، ذلك لان الثورة محكوم عليها بالاخفاق ، والتفكير فيها خارج عن الموضوع . فلما اصبحت الكنيسة وضعاً في صميم الدولة اهمل اصحابها هذه الناحية من تعاليمها ، بيد ان هذا الطابع الاولي بقي ملازماً لها ولم ينمح اثره ، فكانت تُعدّل وتُوسّع بحيث تنطبق على جميع الناس بشكل تواضع وتذلل يتذلل المرء امام الله للذنوب التي ارتكبها . وربما كان هذا العمل ضرورة من الضرورات الملجئة في عصر ساد فيه العنف والشدة فكان من الواجب التوسل بالوسائل المرعبة لارهاب الاشرار كبيرهم وصغيرهم ، فكانت النتيجة ان الكنيسة اهتمت بالضعف والذل والمسكنة والعجز واعتبرت هذه الصفات السلبية وامثالها مطلوبة في المرء مرغوباً فيها وانها في كثير من الاحوال عنصر جوهري في السيرة المسيحية . قال (بايندر) ومع ما يجوز لهذه الشيم الكمالية من قيمة مقدرة فهي شيم لا تؤدي الى التقدم في الحياة الاّ بطريقة سلبية يعني انها تمنع الاحتكاك الاجتماعي ولكنها لا تؤدي الى تحسين الاحوال والظروف ، مع ان هذا التحسين هو الغاية المنشودة التي ينادي العالم في طلبها ويستغيث للحصول عليها

وتحسين الاحوال كما نعلم يتطلب البداءة والتشبث والهجوم والمخاطرة وغير ذلك من معاني الاقدام لا الاستسلام والخضوع . وقد غرس صدر النصرانية هذا الخلق السلبي في المؤمنين في جميع القرون ، وحيثما ابيح انحراف من هذه الخطة فالنتيجة كانت هلاكاً كما هو الحال في الفرسان الهيكليين وهم فرقة (الداوية) The Templars في ابّان الحروب الصليبية والمؤسسات الاخرى التي انتظمت انتظامهم فان القوى اضمحلت عندهم وتغلبت عليهم الصفات العسكرية الهجومية

اما في الاعصر الحاضرة فالنتيجة مختلفة عن ذلك اختلافاً بيناً ، فاذا كان ثمت كثيرون لا يزالون يؤمنون بالدين فهم قد اغفلوا شأن الفضائل السلبية التي كانت تعد جوهرية في الاعصر السالفة ، وربّوا ما عندهم من تشبث وبداءة واقدام وطلبوا مشاكل الحياة واجبروا الطبيعة بقوة ارادتهم على التسليم بالكنوز المدفونة فيها ، فكانت النتيجة من الناحية الاجتماعية شيئاً طريفاً خليقاً باسترعاء الاسماع والانظار

﴿ عواقب الاخلاق الجديدة ﴾ قال (بايندر) : لقد صرف المجددون الهمم لاصلاح الدين بان نفثوا فيه روحاً هجومية وطالبوا الناس بمعاملة نشيطة في الحياة السياسية والصناعية الحاضرة ، وحيثما تمّ شيء من النجاح في هذا الباب حمل المتمسكون بالطريقة الدينية على ما استجد حملة شعواء قائلين انها شرود عن النصرانية الصحيحة ان لم تكن مروقاً وضلالاً ، وكانت الكتب التي تقول بمثل هذه الاصلاحات الجوهرية موضوع اضطهادهم وحرمانهم

وكان من النتائج الاخرى ان انسلّ عدد كبير من الرجال من عضوية الكنيسة ممن لم يطيقوا البقاء على الخمول والتقاعس ، فقد ودّوا ان يعملوا شيئاً خليقاً بنشاطهم ولكنهم اجبروا ان تصدقوا

وعودوا المرضى ، وقد ترضى مثل هذه الطريقة الرجل الذي تقوم افكاره على الطريقة الجامدة ويعتقد بان الله راضٍ ان ينظم الشؤون على طريقة تحتفظ بالمرضى والفقراء دائماً . اما الرجل الحديث وطريقته في التفكير متحركة لا جامدة وعقيدته الثابتة التحسن المنتظر في الاشياء فيتساءل في نفسه لِمَ يأتى يوجد بين ظهرانينا هؤلاء المساكين الذين هم في حاجة مستمرة الى مساعدتنا ؟ ومن المحقق عنده ان الخطأ لن يكون من الجانب الالهي ، اذن فهو من الجانب البشري ، من جانب المجتمع او من جانب الفرد ؛ فلا بد من عمل شيء لاصلاحه يعني يجب ان تلقى على الجاهل دروساً في الصحة والغذاء وان تنبه الجماعة الى التهيؤ والاستعداد اللازم للتفتيش الطبي والنظام الصحي ، اذ لا ضرورة ملجئة تقضي بان يكون ثمة مرضى او فقراء فتى اقيم نظام في التوزيع عادل فاهل الاسراف وفاقدو الحيلة وقليلو التدبير فقط يكونون وحدهم من الفقراء ، والواجب يقضي بان يلقنوا ضرورة العمل حتى اذا ما رفضوا السعي في مناكب الارض سيقوا الى المعاهد الخاصة حيث يعزلون عن الناس وتعطى لهم الادوية الناجعة

وكذلك من النتائج التي نتجت السعي لاستدرار الاكف من اتباع الكنيسة العاملين والحصول منهم على الهبات العظيمة لكل عمل يخطر بالبال ، ، فالذين يدافعون عن النظريات الدينية العتيقة يزعمون ان الرجل المتنازل عن جزء من ثروته لغاية خيرية هو رجل يعمل لخدمة الانسانية ، ولكنهم لا يدركون ان الهبات السمحة هي سبب عظيم في استمرار الشرور الاجتماعية الحاضرة . وقد يكون المرء حريصاً على التبرع بعشر ثروته على شرط ان ينال اذناً ربانيًّا يحلل له امتلاك الاعشار التسعة الباقية والتصرف فيها ، فلا عجب والحالة هذه ان يكثر التحدث كتابة وخطابة عن الصلاح في الهبات العظيمة وان يعير كثير من الناس صالحين بهذا المعنى

وما دامت الكنائس متعلقة بالنظرية الدينية العتيقة وهي من الاساس نظرية سلبية فلا امل باتخاذ الاجراآت الاصلاحية الجوهرية . لان هذه الكنائس متى تحولت الى ايجابية هجومية ووعظت عن الظلم الصناعي وما اشبهه من الشرور باهتمام خسرت تأييد الرجال الذين هم هدف سهامها وحملاتها ومعنى ذلك بالقلم العريض خسارة فادحة في الموارد التي تعيش منها واغلاق الكثير من المباني الكنسية . والناس قد تعودوا ان ينظروا الى السلبية انها النصرانية فهم يأنفون هذا الاتجاه الجديد الذي لم يألفوه

﴿ الدين ودستور السبب والمسبب ﴾ : وربما كان اصعب شيء على المرء تعلمه هو ادراك دستور السبب والمسبب ادراكاً عمليًّا . فهذا الدستور معترف به عند جميع الناس من الناحية النظرية فقط لا من الناحية العملية ، وكان من الجائز تطبيقه تطبيقاً شاملاً اعم لولا الموقف الرسمي الذي تقفه العقيدة الدينية بحيث تجد المخرج من ورطته دائماً والحل من مفعوله الثابت . واغرب منظر في جميع التاريخ مُحيِّر هو الخطط التي اختطها الناس لتجنب مفعول هذا الدستور والابتعاد عن منطقة عمله ، واهم ما يدعو الى الاطمئنان وتوقع التحسن في المستقبل هو ان الناس تعلموا — على اقل

تقدير — ان جزاء الوزر الذي يزره المرء لا يمكن تجنبه ولا تحميله على عاتق الآخرين ممن لم يرتكبوه (ولا وزر ولزرة وزر اخرى) ؛ فدستور تحسين النسل مثلاً انما يعني هذا في دائرة التوالد لا اقل ولا اكثر — يعني ان القذارة الاجتماعية تنتهي بالوراثة الفاسدة حتماً وسريعاً ولا مخرج من هذه الورطة ولا حيلة من مفعولها الثابت لا بالاوهام ولا بالخرافات . وكذلك دستور الاجور الناقصة او الرخيصة فهو يجري على هذا النمط — يعني ان محصولها يكون اضعف نوعاً واحط مقداراً من الاجور الوافية ، فالسبب والمسبب متصلان لا يحول بينهما حائل ، وربما كان اهتمام الناس بحوانيت النسج القذرة التي يقيم بها العمال المرهقون للعرض الملتصق بالملابس المصنوعة فيها والخوف من هدوله اضعاف ما تحدثه فيهم تلك المجادلات العقيمة حول اخوة البشر وابوة العزة الالهية

﴿ حاجتنا الى التغيير ﴾ : قال (بايندر) ويتوقف الاثر الاجتماعي الذي يتركه الدين الرسمي في المستقبل على قبوله دستور السبب والمسبب ، فاذا ما اغفل الدين هذا الدستور طرد العناصر المفكرة من حظيرة الكنيسة وتنفيرها من الاشتراك في اعمالها ، كما دلت الحوادث في السنين الاخيرة

ومعظم الخلق هم في حاجة الى الدين وذلك لضعفهم ووهنهم ، واحدى غاياته المعروفة ان يزرع في قلوبهم القوة وفي نفوسهم السعادة ولن يتم ذلك بتعليمهم ان يحملوا تبعة ذنوبهم ونقائصهم على اعناق الآخرين . والطريقة المثلى للاعتبار والدرس الحكيم هي ان يتحمل الفرد وزر عمله . وهذا ينطبق على الفرد كما ينطبق على الجماعة . وتكون المحنة المغربة بارتكاب الشر المرة تلو المرة عظيمة فوق طاقة معظم الناس اذا ما قيل لهم ان هناك طريقة من الطرق لنجاتهم ورفع التبعة عن اعناقهم . وان بعض الناس لا يتعلمون حتى من الاختبار ولا يتعظون حتى من المعيشة فلا شيء يعمل لهم سوى تركهم في مراجل الالم : هذا هو دستور الطبيعة وهو دستور الروح . وما من رجل يختبر فيبلغ في الاخلاق المقام المحمود الا بالسعي وصرف الجهد فعلينا « ان نفشد السلامة بالخوف والرعشة » ويريدنا الله ان نتعاون معه على رفع المجتمع الى مستوى اعلى مما هو فيه ولن يتم ذلك الا اذا عرفنا واجبنا وساهمنا في تحمل التبعة

اما الاصرار على ضعفنا وذلنا ولفت الانظار الى شرنا ووهننا فيجعلنا دون العمل الواجب علينا انجازه واقل اهلية للقيام به ، لاننا نحن في الاكثر كما نحن بما يقال لنا ، والاشادة بقابليتنا للعمل ، تساعدنا على انماء هذه القابلية فينا لان « من كان عنده فيعطى » واما من كان خلواً فلا حق له وليس هذا دستوراً كيفيًّا بل هو سنة كلّ ارتقاء . والنظر الصحيح الصائب في الالوهية هي انها عامل يعمل دائماً وابداً بنشاط مستمر لترقيتنا ورفعتنا ، ولا نستطيع ان نضع في ميزان التقدير والاعتبار من شأن الجهود التي تصرفها هذه القوة المعنوية من اجلنا الا على قدر ما نتمثله منها بجهودنا ومساعينا وماعدا ذلك فكلام هراء وثرثرة لا طائل تحتها . ولا ندري اننا عباد الله ما لم نقم بالعمل الذي اختصنا به ، والمسألة كلها هي مسألة ممارسة عملية واختبار ذاتي لا مسألة نظر وعقيدة

ويدلنا الاختبار في اعمالنا على دستور السبب والمسبب في جميع نواحي الحياة بل هو حقيقة الحياة نفسها والحقيقة وحدها هي التي تحررنا من رق العبودية . انتهى

﴿ منطقة الدين ﴾ : لا شيء أضرّ بالدين مثل اخراجه عن حدوده والسير به في فيافٍ وقفار قاحلة لم تكن لهُ موطناً ولا لرحاله محطًّا ، وقد يضيع فيها كما تضيع الصرخة في الوادي ، وليس من تمام الاخلاص في شيء اننا اذا أحببنا زيداً من الناس مثلاً ان نقول انهُ مهندس وطبيب ومزارع ومحامٍ ورياضي وفلكي وجيولوجي وجغرافي وكيماوي وغير ذلك من النعوت الفنية وغير الفنية في آنٍ واحد علاوة على ما يتحلى بهِ من سمو الاخلاق، فلمَ يا ترى نجوز لانفسنا ان نكون اكثر كرماً وتسامحاً في مسائل الدين ؟ وفي الاسلام نصٌّ صريح لمؤزري النحل ان يؤيروه كما دلهم الاختبار لانهم أعلم بدنياهم، ولان مثل هذه الفنون العملية ليست من الدين في شيء فلمَ نحاول حشرها وحشر غيرها فيهِ يا ترى ؟

ولم تخلُ اوربا نفسها من الافراط والغلوّ في توسيع منطقة الدين مما حمل كثيراً من الكتّاب الغربيين على التفريط ورد الفعل، يدلنا على ذلك ان كاتباً اجتماعيًّا معتدلاً كالاستاذ (ديلي) يدرّس كتابه في بعض الجامعات الدينية والمعاهد الاخلاقية يقول في هذا الصدد [1] « ان ما اشتهر بهِ الوضع الديني من البقاء والاستمرار تاريخيًّا على رغم الحوادث يتجلى لنا متى نظرنا بعين الاعتبار الى المصالح المتعددة التي شملها ، فهو باعتبارهِ فلسفةً قد استحدث لنفسهِ نظرية كونية طالما فرضها بيان وحدة جميع الاشياء في آلهٍ واحد او آلهة متعددين ثم خلقوا الكائنات وادارو امورها وزرعوا فيها الحياة وارشدوها لبلوغ غاية معينة ، وباعتبارهِ علماً قال انهُ بواسطة الوحي قد حصل على الدساتير الجوهرية التي تسيطر على المعارف ، حتى انهُ طالب الناس في بعض الايام ان يطبقوا العلم على هذا الوحي الذي أتى بهِ ، واستنّ في الاخلاق سنناً ليسيروا عليها قائلاً انهُ بعملهِ هذا انما يعمل بسلطة الهية ، وأبدى حقهُ ايضاً في املاء القواعد العملية في الشؤون الاقتصادية والمنزلية والسياسية والتهذيبية وان لهُ ان يدير الطرائق التي تجري عليها . وبديهي ان مثل هذه الدعاوى العظيمة والسلطات الجسيمة لا تسلم بها العوامل الاخرى في المجتمع دائماً » ، ذلك لان الفلسفة والعلم يدافعان عن حقهما في اذاعة النتائج التي وصلا اليها حتى لو كانت هذه النتائج مناقضة للاصول اللاهوتية، وكذلك علم الاخلاق الاجتماعي فقد اخذ يطبع الكنيسة بطابعهِ فيما يتناول السيرة الاجتماعية ، ولم تعد الاصول التهذيبية التعليمية ترضى الخضوع للقواعد الايمانية ، وترى الكنيسة والحكومة تفترقان والقانون المدني يدير الاسرة، واما الحركة الاقتصادية فهي كثيرة التشعب وشديدة التعقد بحيث لا تستطيع الكنيسة التسلط عليها . فالكنيسة مضطرة في مثل هذه الاحوال الملجئة اما ان تصبح مناقضة للعصر الذي تعيش فيهِ متأخرة عنهُ واما ان تعمل لغاية في النفس أسمى وأرفع بعيدةً عن الصغائر والتحليات المملة صاعية للقيام بالواجب مرةً ثانية باعتبارها هداية مُنزّلة تهدي المشاعر الكمالية العليا التي تعلي في صدر الانسان »

(1) Sociology, p. 143.

ولما حمل (برنارد شو) على «الكتاب المقدس» حمل على ما يدعيه اصحابه فيه من الدعاوي الطويلة العريضة الفنية وغير الفنية الخارجة عن منطقة الدين كما اسلفنا ولكنه قال وهو محق في قوله[1] « ان هذا الكتاب وان عُدّ بالمقاييس العلمية مهجوراً من سائر النواحي الا انه من ناحية واحدة يحتفظ بقيمته وذلك باعتباره سجلا لنشوء الفكرة الالهية» — فكرة اول سعي سماء الانسان المتمدن لتعليل مصدر الكائنات والحكمة من وجودها

. وفي الحق ان هذه الفكرة هي مركز الثقل في جميع الثقافة التي مرّت عليها العصور وعليها يرتكز الدين في جهاده المتواصل الثابت وهي هي التي جعلت هذا البون الشاسع بين الانسان والحيوان، والفرد بالغاً ما بلغ من العلوم المادية واوسع ما لحاظ من سننها ودساتيرها لا يكون قد ازداد بالموهبة الانسانية الجوهرية اذا هو لم يتأمل في نفسه من اين اتى والى اين ذاهب ، وسيبقى هذا السؤال عاملاً من اقوى العوامل في الحث على التتبع والتدقيق وكشف المخبآت، وربما رجع اليه الفضل الاكبر من الناحية التاريخية في ايجاد العلوم واستحداث الفنون وتوجيه الانظار الى الحكمة . ويعلو الدين او ينحط بقدر التنزيه الذي تتحلى به تعاليمه . وما دام هذا السؤال موضوع الدين الاساسي فالدين طود ثابت ما زعزعته في الماضي الثورة الفرنسية ولا تزعزعه في الحاضر الثورة الكمالية ، وانما الخطر عليه كل الخطر هو الخروج به عن المنطقة التي خلق ليعمل فيها ، واستئثار النصيين والجهلاء الاحتكاريين للنفوذ الذي يتمتع به . ثم اذا صدر مثل هذا السؤال عن قلب يلتهب شوقاً الى ادراك كنه الحقيقة والاحاطة بأسرارها فهو يدل على ان نفس صاحبه ليست حيوانية بهيمية بل هي نفس تزدان بالاخلاق والاخلاص ايضاً وهذا ما يجدّ الاجتماعيون ليجعلوه من جوهر الدين ، ونحن لا ننكر ابداً ان اهل التتبع يميلون اليوم الى الفصل بين الاخلاق والدين من الوجهة العلمية ولكن العمليين من الاجتماعيين يستعينون بالدين لتقويم الاخلاق ، ذلك لان الاتصال بينهما اتصال وثيق ، وجميع الاديان الراقية الكبرى طافحة بالحث على مكارم الاخلاق ، والدين الذي لا يجعل الاخلاق الصحيحة غرضاً من اغراضه الجوهرية لا يهم الجمعية البشرية الاحتفاظ به

ودلنا تاريخ الاديان الراقية على ان الالوهية تجلت في النفوس من الناحية العقلية حكمة واستقصاء ، ومن الناحية الفنية جلالاً وجمالاً ، ومن الناحية الروحية طهارة واخلاقاً، فلا غرو ان يكون لها هذا السلطان الباهر وهذه القوة الساحرة، ولا يزال الانقياء في كل عصر ومصر يشاطرون الكاهنة (بيثيا) لما قالت في مكهن (دلفي) في بلاد اليونان منذ عشرات القرون « ايها الغريب اذا كنت طاهر النفس فادخل معبد الله القدوس مكتفياً بلمس ماء التطهير ، فالتطهير سهل على الصالحين ولكن البحر المحيط جميعه بأسْهاره عاجز عن غسل الادران من الرجل الشرير»

(1) The Adventure of the Black Girl in her Search for God, p. 69.

العقوبات الدولية

الادبية والمالية والاقتصادية

العقوبة اسم يطلقهُ رجال القانون ، على الذرائع التي يتذرّع بها لقسر الناس والدول على الخضوع للقانون . وقد تفرغ في احد قالبين ، اولهما توقيع الجزاء على من انتهك حرمة القانون ، وثانيهما وسائل غرضها منع انتهاك مرتقب . ولتأثيرها وجهان ، احدهما سلبيٌّ ، ذلك ان معرفة الآثم او المعتدي ، ان النية معقودة على تطبيق العقوبات عليهِ ، وان تطبيقها مستطاع ، تردعهُ عن الاقدام على ما ينوي ، والآخر ايجابيٌّ ، وهو قائم على منع المعتدي من العادي في اعتدائهِ ، وحرمانه من ثمرات الاعتداء ، وحمله على الخضوع للقانون

اما كيف نشأ نظام العقوبات في القانون الدولي ، فبحث فقهيٌّ لا يتسع له نطاق هذا المقال ، فنكتفي بالقول بان انشاء جامعة الامم بعيد الحرب الكبرى ، قام على قاعدتين ، احداهما احترام ما يعرف بالقانون الدولي ، المستمدّ من المعاهدات والاتفاقات الدولية وما قرّرتهُ المؤتمرات المختلفة في هذا الصدد ، والاخرى الاتفاق على فض كل نزاع دولي بالوسائل السلمية ، اما باتفاق الفريقين المختلفين واما بالتحكيم واما بعرض المشكلة على محكمة العدل الدولية

هذه القواعد مطوية في عهد جامعة الامم . ولكن عهد الجامعة لم يكتف بتقريرها ، بل نصّ في موادّهِ المختلفة على السبل ، التي يجب ان تطرق ، فضّاً للنزاع بالوسائل السلمية ومنعاً للحرب . ففض النزاع بالوسائل السلمية منصوص عليهِ في المواد ١١ و١٢ و١٣ و١٤ و١٥ . ووسائل الاحتياط التي يجب ان تتخذ عند التهديد بنشوب حرب منصوص عليها في المادتين ١٠ و١١ . وفرض العقوبات على معتدٍ مرتقب او معتدٍ فعّال منصوص عليها في المواد ١٠ و١١ و١٣ و١٥ و١٦ و١٧ . اما اعادة النظر في المعاهدات القائمة ، التي اصبح تطبيقها متعذّراً او مهدداً للسلام لتغيّر الاحوال فمنصوص عليها في المادة ١٩ . وهذه المواد متماسكة البنيان ، يشدّ بعضها بعضاً ، ولا يمكن ان ينظر فيها منفصلة بعضها عن بعض

العقوبات الادبية الدبلوماسية

الرأي العام في مختلف الامم ، وبوجهٍ خاص في البلدان الديمقراطية ، رادع قوي الاثر عن الاعتداء . وليس ادلّ على ذلك من ان الحكومات التي اشتركت في الحرب الكبرى ، حاولت كلٌّ منها ، ان تقنع شعبها بانها خاضت غمار الحرب مكرهةً ، دفعاً لاعتداء واقع عليها . فالنجاح في حرب ما من دون تأييد الرأي العام ، امر متعذّر

والرأي العام الدولي ، قد يعرب عن استنكارهِ لخطة دولة من الدول ، بأساليب مختلفة ، بامتناع

السيّاح عن زيارة تلك البلاد واعلامها ، وباجتناب الناس شراء ما تصنعهُ وتصدرهُ الى الخارج ، او بكتابة المقالات في الصحف ، او بالاحتجاج عن طريق الممثلين الدبلوماسيين

فهذه الوسائل ، منفردة ومجتمعة ، تضعف الثقة في مالية البلاد ، علاوة على ما تتأثر بهِ تجارتها بمقاطعة بضائعها . لانهُ اذا رميت دولة ما بالشكّ ، وجامت حول استقامتها في احترام عهودها الظنون ، ضعفت الثقة كذلك بتعهداتها المالية العامة ، فتعجز في الغالب عن فتح الاعتمادات الدولية او عقد القروض الدولية التي لا ندحة عنها في هذا العالم الذي تربطهُ بعضهُ ببعض اسلاك خفية من المال او ما يقوم مقامهُ

الاّ ان حكومة من هذا القبيل تملك سلاحاً في الغالب ، يمكنها من ان تخفف وقع هذه الوسائل الادبية . وهذا السلاح هو السيطرة على الرأي العام في بلادها او توجيههِ في الوجهة التي تبغي ، بكمّ المعارضين وسدّ افواه النقدة . والحكومة العازمة على الاعتداء ، والمؤيدة من شعبها اما عن عقيدة واما عن سيطرة ، قد لا تعبأ في الغالب بالرأي العام الدولي الى حدٍّ ما

واذاً فالعقوبات الادبية لا تتعدّى حدّاً معيّناً في تأثيرها ، اي في مقدرتها على ردع المعتدي عن الاعتداء . ولا يخفى ان صلات الامم بعضها ببعض ، تتم في ابان السلم بواسطة الممثلين الدبلوماسيين . ولكن الاحتجاج الدبلوماسي لا يعدو كونهُ كلاماً مفرغاً في قالب الاحتجاج او التحذير او الانذار

فابسط شكل تتخذهُ العقوبات الدبلوماسية هو اعتراض او احتجاج دولة ما على عمل دولة اخرى . ومكانة هذا الاحتجاج ، تختلف باختلاف الدولة المحتجة ، وقوتها ومكانتها في مجامع الامم ومدى اعتماد الاولى على الثانية . فاحتجاج الدول الكبرى اوقع في الغالب من احتجاج الدول الصغيرة ويستفحل وقعهُ اذا كان اعراباً حقيقيّاً عن شعور الامة التي يرفع باسمها

ان قيمة احتجاج من هذا القبيل ، لا تقوم في المقام الاول ، على استنكار الدول الاجنبية لعمل الدول المعتدية ، بل على توجيه نظر الشعوب الى عمل الاعتداء المستنكر والخطر الذي ينطوي عليهِ . ثم هو يُعنّي الرأي العام في الدولة المحتجّة ، بل وفي غيرها ، باخراج المشكلة وحقائقها من مطاوي المفاوضات الدبلوماسية ، الى وضح المناقشات العلنية في الصحف وعلى المنابر . وفي هذه الناحية يكون الاحتجاج معيناً على الحيلولة دون عمل الاعتداء قبل ان تنظّم المقاومة الدولية المشتركة لمنعهِ . وغني عن البيان ان قيمة الاحتجاج الدبلوماسي تزداد اذا جاء من غير دولة واحدة بالغة تلك الدولة من المكانة والقوة ما بلغت . فاذا سنحت الفرصة لاحتجاج من هذا القبيل ، تبعت الدول المختلفة باحتجاجات متماثلة في معناها ، متقاربة في صيغها . وهذه الطريقة قد تفضل طريقة وضع احتجاج واحد من قبل دول مختلفة ، لما يقتضيه وضع صيغة احتجاج من هذا القبيل من المناقشة الطويلة قبل الاتفاق عليها . الاّ انهُ متى وضعت صيغة مشتركة لاحتجاج دولي ، يزيد شأنها في نظر الدولة المعتدية ، لدلالتها على اتفاق الدول المحتجّة

ولكن العقوبات الدبلوماسية ، لها اساليب اخرى للاعراب عن استنكار الدول لاعتداء دولة ما عدا الاحتجاج او التحذير شفاهاً او كتابةً . واحد هذه الاساليب ، سحب السفير او الوزير المفوّض من عاصمة الدولة المعتدية . وابقاء العمل الدبلوماسي في تلك العاصمة في يد قائم بأعمال السفارة او المفوضية . فعمل من هذا القبيل ، من شأنه ان يؤكد احتجاجاً قدّم كتابة او شفاهاً واهمل . ولكنهُ في الوقت نفسهِ ، يعترض عليهِ ، بانهُ في الازمات الدقيقة ، تحتاج كل دولة ، الى سفير او وزير مجرّب ، للقيام بمفاوضات دقيقة كل الدقة في الغالب

وهذا الاعتراض نفسهُ ينطبق على قطع الصلات الدبلوماسية بسحب السفير او الوزير ورجال السفارة او المفوضية جميعاً من عاصمة الدولة المعتدية . فعندئذٍ يتعين على الصلات بين الدولتين ، ان تستأنف عن طريق ممثل دولة ثالثة ، او عن طريق احد القناصل ، وفي كلتا الحالتين ، لا يتم الاتصال بين الدولتين ، في شؤون حيوية ، على احسن ما يرام

فأساليب العقوبات الدبلوماسية التي تقدم ذكرها ، لا تعدو كونها اعراباً عن استنكار ادبي لعمل الدولة المعتدية . وقد تستعمل الطرق الدبلوماسية ، للاعراب عن تحذير او انذار ، ولكن قيمة التحذير او الانذار يتوقف اولاً واخيراً على استعداد الدولة المحذّرة او المنذرة لتأييد تحذيرها او انذارها بالقوة . وهذه الناحية من العقوبات الدبلوماسية ذات صلة وثيقة بالعقوبات الحربية . وهي خارجة عن موضوعنا الآن

العقوبات المالية

الفرق بين العقوبات المالية والاقتصادية ، فرق دقيق ، ولذلك جاء ذكر العقوبات المالية منفصلاً عن ذكر العقوبات الاقتصادية في المادة السادسة عشرة من عهد الجامعة

تحتاج الحكومات في هذا العصر ، الى نقد اجنبي ، او الى اعتمادات مالية أجنبية ، لشراء ما تحتاج اليه من العروض في الخارج . فالعقوبات المالية لا تؤثر تأثيراً كبيراً الاّ في دولة تعتمد الى مدى بعيد على ما تستورده ، وبوجه خاص من المواد الخام لصناعة ، والمواد اللازمة للحرب كالذخيرة والاسلحة على اختلافها ، او مواد الغذاء . ولعلّ ابلغ مثل على هذا ، حاجة بريطانيا الى استيراد مواد الغذاء ، وحاجة ايطاليا الى المعادن والوقود

فالعقوبات المالية ليست ببعيدة الاثر في ردع الدولة المعتدية اذا اعتمد عليها وحدها ، ولكنها تمتاز في سهولة تطبيقها وسرعته

فالمشكلة التي تتناولها الدول حين تعرض لتطبيق هذا الضرب من العقوبات ، هي الحيلولة دون تمكين الدولة المعتدية من الحصول على المال اللازم لابتياع ما تريده من اسواق العالم

فمن الوسائل التي تعمد اليها الدول حين تحتاج الى مال تنفقه في الاسواق الاجنبية ان تطلب

الى جميع مواطنيها الذين يملكون سندات اجنبية في الخارج ان يضعوا هذه السندات تحت تصرفها فتبيعها او تعقد قروضاً بضمانتها، وتنفق المال الذي يجمع من هذه الناحية في شراء ما تحتاج اليه. وقد سبق لبريطانيا ان عمدت الى هذه الوسيلة خلال الحرب الكبرى، لما طلبت الى البريطانيين الذين يملكون سندات اميركية ان يحولوها الى حكومتهم لتمكينها من شراء الاسلحة والذخيرة اللازمة لها ولحلفائها لمواصلة الحرب.

فالعقوبات المالية ترمي، الى منع تحويل من هذا القبيل

ثم انها تحظر عقد قروض مالية للدولة المعتدية

الا ان الافتراض السري من اصعب ما تتعرض له الدول في فرض العقوبات المالية. فقد تتفق الدولة المعاقبة مع دولة اخرى، غير مشتركة في العقوبات، ان تعقد قرضاً باسمها الخاص في سوق بريطانيا المالية، او في سوق اميركا المالية، فاذا عقدت هذا القرض استطاعت الدولة المقترضة ان تحوله بغير طريقة واحدة الى الدولة المعاقبة. ولولا النص على تطبيق العقوبات الاقتصادية جنباً الى جنب مع العقوبات المالية، لتعذر على الدول المتفقة على توقيع العقوبات المالية، ان تمنع الدولة المعاقبة من الفوز ببعض ما تحتاج اليه من المال على الاقل، لشراء ما تحتاج اليه

ومما تتعرّض له العقوبات المالية، ويجعلها سلاحاً ذا حدين، ان تلغي الدولة المعاقبة ما سبق لها وعقدته من القروض في سوق دولة او اكثر من الدول المشتركة في فرض العقوبة المالية عليها، كأن تنكر ايطاليا مثلاً، ما عقدته من القروض في بريطانيا، انتقاماً من اشتراك بريطانيا في فرض العقوبات المالية عليها، او انها تتوقف على الاقل عن دفع الفوائد على هذا القرض

ولما كانت الاعتمادات المالية مرتبطة اوثق ارتباط بالصادرات والواردات، الظاهرة والخفية، فتطبيق العقوبات المالية، لا يمكن ان يكون دقيقاً الا اذا صحبهُ تطبيق العقوبات الاقتصادية، او بالحري قطع الصلات التجارية بين الدولة المعاقبة والدول الاخرى

ومن العقوبات المالية إمداد الدولة المعتدى عليها، بعون مالي. ففي مايو سنة ١٩١٦ وجّهت حكومة فنلندا نظر جامعة الامم الى ان الدول الصغيرة التي رضيت بنزع سلاحها، قد تضطر اذا اعتدي عليها، ان تعمد الى شراء المواد اللازمة للحرب. فيجب ان يوضع نظام يمكن الدول الصغيرة المعتدى عليها، من الفوز بعون مالي دولي. فنظرت لجان الجامعة المختلفة في الموضوع من جهاته المختلفة، ووضعت مشروعاً، عرض للتوقيع ابتداء من اكتوبر سنة ١٩٣٠

فهذا المشروع يسلم بان الدول الصغيرة المعتدى عليها، او المهدّدة بالاعتداء عليها، تحتاج الى مالٍ يمكنها من تنظيم الدفاع عن حياتها. ولذلك يقترح ان لا يكون المدد المالي الذي تصيبهُ من الدول، قروضاً تعقد لها، بل ضماناً من هذه الحكومات للقروض التي تعقدها في اسواق العالم المالية الحرة. وهذا العمل في نظر واضعي المشروع ضرب من « السلامة الاجماعية » في الميدان المالي

هذا هو الاتفاق الذي طلبت الحبشة بمقتضاه عوناً ماليًّا من جامعة الامم . ولكن المشروع لم يبرم مع ان ثلاثين دولة وقعته ، وسبب ذلك ان تنفيذه مربوط بتنفيذ مشروع لنزع السلاح او تحديده

العقوبات الاقتصادية

العقوبات الاقتصادية وسائل يتوصَّل بها لتضييق نطاق الاتجار مع الدولة المعتدية . وهذه الوسائل تكون في الغالب حظراً تامًّا او جزئيًّا على المواد الآتية :

١ — جميع الواردات من الدولة المعاقبة

٢ — الصادر اليها من مواد الحرب كالاسلحة والذخيرة

٣ — الصادر اليها من المواد اللازمة للصناعات الحربية

٤ — جميع الصادرات الاخرى اليها

٥ — جميع الصادرات والواردات اي المقاطعة الدولية التامة

والعقوبات الاقتصادية يمكن ان تطبَّق على وجهين . فالوجهُ الاول يفرغ في قالب المقاطعة الاقتصادية ، فتمتنع كل دولة عن التوريد الى الدولة المقاطَعة . وهذه المقاطعة لا تصيب النجاح التام الاَّ على شرطين ، ان تشترك فيها جميع الدول التي تورِّد الى تلك الدولة ، وان تكون الدولة عاجزة عن اكتفاء نفسها بنفسها . فمدى النجاح في تطبيق العقوبات الاقتصادية من هذه الناحية مرهون بمدد الدول المشتركة فيها ، وبمدى ما تحتاج اليه الدولة المعاقَبة من الواردات الاجنبية

اما الوجه الثاني فهو ان تعمد الدول المعاقِبة الى ضرب نطاق بحري وبري حول شواطىء الدولة المعاقبة وحدودها منعاً لوصول اي بضاعة اليها . وهذا العمل يعرف بالحصر Blockade الاقتصادي والنجاح في هذا العمل يتوقف من ناحية على موافقة دول الصادر الكبرى والاستعداد لتأييد الحصر بالقوة الحربية والبحرية

فالفرق الاساسي بين المقاطعة الاقتصادية (اي الحظر السلبيّ) والحصر الاقتصادي (اي الحظر الفعَّال) هو ان الحظر السلبي يمكن ان تطبقهُ كلُّ دولة على حدة من دون ان تتعرَّض لخطر ما الاَّ خطر مقابلة عملها بمثله من قبل الدول المعاقَبة . حالة ان الحظر الفعال لا يمكن ان يتمَّ الاَّ مستنداً الى القوة . ومقاومة الدولة المعاقَبة لهذا الضرب من العقوبة لا بدَّ من ان يفضي الى حرب . ومما يضاف الى هذا ان الدول غير المنتظمة في الجامعة ، قد تعترض على الحصر البحري ، لعرقلته اعمالها التجارية ، وقد يفضي الى مشكلات خطيرة بينها وبين دول الجامعة

حظر الواردات من الدولة المعاقَبة

المرتبة الاولى في تطبيق العقوبات الاقتصادية هي حظر دخول الوارد من الدولة المعاقبة الى الدول المشتركة في تطبيق العقوبات عليها . وتنفيذ هذا العمل خال من الصعوبة ، فهو من الناحية

الادارية سهل التطبيق ، لا يحتاج الى هيئة حكومية جديدة للقيام به ، بل يكتفي بالاعتماد على مصلحة الجمارك في ذلك . ثم انهُ يفضل على حظر الصادر ، لانهُ اسهل على تعيين مصدر الوارد الى بلاد ما من ان نعين المصير النهائي للصادر منها . ويضاف الى هذا وذاك انهُ لا يحتاج الى اي عمل خاص ، من قبيل الحصر البحري لمنع الصادرات من الوصول الى شواطىء الدولة المعاقبة . ولا ريب في انهُ اسهل على حكومة ما ان تقنع شعبها بالامتناع عن شراء بضائع معينة ، من ان تقنعهم بالامتناع عن بيع بضائعهم . فحظر الوارد من الدولة المعاقبة الى الدول المعاقِبة اسهل من الناحية النفسية من حظر الصادر منها الى الدولة المعاقبة . وهذا الحظر يؤثر في اضعاف موارد الدولة المعاقَبة في الاسواق الخارجية ، لانها تعتمد على ثمن ما تبيعه في الخارج ، لشراء ما تحتاج اليه . فتطبيق هذا الحظر جنباً الى جنب مع تطبيق العقوبات المالية من شأنه ان يحد الى مدى بعيد من مقدرتها على شراء ما تحتاج اليه في الخارج ، الاّ اذا كانت تملك مقداراً فائضاً من الذهب تصدره لتوفي به ثمن ما تشتريه

والنجاح في هذا الضرب من العقوبات الاقتصادية يتوقف على عدد الدول المشتركة فيه ومقدار ما كانت تصدره في ابان السلم الى الدولة المعاقَبة

حظر تصدير مواد الحرب اليها

من العقوبات الاقتصادية التي تجدر توقيعها على دولة تستعد لحرب ، او تخوض حرباً منتهكة في عملها عهد جامعة الامم وعهدة باريس (كلوج بريان) الامتناع عن تجهيزها بالوسائل التي تمكنها من القيام بالحرب ، اي الاسلحة والذخائر

والنجاح في توقيع هذه العقوبة يتوقف على الجواب عن الاسئلة التالية : — ما مبلغ تقدم الصناعة في الدولة المعتدية وما مقدرتها على صنع السلاح ؟ هل تملك مصادر المواد الخام اللازمة لصناعة الاسلحة ، في بلادها او بلاد خاضعة لها ؟ هل خزنت مقادير من هذه المواد استعداداً للحرب وما مقدار ما خزنته ؟ هل اتفقت امم الدول التي تصنع الاسلحة على تطبيق هذه العقوبة ؟

ان صناعة الاسلحة ، صناعة واسعة النطاق ولكنها تكاد تكون محصورة في اثنتي عشرة دولة هي بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الاميركية وتشكوسلوفاكيا والسويد وايطاليا وهولندا والبلجيك والدنمارك واليابان واسبانيا وسويسرا ، وقد بلغ ما صدّرتهُ هذه الدول ٩٨ في المائة من مجموع تجارة السلاح الدولية سنة ١٩٣٢ ولكن ٦٩ في المائة من تجارة السلاح الدولية في تلك السنة خرج من ثلاث دول فقط هي بريطانيا وفرنسا والسويد . فالدول من هذا القبيل فريقان فريق يملك مصادر المواد الحربية ومعامل لصنعها وفريق لا يملك هذه ولا تلك ، او قد يملك المعامل دون مصادر المواد اللازمة لها

فحظر تصدير السلاح والذخيرة الى الفريق الثاني ، يحول دون استمراره في حرب ما اكثر من مدة قصيرة ، اي حتى ينفد ما خزنهُ من الاسلحة والذخيرة قبل تشوبها او بعيدهُ . ذلك ان ما تخزنهُ الامم من الاسلحة والذخائر الحربية في ايام السلم ، قليل لا يذكر ، اذا قيس بما يستنفدهُ منها في ايام الحرب ، فالقنابل ورصاص البنادق والمقرقعات بوجهٍ عام تستهلك بسرعة عظيمة في الحرب . والمدافع تبرى فيجب ان تبدل بغيرها او ان يعاد تبطينها ، والطائرات تبلى اجزاؤها بمعدل مائة في المائة في الشهر خلال الحرب ، وقلَّما تخزن دولة ما من الاسلحة والذخائر ما يكفيها اكثر من مدى الفترة الاولى من الحرب ، وهي الفترة التي تستنفد فيها الذخيرة ، وتصبح الاسلحة في حاجة الى التجديد . ولا ريب في ان المخزون من هذه المواد في البلدان التي لا تصنعها اكبر في المتوسط مما تخزنهُ الدول التي تملك المصادر والمصانع معاً . ولكنها مع ذلك لا تلبث ان تشرع في حرب ، وتفرض عليها العقوبات الاقتصادية ومنها حظر توريد الاسلحة والذخائر اليها حتى تدرك عجزها عن مواصلتها

وقد اعترفت لجنة عينتها جامعة الامم للبحث في النزاع القائم بين بوليڤيا وپراغواي ، وقد دامت الحرب بينهما ثلاث سنوات (١٩٣٢ — ١٩٣٥) بانهُ لولا وارد الاسلحة الى الدولتين من الخارج لعجزت الدولتان عن مواصلة الحرب . ولا ريب في انهُ لو طبق حظر تصدير السلاح على الدولتين المتحاربتين معاً لانتهت الحرب في سنة ١٩٣٣ . بل لو ان الجامعة تحركت وفقاً لقواعد عهدها وعيَّنت المعتدي من الدولتين المتحاربتين وفرضت العقوبات عليهِ وحدهُ ، لما طالت الحرب اكثر من بضعة اشهر

الاَّ ان حظر تصدير السلاح والذخيرة الى بلاد تملك مصادر ومصانع كافية لصنعهما لا يؤثر وحده تأثيراً كبيراً في مقدرتها على مواصلة الحرب . ومع ذلك فقد رأينا بريطانيا وفرنسا ، في خلال الحرب الكبرى تبنتا حظر السلاح والذخيرة من الولايات المتحدة الاميركية اكتفاء لحاجتهما منهما مع ان صناعة السلاح فيهما اوسع نطاقاً واوفى عدَّة منها في غيرهما من الدول . فليس ثمة دولة من الدول في وسعها ان تمضي ، وهي مشتبكة في حرب كبيرة ، عن هذا الضرب من العقوبات الاقتصادية

ولا بدَّ في تنفيذ هذا الحظر من جعلهِ تامًّا وعامًّا والاَّ ضيَّع الغرض المقصود وفي ذلك لا بدَّ من الاتفاق بين الجامعة والدول المصدِّرة للسلاح

والغالب ان لا يكون لتوقيع الحظر على مواد الحرب ، تأثير واسع النطاق في البلاد التي توقعهُ لانهُ ينحصر في خسارة بعض الشركات التي تصدر هذه المواد ، وعند ذلك لها ان تطلب تعويضاً من حكومتها ولكنها اذا كانت تجري على النظام الذي تجري عليهِ الحكومة البريطانية ، وهو وجوب استصدار رخصة من الحكومة لتصدير كل شحنة من الاسلحة والذخيرة ، فليس ثمة سبيل لطلب هذا التعويض لانهُ من حق الحكومة ان ترفض اصدار هذه الرخصة عندما ترى باعثاً على ذلك

ولكن اذا شاءت الدولة المعاقبة ان تثأر لنفسها من تحريم هذا الضرب من الصادر اليها ، كان

لعملها تأثير ما في تجارة البلاد التي وقعت العقوبة عليها. ففي سنة ١٩٣٤ ادعت حكومة بوليفيا ان الحظر الذي وقعتهُ حكومة تشكوسلوفاكيا على تصدير الذخيرة والسلاح اليها ، مناقض للاتفاق الانكليزي البوليفي المعقود سنة ١٩١١ وانذرت الحكومة البريطانية بفرض ضرائب اضافية على الشركات البريطانية في بوليفيا ، وكانت هذه الشركات معفاة من هذه الضرائب بمقتضى المعاهدة المذكورة . فكان ردُّ الحكومة البريطانية ان عملها هذا ليس مناقضاً للاتفاق . ولكن الحادثة تدلُّ دلالة واضحة على ما تستطيعهُ دولة معاقبة في هذه الناحية

فيتضح مما تقدَّم ان حظر تصدير الاسلحة والذخيرة ، عمل لا تعترضهُ صعاب كبيرة من الناحية الادارية ، ولا يؤثر تأثيراً عامًّا كبيراً في تجارة البلاد التي تفرضهُ . وان نجاحه مرهون باتفاق جميع البلدان المشهورة بصناعة الاسلحة والذخيرة على توقيعهِ ، وان فعله في الغالب لا يكون كبيراً الاَّ اذا وقع على بلدان لم ترتق فيها الصناعة ارتقاءً عظيماً ، بل انهُ لا يؤثر الاَّ تأثيراً يسيراً محصور النطاق اذا فرض على بلدان تملك المصانع الوافية . فاذا كان في الامكان تعيين المعتدي وفرض الحظر عليهِ دون المعتدَى عليهِ ، كان تأثيره اسرع ظهوراً منهُ اذا فرض على الفريقين المتحاربين معاً

وعلى كل حال لا يكفي حظر الاسلحة والذخيرة وحده في معاقبة دولة تنوي الاعتداء لانها تكون في هذه الحالة قد اعدَّت عدَّتها بخزن مقادير كبيرة من السلاح والذخيرة قبل شروعها فيهِ

حظر المواد الخام اللازمة للحرب

قلنا ان حظر الاسلحة والذخيرة ، لا يجدي نفعاً ، اذا كانت الدولة المعاقبة تكفي نفسها بنفسها من حيث صناعة الاسلحة في بلادها . ولكن هذه الكفاية لا تقوم على وجود المصانع الوافية في البلاد فقط بل تقوم كذلك على امتلاك البلاد لمصادر تستطيع ان تستمدَّ منها المواد الخام اللازمة لهذه الصناعة . والمواد الخام ليست موزعة توزيعاً متساوياً بين الامم ، او في مناطق الارض المختلفة . فيجدر بنا ان نلقي نظرة على هذه الناحية من الموضوع ، لنعلم ، هل مدُّ الحظر حتى يشمل المواد الخام اللازمة لصناعة الاسلحة والذخيرة الحربية ، من شأنهِ ان يضيق الخناق على المعتدي او لا

واول ما يتجهُ اليهِ النظر في هذا الصدد ، هو ان نعرف المواد التي تحتاج اليها الامم في هذه الصناعة ، وما تحتاج اليهِ الدول المختلفة منها

فردًّا على السؤال الاول نقول ان الامم العسكرية ، متجهة في هذا العصر ، الى جعل الآلة الميكانيكية ، اساساً لتنظيم الجيش . فالجيش الحديث لا غنى لهُ عن السيارة والطائرة والمدافع على انواعها ، والدبابات الثقيلة والخفيفة ، وهذا علاوة على اصناف السفن الحربية من البوارج الضخمة الى الغواصات وباذرات الالغام . فالصناعات الاساسية التي تعتمد عليها الامم في الاستعداد للحرب ، هي صناعة المعادن ، والصناعات الكيمائية والكهربائية ، وصناعة استخراج النفط وتكريرهِ واعداد اصنافهِ المختلفة . وفي ما يلي قائمة باهم المواد التي لا غنى لهذه الصناعات المختلفة عنها ، وما تستعمل لهُ

الفحم والكوك — لابدَّ منهما في صناعة الصلب وتوليد الطاقة لاسباب النقل الحديثة. ويستخرج منهما زيوت معيَّنة مثل الفينول والتولوين والكريزول وهي مما لا غنى عنهُ في صناعة المتفجرات

النفط — وهو الوقود الذي لا غنى عنهُ لسيارات والدبابات والطائرات والسفن الحربية ويستخرج منهُ كذلك الزيوت لتزييت جميع المحرِّكات على اختلافها

القطن — لصناعة المتفجرات

الصوف — مادة لا غنى عنها لاغراض متعددة ومنوَّعة

المطاط — يستعمل لاغراض منوَّعة، أهمها في الصناعة الكهربائية، والنقل. ولا يخفى ان الالمان في خلال الحرب الكبرى اضطرُّوا ان يجعلوا اطارات العجلات في سيارات النقل من الحديد، لان الحصر البحري حال دون وصول المطاط الى بلادهم

الغليسرين — لا غنى عنهُ في صناعة الديناميت

السلفوس — لا غنى عنهُ في صناعة اصناف البارود الذي لا دخان لهُ

تير الحديد والحديد الزهر — لا غنى عنهما في صناعة اية آلة من الآلات او سلاح من الاسلحة

الرصاص — لا بدَّ منه في صناعة الذخيرة الحربية والاحماض والمتفجرات

النحاس والخارصيني والقصدير والكدميوم — يحتاج اليها في صناعة بعض الاسلحة ومدافع الميدان والذخيرة الحربية والمعدات الميكانيكية والكهربائية

النيكل — يستعمل في صناعة بعض اصناف الذخيرة، والصلب

الالومنيوم — في الطائرات وكل محرِّك او آلة يحتاج الصانع فيها الى خفة الوزن

الزئبق — كثير الاستعمال في كبَّاسات المتفجرات

اللاتين — يحتاج اليهِ في صناعة الاجهزة الكيمائية وخاصة في صناعة النترات

الانتيمون والمنغنيس والمولبدنوم والتنغستن والكروم وبعض مركباتها — لابدَّ منها في صنع اصناف الصلب القاسي

ويجري هذا المجرى حجر الفتيلة (الاسبستوس) والغرانيت والميكا والحامض النتريك والكبريت والزرنيخ والبروم والكلور والفصفور. والاربعة الاخيرة لا غنى عنها في صناعة الغازات الحربية

هذا عن المواد الخام التي تحتاج اليها الامم المختلفة في صناعاتها. وليس من السهل معرفة ما تحتاج اليهِ الجيوش منها في المتوسط. ولكن اللجنة الاميركية للعقوبات الاقتصادية تناولت هذا الموضوع بالبحث الدقيق، فوصلت الى نتيجة تقريبية يسح اتخاذها مقياساً. فقد قالت في تقريرها ان الاعمال الحربية في الميدان تقتضي انفاق ما زنته ثلاثة اطنان من الصلب والسلاح والذخيرة والسكك الحديدية الخفيفة وواقيات الخنادق، للجندي الواحد في السنة. وان صنعها لا بد ان يكون قد اقتضى معالجة ستة اطنان من الفحم وستة اطنان الى ثمانية اطنان من الحديد. وعلى

ذلك ما يستنفد من النفط ويقدر بطن واحد للجندي الواحد في المتوسط في السنة . وتليه المواد الاخرى وهي اقل مما تقدم . فالجندي ينفق من مائة رطل الى مائتي رطل من كل من المواد الآتية وهي النترات والكبريت (البيريت احد مركباته) والسمنت والمنغنيس والنحاس والرصاص و٢٥ رطلاً من كل من المواد الآتية وهي القطن والصوف والمطاط والفلزات اللازمة للذخيرة الحربية اي القصدير والنيكل والانتيمون والالومنيوم والخارصيني (زنك) والزئبق . واذا صح تقدير الخبراء فالمستهلك من النفط والوقود السائل والصلب في الحروب المقبلة ينتظران يفوق ما كان عليه في الحرب العالمية . فالمواد التي تستهلك في الحرب تفوق كثيراً ما يستهلك منها في ابان السلم ، حتى في الدول التي فيها مصانع كبيرة تصنع الاسلحة والاعتدة الحربية للتصدير . اما الدول التي لا تملك هذه المصانع فيبدو عجزها عن التموز بمواد الحرب حال تطبيق هذه العقوبة عليها او بعيد تطبيقها

واذا رجع القارىء الى المقال الذي نشرناه في مقتطف نوفمبر الماضي بعنوان « المعادن والتبعات الدولية » (ص ٤٤٧) تبين ما تحتاج اليه الدول المختلفة من المعادن والفلزات اللازمة للصناعات الحربية فلا حاجة بنا الى تكراره هنا

وقد تعمد الدولة المعاقبة الى مصادر جديدة تستمد منها المواد التي تحتاج اليها بعد حظر تصديرها اليها كما فعلت المانيا بنفط رومانيا في الحرب الكبرى . او قد تعمد الى مناجم يتعذر استخراج المعادن منها استخراجاً رابحاً في ابان السلم ، فتستخرجها منها عند الاضطرار اذ يصبح الربح في المقام الثاني . او قد تجمع ما يطرح عادة من مادة معينة فتسكبها وتنقيها وتعيد استعمالها . او قد تحاول ان تستنبط بدلاً صناعياً يحل محل المادة الطبيعية كما حاول الالمان ان يحلوا المطاط الصناعي محل المطاط الطبيعي فأخفقوا . وكما حاولوا ان يصنعوا الاعتدة بتثبيت نتروجين الهواء لتحل محل الاعتدة الطبيعية فأصابوا نجاحاً عظيماً . او قد تبتدع وسائل جديدة لاستعمال مادة طبيعية متوافرة او في الوسع الحصول عليها ، بدلاً من اخرى لان الحصول عليها متعذر ، كما استعمل الالمان النيكل المستورد من كندا عن طريق البلدان السكندينافية بدلاً من المولبدنوم والتنغستن في تقسية الصلب

هذه العوامل تخفف من وقع الحظر على الدولة المعاقبة ، ولكن تأثيرها ، بصرف النظر عن العامل الاول ، يسير جداً . يضاف الى هذا ان الاحداث الطبيعية قد تدمر ما تخزنه الدولة المعتوية الاعتداء من مواد الحرب . فالزلزلة التي اصابت اليابان سنة ١٩٢٣ دمرت احواض النفط ولو ان اليابان كانت مشتبكة في حرب حينئذ وتصدير النفط اليها محظور ، لاصيبت قوتها الحربية في اضعف مقاتلها

وكذلك يتبين القارىء ان الدولة المعتدية تواجه مصاعب عظيمة الشأن في الاستمرار في اعتدائها اذا حظرت الدول بالاتفاق تصدير بعض المواد الهامة اللازمة للصناعات الحربية . وحظر التصدير الى الفريق المعتدي يعني في الغالب اباحته الى الفريق المعتدى عليه . وكون هذه المواد الاساسية قليلة ، وخطرها ذريع التأثير ، يجعل الحظر ممكناً من دون ان تضطرب التجارة الدولية اضطراباً يبعث على القلق

المقاطعة الدولية

قد تكفي احدى العقوبات التي تقدَّم ذكرها لردع المعتدي عن الاعتداء ، او لتقصير اجل اعتدائه ، ولكن تأثيرها قد لا يكون تامًّا لذلك قد يعمد الى عقوبات اخرى اعم واعمل في تحقيق الغرض المقصود . وفي مقدمتها « المقاطعة الدولية » بتطبيق جميع فقرات المادة السادسة عشرة من عهد الجامعة في وقت واحد . وتطبيقها هذا يقتضي من اعضاء الجامعة الامور التالية : —

١ — فصم جميع العلاقات المالية والتجارية مع الدولة المعتدية

٢ — منع كل معاملة بين رعايا اعضاء الجامعة ورعايا الدولة المعتدية

٣ — منع كل معاملة تجارية ومالية بين رعايا الدولة المعتدية ورعايا الدول الاخرى سواء كانت اعضاء في الجامعة ام لم تكن

ولا تعلم عقوبة اتمُّ فعلاً من هذه العقوبة . فان فعلها لا بدَّ ان يكون سريعاً وتامًّا في ردع الامم التي لم تبلغ مبلغاً عالياً من التقدُّم الصناعي . اما تأثيرها في الامم الصناعية الكبيرة التي لا تتأثر عادة تأثراً كبيراً باحدى العقوبات المتقدمة ، فلا بدَّ ان يكون كبيراً كذلك ، ولكنهُ على كلّ حال يتوقف على مدى اعتمادها على تجارتها الخارجية . واقلُّ الامم اعتماداً على تجارتها الخارجية هي روسيا السوفيتية والولايات المتحدة الاميركية ، وتليها بولونيا فاليابان فاسبانيا فايطاليا فالمانيا فتشكوسلوفاكيا فقرنسا فالسويد فالمملكة المتحدة (اي انكلترا واسكتلندا وويلز) فالبلجيك

اما منع توريد المواد الغذائية الى دولة من الدول فعقوبة لا تطبَّق الا عند الحاجة القصوى والمملكة المتحدة بين الدول الكبرى ، اشدُّها تأثراً بهذه العقوبة لانها تستورد ٥٠ في المائة من المواد الغذائية التي تحتاج اليها . ويقتضي فصم عرى المعاملة اقفال الحدود البرية ووقف تبادل رسائل البريد والتلغراف والتلفون والمحادثات اللاسلكية ومنع الطائرات والسفن من النزول في مطارات الدولة المعاقَبة والرسو في مرافئها وسحب جميع الممثلين الدبلوماسيين والقنصليين واعتقال جميع رعايا الدولة المعاقَبة المقيمين في بلاد الدول المعاقِبة او ارجاعهم الى بلادهم

***

وقد تطبق المقاطعة الدولية تطبيقاً سلميًّا ، او تطبيقاً فعَّالاً اي حربيًّا . فالتطبيق السلميُّ ممكن اذا اجمعت الدول على الاشتراك في التطبيق . ولكن لما كان الاجماع متعذراً ، ولما كانت بعض الدول الكبرى خارج نطاق الجامعة وقد لا يأنس من نفسهِ ميلاً الى الاشتراك مع دول الجامعة في هذا العمل فقد تقتضي الحالة في نهاية الامر استعمال القوة . وهذا يعني الحصر البحري والبري (Blockade) وهو ينطوي على خطر الاصطدام بالدولة المعاقَبة وبالدول المحايدة لان هذه في الغالب لا تتنازل عن حقوقها في الاتجار الحرّ مع الدولة المعاقَبة

حديقة المقتطف

الحرب القادمة

كتبها اوزبرت متبول سنة ١٩١٥

القارورة اليونانية

لجون كيتس

« نقلها خليل هنداوي »

الحرب القادمة

كتبها اوزيرت ستيول سنة ١٩١٥

كانت الحرب الطويلة قد وضعت اوزارها. وكانت اهوالها قد محيت ذكراها. واصبح من الارهاق ان تحدث الصم. بل ان حديث الابطال حاد يضجرك

***

اولئك الكياويون السحرة[1] الذين حولوا الدم الى ذهب، كانوا قد هرموا ولكنهم عقدوا اجتماعاً وقالوا فيه: « لعلّهُ يجب علينا ان نبني مقابر او نشيد مذابح »
« لذكرى اولئك الاحداث الشجعان الذي تقدموا مختارين، فاصيبوا بالعمى، او »
« حرقوا، او شوّهوا، ففقدوا كلّ شبهٍ بينهم وبين الاحياء، او نثروا قطعاً دامية »
« في سبيلنا. ان ذلك عمل جدير بهم وبنا »
« او لعلنا نعلم اولادهم »

***

ولكن اغنى هؤلاء السحرة سعل سعالاً لطيفاً وقال: لقد كنت دائماً في الطليعة — في العمل الخاص — وانني لا اتأخر عن احد في محبتي لبلادي. وعندي ان رأيكم، رأي حسن، رأي بديع، ثم انهُ ليس كبير النفقة

***

ولكن يبدو لي ان القضية التي حاربنا في سبيلها مهدّدة بالخطر. واني تذاكار اجدر باولئك الساقطين، من ان يسقط ابناؤهم في سبيل القضية نفسها

***

وخرج الشيوخ الدماث الى الشارع يصيحون في الشبان:
« الضحّون، ايها المتقاعسون، بما مات آباؤكم لكسبه؟
« يجب ان نجعل العالم سالماً للشباب »

***

وذهب الاولاد. . . !

---

(١) اشارة سخرية الى رجال المال والاعمال الذين جمعوا ثروات ضخمة في الحرب

من روائع الشاعر الانجليزي

جون كيتس القائل

القارورة اليونانية

في متحف لندن « زمرية يونانية » قديمة خطت عليها كف الفنان صورة سامية من صور الحياة ، صورة عاشقين يهم احدهما بالآخر . لم يترك لها المصور مجالا للاقتراب ، ولم يمنعها من هذا الموقف المفجع . وقع عليها ناظر « كيتس » فاستثارت مشاعره فراح يعطينا هذه القريدة الرائعة من قرائحه . وهي مقطوعة ذات الحان خفية ، لا ترى هناك الا الحب ولا تشعر بغير الجمال . تبارك الله وتبارك هذا الثغر السقيم الذي يرتاح للالحان الشائعة ويطرب الى الالحان الا تنقطع . تبارك الله وتبارك هذه الحقيقة التي لفها برداء الجمال حتى جعل الجمال مظهراً من مظاهرها وجعل الحقيقة مظهراً من مظاهره (المترجم)

ايتها الغادة المحرومة من الراحة !

يا ربيبة السكون الغالية ، وابنة الاعوام المتوانية

يا ابنة الغابات التي تعرف كيف تحدثنا احاديث يكتنفها زهر أريجه اضوع من اشعارنا !

أية خرافة حاكتها اوراق الآلهة او الأموات او كلاهما معاً تنتشر — محفوفة بالسر — من أحنائك ؟

ومن هم هؤلاء الآلهة وهؤلاء الناس وهؤلاء العذارى المسترخيات ؟

هؤلاء المجنونات النافرات

وما هي هذه الوقائع في سبيل الانعتاق والانطلاق ؟

وهذه الصنوج والشبابات ؟ وما هذا الانجذاب والذهول ؟

***

ان الارانيم التي نسمعها هي جيدة ،

وأجمل منها ارانيم لا نسمعها ،

ألا اعزفي ايتها الصنوج لا لآذاننا ،

اعزفي وليكن عزفك اشد وقعاً

اعزفي للروح ورددي اناشيدك المخرساء .

وانت ايها الفتى الآوي الى فيء الشجر

انت لن تستطيع ان تنجز انشودتك كلها .

وهذه الاشجار لن تستطيع ان تعرى من اوراقها .

وانت ايها العاشق المسرع لن تقدر على ان تُعطي قبلتك ، مهما احسستَ أنك أشرفت على الظفر .

ولكن لا تأس ولا تحزن !

انها لن تذوى نضرتها ، ولن تتذوق انت منها كل بهجتك ستظل محبًّا لها حتى النهاية وهي حتى النهاية ستظل جميلة

***

سعيدة انت ايتها الاشجار التي لا تقدرين على التجرد من اورافك ، ولا تقولين للربيع وداعاً !

وسعيد انت ايها الموسيقي الذي يردد داعاً بلا ملل اغانيَّ جديدة

***

واكثر سعادة ذلك الحب الملتهب الرغبة ، الدائم ظمؤه ،

السرمدي خفوقه ، اللامعة نتوته .

يسمو فوق كل هوى بشري عنيف ،
ويترك قلوبنا محرومة يأساً وسأماً ،
وجباهنا مضطرمة ، وشفاهنا يابسة .

***

من هم هؤلاء الذين قدموا الى مذبح التضحية ؟
والى اي معبد نضر ايها الكاهن السرّي تقود هذه العجلة التي يتصاعد خوارها للسماء ، وقد زينت اعطافها بأكاليل الزهر .
اية مدينة صغيرة مشيدة على ساقية او شاطىء ، او مرفوعة على طود حول معبد التماثيل الهادىء ، قد افتقرت من اهلها هذا الصباح القدسي ؟
انتو ايتها المدينة الصغيرة ستظل شوارعك صامتة ،
ولا روح تعود من ذلك العالم تنبئنا سبب افتقارك .

***

ايتها المواطن التي ينشاها اشكال من الناس والعذارى الرخاميات المؤتلفات مع فروع الاشجار والاعشاب الموطوءة !
ايها الشكل الصامت الذي يحير كنهه العقل كما تحير الأبدية !
ستبقى انت عند ما تبيد الشيخوخة هذا الجيل
ستبقى بين آلام كآلامنا صديقاً للانسان الذي تقول له :
« ان الجمال هو الحقيقة والحقيقة هي الجمال »
هذا كل شيء — هذا كل ما تعلمهُ على الارض
وهذا كل ما يجب ان تعلمهُ عليها »

(ترجمها خليل هنداوي)

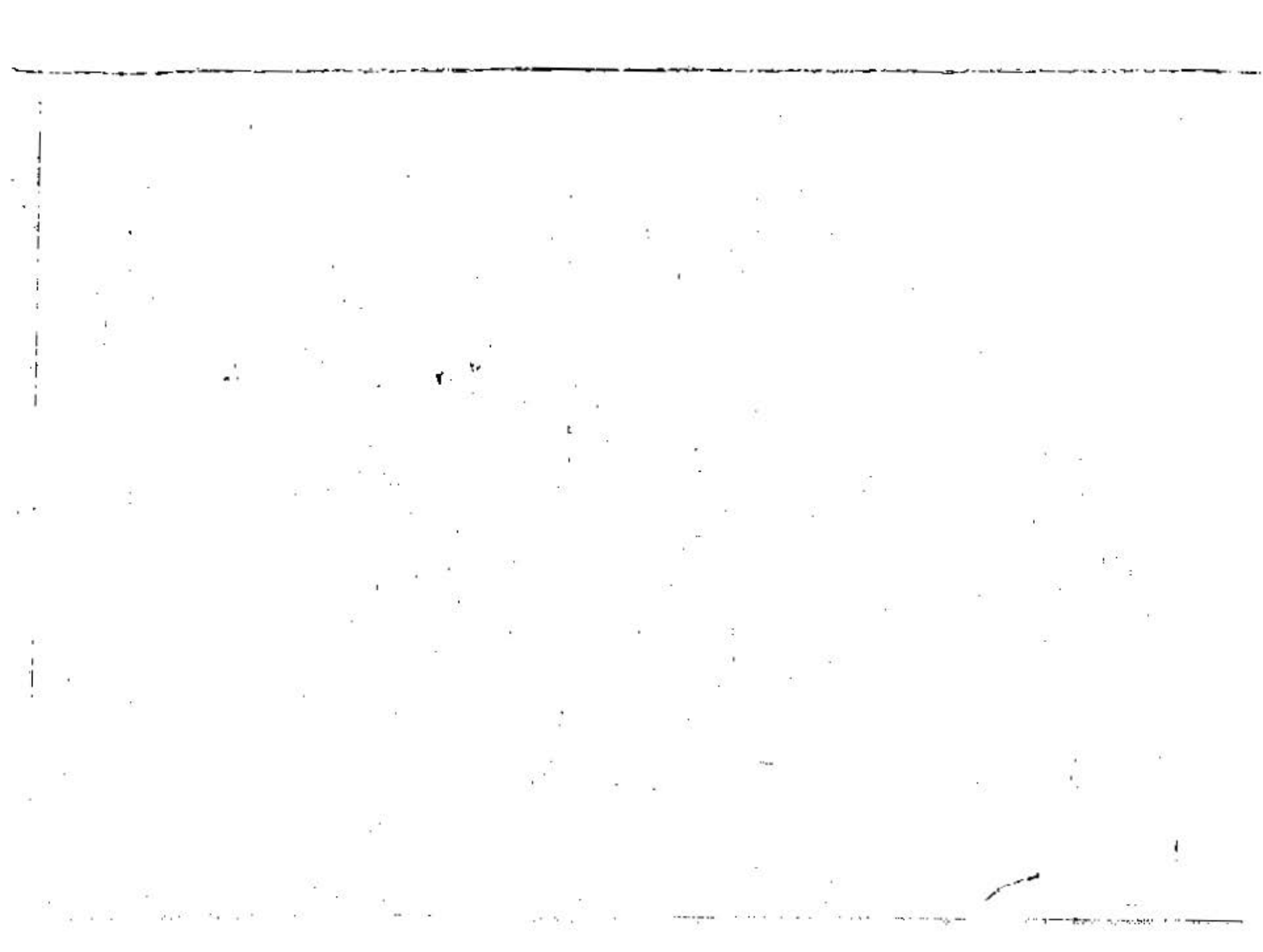

مشهد في داخل صومعة الغلال الحديثة وفيها النقالة « الأوتوماتيكية »

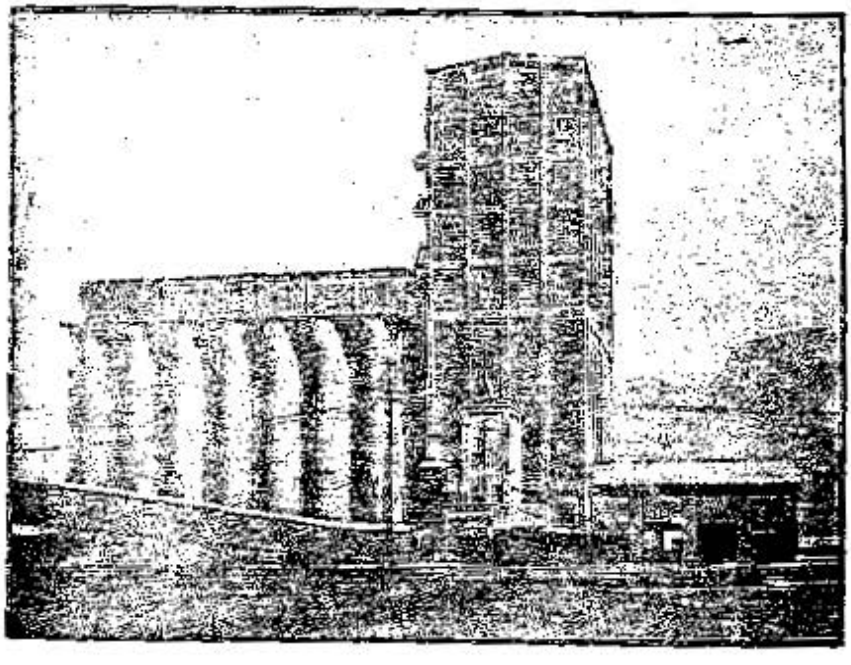

صومعة للغلال تتسع لثلاثين الف طن

باب الزراعة والاقتصاد

صوامع الغلال

عنيت مصر اخيراً بمسألة خزن الغلال بعد ان مضت السنون وهذه المسألة مهملة كلّ الاهمال ومحصول البلاد المصرية يفقد سنوياً ما لا يقلّ عن عشرين في المائة — بحسب التقديرات الرسمية — لما يسببهُ من التلف الناشيء عن تقلّب احوال الجوّ وبعض الآفات الحشرية والطيور والفئران

ومع ان مصر كانت اول امة فكّرت ونظّمت مخازن الغلال في عهد يوسف عليهِ السلام ولا تزال آثار اهرآتها في النيوم ماثلة للعيان ، فانها في العهد الحاضر تأخرت عن غيرها من الدول في العناية بهذا الامر الذي يهمّ الزارع والصانع والتاجر والمستهلك على السواء

كانت مصر اهراء العالم القديم في عهد الرومان للغلال والحبوب . ولكنها فقدت مكانتها في هذا الميدان لانحطاط نوع الغلال نفسها واهمال الوسائل الفنية لتصفيتها وحفظها وعرضها في الاسواق العامة

فالزارع يكتفي بالآلات القديمة في درس محصوله وهو لا يكاد ينتهي من عملية الدراسة حتى يبادر الى التخلّص من المحصول لحاجته الى النقود فتهبط الاسعار في اول المحصول عادةً لكثرة المعروض منهُ في السوق . وهو ان فكّر في ابقاء المحصول قليلاً في احدى شون البنوك انتظاراً لتحسّن الاسعار تعرّضت غلاله لجميع انواع الآفات . حتى اذا ما حان وقت العرض تبيّن لهُ ان ما قد يكسبهُ من تحسن الاسعار ، يفقدهُ بتلف جانب غير يسير من المحصول المخزون

وقد حدث من عامين في احد البنوك المصرية المعروفة ان القول الذي كان مخزوناً في شونهِ ، وكانت مقاديره كبيرة جدًّا ، هطلت عليهِ الامطار فنبتت حبوبهُ واضطرّ البنك للتخلص منهُ ان يبيعهُ بابخس الاسعار

***

وقد فطن علماء الغرب المحدثون الى هذه الناحية من الثروة الزراعية فصمموا مخازن للغلال والحبوب على انواعها تتوافر فيها جميع الشروط والوسائل لحفظ المحاصيل من التلف . فيستطيع صاحبها ان يخزنها ما شاء وهو يعلم انهُ لا يعرضها في خزنهِ لها لضرر ما وانهُ لا يتعرض هو لخسارة ما علاوة على تيسير ذلك في تنظيم العرض والطلب ، وفقاً للاسعار السائدة في الاسواق العالمية

والقاعدة في هذه المخازن الاعتماد على الوسائل الآلية في جميع مراتب العمل . فشة آلات عملها ان «تشفط» الغلال من المراكب او عربات السكة الحديد او مركبات النقل ، وتنقلها نقلاً ميكانيكيًّا الى داخل المخزن ، حيث تنقّى وتنظف وتصنّف بآلات مختلفة اوتوماتيكية (اي تعمل من تلقاء نفسها) ثم توزن وزناً ميكانيكيًّا ايضاً بآلات تبرز رقماً وقد دوّن عليها الوزن الصحيح

ويمكن كذلك ان تعالج الغلال بجميع الوسائل العلمية من تبخير وغيره داخل هذه المخازن ، بحيث اذا خزنت لم يبق لاسقاً بها ما قد يولّد آفة تصيبها

***

وقد اصطلح العلماء على تسمية هذه المخازن باسم «سيلو» Silo واصل هذه الكلمة عربيٌّ بحسب اقوال الغربيين ويظهر انها استعملت اولاً في اسبانيا والمغرب الاقصى . فحبّذا لو عني احد اللغويين بالبحث عن اصل اشتقاقها العربي . وقد اصطلح على تسميتها في القطر المصري بالصوامع لان الفلاح اعتاد ان يطلق اسم صومعة على المخزن الطيني بالطين الذي يحفظ فيه غلالهُ . وكان الكاتب جلال حسين اول من اطلق عليها هذا الاسم في مقالات لهُ نشرت في المقطم

وقد عمّ استعمال هذه الصوامع في البلدان الزراعية الكبيرة والصغيرة في العالم اجمع ، ولم يكتفَ في استعمالها بخزن الغلال فيها، بل استعملت ايضاً لخزن البنّ وبزر القطن وبزر الكتان وغيرها من المحاصيل الزراعية

وكان اقبال الممالك المختلفة عليها دافعاً لبيت الانكليزي الكبير الذي يتولى تعميم هذه الصوامع وهو بيت هنري سيمون المهندسين المعروفين في بلدة ستوكپورت على مقربة من منشستر — وقد زارها كاتب هذه السطور، وهي مشهورة بمصانعها المختلفة لآلات ضرب الارز وطحن الغلال — على انشاء فروع لهُ في استراليا وزيلندا الجديدة والهند وفرنسا والبلجيك وهولندا والبلدان السكندينافية والارجنتين وشيلي والبرازيل واوروغواي والمكسيك والصين واليابان

***

ومن عهد قريب فكرت وزارة التجارة والصناعة بعد طول البحث والدرس ان تنشئ صوامع تتسع لثمانية وعشرين الف طن من الغلال المختلفة في ساحل ابر النبي بالقاهرة بين مصر القديمة والمعادي حيث تقع شون الغلال المختلفة

ومما لا شكّ فيهِ ان هذه خطوة مفيدة اذ لا جدال في ان مصر تحتاج الى مخازن اخرى عديدة من هذا القبيل . ففي الريف تحتاج الى مخازن صغيرة مما يسميهِ المهندسون بأسم « صوامع الريف » وهي صغيرة تتسع احداها لالف اردب فقط . فالبنوك الزراعية في القطر المصري والدوائر الكبرى في حاجة الى مثل هذه الصوامع للعناية بخزن محاصيلها . ويضاف الى هذا ان البلاد تحتاج الى بناء صوامع من هذا القبيل في الموانىء لحفظ الوارد من الغلال

جهاز "الرايقان"

وتنمية النبات ومكافحة آفاته

يعلم قراء المقتطف ان الاشعة اللاسلكية القصيرة استعملت في تجارب متنوعة في اوربا واميركا لمكافحة بعض الآفات التي تصيب بعض الحبوب عند تخزينها ، وان بعض الباحثين مدّ في الارض اسلاكاً كهربائية وأجرى فيها تياراً كهربائيًّا ، فزاد محصول المزروعات التي تأثرت بها . ومن شاء زيادة الاطلاع فعليه بمراجعة كتابنا فتوحات العلم الحديث (ص ٢٦٣ — ٢٦٥)

***

وقد اطلعنا من عهد قريب على تقرير وضعه المسيو جورج رالي Ralli في وصف جهاز استنبطه ودعاه « رايقان » وسجله في محكمة الاستئناف المختلطة في الاسكندرية في اول يونيو من هذه السنة . وهذا الجهاز مبنيٌّ على قاعدة تأثير الامواج الكهربائية القصيرة في النبات والآفات التي تصيبه. ومبدؤها التقاط الاشعة الكونية التي تخترق جو الارض بواسطة رؤوس معدنية دقيقة ثم نقلها بواسطة مكثفات ومحوّلات فتجتمع بكهربائية الارض وتنشىء حقلاً كهربائيًّا مغنطيسيًّا حول المكان الذي توضع فيه وتولد أوزوناً في الجو

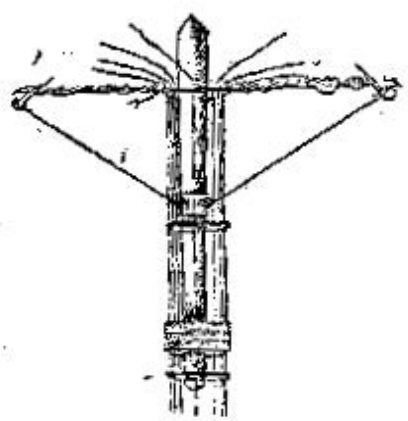

اما القاعدة الاخرى التي بني عليها هذا الجهاز فهو ان النبات يشبه الحيوان في تأثره بالعلاج بالامواج . وقد سبق للعلامة بوفون فبيّن ان هناك شبهاً اساسيًّا بين النبات والحيوان في تركيبهما الحيوي وافعالهما الفسيولوجية

فالعلاج بالامواج يقوي الجسم الانساني ويمنع بعض الامراض ويشفي البعض الآخر . وقد اثبتت التجارب المختلفة في بلدان متباعدة صحة هذا القول . فالتعرّض للاشعة التي فوق البنفسجي الصادرة من مصباح القوس فعّالة في منع الكساح مثلاً . والاشعة المنطلقة من الراديوم فعّالة كذلك في معالجة بعض الدوامي السرطانية . والتعرض لاشعة الشمس عامل فعّال في معالجة المصابين بالدرن . والاشعة اللاسلكية القصيرة تستعمل في اميركا الآن ، في نطاق محدود ، لاحداث الحمّى اللازمة لمعالجة شلل الحلق العام

والظاهر من تقرير المسيو رالي ومن تجارب سبق لنا فاطلعنا عليها في مجلات علمية متنوّعة ،

ان العلاج بالاشعة يؤثر في النبات تأثيراً من قبيل تأثيره في جسم الانسان . وهو يقول انهُ يقوي بنية النباتات والاشجار المثمرة ويزيد محصولها ضعفين او ثلاثة اضعاف

ولما كانت التيارات الكهربائية تتجه ، وفقاً للنواميس الطبيعية ، الى القطب المغناطيسي الشمالي فيجب ان يوضع هذا الجهاز في الناحية الجنوبية من قطعة الارض المزروعة التي يراد معالجتها به فيمتد المجال الكهربائي المغنطيسي بالجذب من الجنوب الى الشمال ويشمل قطعة الارض كلها

ومن التجارب التي اشار اليها المسيو رالي ان فداناً كان يعطي محصولاً من القمح يقدر بنحو خمسة ارادب الى ستة ارادب فصار يعطي محصولاً يختلف من ١٢ اردبًّا الى ١٥ اردبًّا . وهو يقول ان سنابل القمح لا تزداد عدداً ولكن حجم حبوبها ووزنها يزدادان ضعفين او ثلاثة اضعاف ثم ان حبوب القمح نفسها تكون امنع على الآفات ، واغنى بمادة الغلوتين ، وقشرهُ اكبر واقوى

***

وقد عالج المستنبط في الجانب الثاني من تقريره فائدة هذا الجهاز في مكافحة بعض آفات النبات الطفيلية وابادة الديدان والحشرات

وقاعدة هذه الناحية من فائدة الجهاز ، المباحث التي قام بها دارسونفال وغيره من العلماء وخاصة دايفس الاميركي وقد وصفناها في كتاب فتوحات العلم الحديث . فقد اثبت دايفس ان الطاقة المشعة القصيرة الامواج تخترق حبوب القمح مثلاً وتحدث حرارة عالية مميتة في اجسام الحشرات التي قد تكونت داخل الحبوب فتفتك بها (فتوحات العلم ص ٢٦٤)

وقد وصف المسيو رالي في تقريره تجربة قام بها اذ اخذ طائفة من النباتات (الحرنباه — جرانيوم) في تسعة اصص وحقنها بما يحدث فيها نوامي مرضية من قبيل النوامي السرطانية في الانسان . فلما ظهرت هذه النوامي ، أخذ اصيصاً منها واحاطهُ باسلاك على طريقة معينة تكفل تأثر النبات بالامواج التي يولدها الجهاز وبعد ثلاثة اسابيع ذوت النباتات التي في الاصص الثمانية وهي التي لم تعرَّض للاشعة. اما النبتة التي في الاصيص التاسع ، وهي النبتة التي عولجت على المنوال المتقدم ، فبقيت حية ، بل ان النوامي المرضية تساقطت عنها ، بل ان ازهارها جاءت آية في نضارتها ورونقها وجمالها

وقد اشار لاكوسكي في كتابهِ « اسرار الحياة » الى تجارب من هذا القبيل اسفرت عن نتائج تؤيدها نتائج المسيو رالي

فهل تصلح هذه الآلة لمكافحة دودة القطن ؟ هذا ما يرادُ المسيو رالي

والخلاصة ان القواعد العلمية التي بني عليها هذا الجهاز قد ايَّدتها مباحث العلماء في اوربا واميركا فيجدر باولي الامران يجربوا تجارب محكمة واسعة النطاق ، ليُعرَف مدى فائدته العملية في مكافحة مصائب الزراعة المصرية وزيادة محاصيلها

باب المراسلة والمناظرة

في همزة ابن

سيدي مدير المقتطف الأغر

سلام واحترام وبعد فقد نشرتم في عدد نوفمبر من مقتطفكم الاغر نقداً لكتابي عمر ابن ابي ربيعة بقلم الاستاذ حسن كامل الصيرفي وارجو ان تسمحوا لي في ان اغتنم هذه الفرصة لأشكر للاستاذ الكريم ثناءه عليّ وحسن تقديره لعملي وتحليله الرائع لكتابي غير اني لا اوافق حضرة الاستاذ الكريم في مسألة كتابة همزة ابن فقد ذكر ان القاعدة في حذفها هي ان تقع لفظة ابن بين اسمين ولهذا يرى وجوب حذفها في عنوان كتابي الرئيسي والفرعي بحيث يكتبان هكذا :

«عمر بن أبي ربيعة» و«عمر بن ابي ربيعة» والمعروف في امر رسم همزة ابن غيرهذا اذ ليست الاسميّة قبل ابن وبعدها بكافية لاسقاط همزتها حتى ولا العلمية الا على شروط خاصة وقد امتنعت هذه الشروط في كلا العنوانين وكنت اودّ ذكرها لولا ان القدماء قد كفوني مؤونة هذا بذكرهم المواضع التي تثبت فيها همزة ابن بقصيدة اوردها الشيخ ناصيف اليازجي في «مجمع البحرين» هذا نصّها:

قد أثبتوا ألِفَ ابنٍ في مواضع من ... كلامهم كابنةٍ خذها بتعويرِ
اذا أضيف لإضمارٍ رضى ابنك او ... لجدّه مثل عمّار ابن منصورِ
او ذي مجازٍ كمقداد ابن الاسود اذ ... ابوه بالحقّ عمرٌو غير منكورِ
او امه نحو عيسى ابن البتول سما ... او كان في خبرٍ يحيى ابن مشهورِ
او كان مستفهماً عنه كقولك هل ... زيد ابن عمرو ام ابن القاسم الصوري
او كان تثنيةً كالمرتضى وأبو ... خديجة ابنا عليٍ مشرق النورِ
او عكس ذاك بأن قدمت تثنية ... كالخالدان ابن يسرٍ وابن ميسورِ
او جاء الابن بغير اسمٍ تقدمه ... نحو ابن موسى وزيدٌ وابن مذكورِ
او كان اول سطر او دما سببٌ ... لقطع همزته في نظم منثورِ
كجاءنا خالد إن الوليد وفي ... جمعٍ على ابنين في بعض المناكيرِ
زيدٌ وعمرٌو ويحيى ابنو ابي رجبٍ ... جاءوا وقد حفظوا هذا بتذكيرِ
او جاء لفظ ابيه بعدهِ مثلاً ... كجعفر ابن ابيه صاحب الصورِ

او آخر اسم عن ابن نحو قولك قد جاء ابن زيدٍ عليٌّ خير مشكورِ
او حال بينهما وزن كجاء لنا ردّي كظبي ابن موسى صاحب الطورِ
او كان نصبٌ باعني فيه مضمرةً كمثل اكرمني زيدٌ ابنَ مسرورِ
او بعد اما لشكٍّ جاءني حسنٌ إمّا ابن سعدٍ واما إبن منظورِ
او حال بينهما وصفٌ كاكرمنا يحيى الكريمُ ابن ميمون بن مجبورِ
او كان من بعد جمع كالعبادة ابن المرتضى وابن عمرو وابن معمور
او كان الابن مضافاً لابن او لاخٍ او عمّه كالمعلّى ابن ابن عصفور
أو كان الابن منادّى نحو حدّثنا موسى ابنَ مشكور يعني يا ابنَ مشكور
أو كان بينهما ضبطٌ كقال لنا سحبانُ بالضم ابن المرتضى الدوري (١)

ويجدر بي ان اشير الى ان هناك شرطين من هذه الشروط يمنعان حذف همزة ابن في العنوان الرئيسي — عمر ابن ابي ربيعة — اولهما في البيت الثاني وهو اضافة العلم الى جدّه وابن ابي ربيعة هو جدّ عمر لا والده والشرط الثاني وارد في البيت التاسع عشر وهو اضافة الابن الى كنية كزيد ابن اخي فلان او كعليّ ابن ابي طالب مع ان ابا طالب والده لاجدّه . اما في العنوان الفرعي وهو عصر ابن ابي ربيعة فيكفي ان تكون كلمة عصر غير علم لتثبت همزة ابن وعليه فتكتب ديوان ابن الفارض وعقد ابن عبدربّه باثبات همزة ابن

وكم كنت اود لو يصطلح علماء اللغة على رسم همزة ابن بالالف أنّى وقعت هذه اللفظة ولابدّ لي في الختام من شكر حضرة الاستاذ الكريم لتنبيهه ايّاي الى الخطأ الذي ارتكبه الخطاط في تحريك نون ابن — بالعنوان الفرعي — بالضم حيث كان يجب ان تحرّك بالكسر

جامعة بيروت الاميركية كلية الآداب والعلوم جبرائيل جبّور

***

أشكر للاستاذ جبّور تنبيهه إياي الى المواضع التي يجوز فيها اثبات الالف في كلمة (ابن) على اني قد لاحظت ان الاستاذ المؤلف قد اسقط ألفها في كل موضع ذكر فيه اسم الشاعر عمر بن أبي ربيعة في متن الكتاب ولكنها اثبتت في العنوان . وأريد ان اذكر للاستاذ ايضاً اني لم انوّه في كلمتي عن هذه الالف في جملة (عصر ابن ابي ربيعة) لأن عصر ليست علماً ، وانما اردت الاشارة هناك الى رفع (ابن) وهي في موضع الجر حسن كامل الصيرفي

(١) راجع بحر البحرين للشيخ ناصيف اليازجي طبعة المطبعة الاميركانية ببيروت ١٩١٣ صفحة ٥٣ — ٥٤ على هامش القامة البغدادية

كتاب الدكتور شهبندر

وردت علينا رسائل كثيرة من قرّاء المقتطف في مختلف الاقطار التي يقرأ فيها يسألوننا عن المقالات النفيسة التي ينشرها الدكتور عبد الرحمن شهبندر في « المشكلات الاجتماعية الكبرى في الشرق الادنى » وهل ينتظر ان تجمع في كتاب على حدة ، فردًّا على هذه الرسائل يسرُّنا ان نقول ان المؤلف الفاضل قد انجز هذه السلسلة النفيسة بمقال « الدين والنهضة الاخلاقية الحديثة » المنشور في هذا العدد ص ٦٠٥ . وادارة المقتطف تستعد الآن لتجليد الكتاب وقد لا يأتي شهر دسمبر على آخره حتى يكون ذلك قد تمّ

تصحيح خطأ

١ — قصيدة النشوء والارتقاء

وردت غلطة في قصيدة (النشوء والارتقاء) من المطبعة اضاعت معنى البيت بان كُتب « وتبكيك » بدل « وتُبْلِيكَ » في البيت

(وتُبْلِيك الحياة كما بغت الجو مـــوانا)

وبين القراء نجد الاديب حقًّا لا بد ان يفهم انها تُبليك فلا يضيع المعنى مع مثله من القراء ولكن الذين يأخذون غلطات المطبعة قضية مقدسة وحقيقة دائمة كثيرون ولا أزال اذكر ان بعض الفلاسفة قد بنى آراء وفلسفة كبيرة على اغلاط مطبعية وردت في طبع آراء باسكال الفرنسي وحدث مثل ذلك في اغلاط مطبعية وردت في طبعة شكسبير الاولى فقد كان الاحياء في العصر الذي شاع فيه تقديسه قبل النقد الادبي يرقصون طربًا لمعانٍ لا وجود لها بل هي اغلاط مطبعية كشفت بعد ذلك ولو كنت واثقًا من ان القراء سيجدون مثل هذه الآراء الرائعة التي ليس لها وجود لما عنيت الامر

عبد الرحمن شكري

٢ — الجامع المختصر

جاءنا من الدكتور بشر فارس من برلين تنبيه الى خطإ مطبعي وقع في العبارة الاخيرة من مقاله عن « الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير : الجزء التاسع » الذي عني باخراجه الاستاذ مصطفى جواد . مقتطف اكتوبر ١٩٣٥ ص ٣٧٤ و٣٧٥ . فقد ظهرت العبارة في المقتطف كما يلي : ومن المتعذر ان (تجد تصحيفًا او تحريفًا او اضطرابًا او سوء فهم للنص ومخرج الكتاب الى الناس مخرجه ؟) . والحقيقة ان القوسين وعلامة الاستفهام اقحمت على العبارة خطأً ولم ينتبه لها قارىء التجارب فقلب المعنى من الثناء الجم على المخرج ، وهو ما يستفاد من مجمل المقال ، الى التشكيك في قيمة ما فعل وهو ما لم يقصد اليه الكاتب البتة . فاقتضى التنبيه

تخليد ذكرى المتنبي

اجمعت الامة العربية في هذه السنة على تخليد ذكرى شاعر العرب الاكبر ابي الطيب المتنبي ، فاحتفلت محافل الادب بذكره ، في اكثر البلاد العربية ، واصدرت المجلات او اكثرها اعداداً خاصة بالمتنبي عرض فيها الادباء آراءهم فيه وفي شعره

ولما كان اقرب عدد يظهر من المقتطف الى تاريخ وفاة المتنبي في ٢٧ رمضان سنة ٣٥٤ هو عدد يناير الذي يصدر في يوم ٦ شوال سنة ١٣٥٤ فقد رأى المقتطف ان يؤدي الى الامة العربية حقها عليه في احياء الادب ، فندب احد الادباء ان يبذل من ذات نفسه في قراءة المتنبي وتحقيق ما قيل عنه وعن شعره ، ليخرج للامة العربية صورة قريبة من الحق لشاعرها الاكبر

وقد جهد هذا الاديب في تنقية تاريخ الشاعر مما وقع فيه من الروايات الغريبة عن نسبه ونشأته ونبوته ورحلاته في البلاد العربية عند الامراء الذين مدحهم او هجاهم او اقام بينهم ، وكشف في تاريخه عن جهات لم يلتفت اليها الباحثون من المتقدمين او المتأخرين على فضلهم وعنايتهم ، فخرج ما كتبه عنه : ما يعدّ كتاباً عن الشاعر العظيم يقدمه المقتطف لقراء العربية ، عسى ان يكون سبباً في توجيه دراسة الشاعر وشعره الى ناحية اخرى غير التي درج عليها البحث القديم والحديث

وفي هذا العدد كلمات اخرى لبعض كبار الادباء عن شعر المتنبي ، ومجموعة هامة من قصائده ، ثم مجموعة اخرى من بلاغات المتنبي وحكمه جمعت مرتبة على الترتيب التاريخي لشعره ، تبين عن تدرج منهج الشاعر او اختلافه على مرّ الايام والسنين

مكتبة المقتطف

المختار

الجزء الاول — تأليف الشيخ عبد العزيز البشري — صفحاته ٢٣٨ ثمنه ١٥ قرشا

الشيخ عبد العزيز البشري ، امير من امراء البيان العربي الصافي كالبلور، الوهّاج كالذهب الابريز، يأخذك من بيانه الجزالة والوضوح . فالرأي يسوقهُ اليك لا يعتورهُ غموض والعبارة يرسلها قلقة كأنها المجنح . يتصل ذلك في الاقطاب الذين يترجم لهم (الباب الثالث من الكتاب) والمبتدعات الجديدة التي يصفها ، وخلجات النفس التي يحسّها (الباب الثاني) ، ونفحات التاريخ العربي والادب العربي (الباب الاول) يقلّبها على وجوهها ثم لا يقبلها في معرض الرأي الاّ وقد استقامت على اسس راسخة من عقله وحسّه وذوقه . فالفصول التي يحتوي عليها هذا الكتاب من الآيات الادبية . فهي تمتُّ من ناحية الى أعرق الاصول في ادبنا العربي المجيد، ومن ناحية اخرى الى حياة الذهن المصري في هذا العصر الحافل بضروب المعاني المستحدثة والآراء الطريفة . وقد اشار خليل بك مطران في مقدمته النفيسة الى اسلوب الشيخ الكريم فقال :

« ها هنا يمرّ المطالع بقلائد وفرائد من خطب وفصول في الأدب لا يخرج يتبعها ، ولا يحكم صوغها وتنظيمها الاّ قلم البشري ولسان البشري تحركهما نفس كبيرة الهم بعيدة المرامي، قنقة في مهاب الاهواء ومثارات المنازع ، فيّاضة بحب مصر والايثار العربية الفصحى لها لغة ، تتجنب التحقيقات العلمية ، والتعاريف المنطقية ، وان تبتغي الاّ اقتناع المتأدبين من طريق الباعث الغريزي فيهم ، ومن طريق اخبارهم بما يجري عند الامم الغربية الراقية من مثل ماعندهم ، بأن البيان يجب أصلاً ان يكون عربيًّا سليماً في اللفظ والاسلوب والاصطلاح ، وأن يتكيّف مع سلامته ومراعاته لتلك الأصول فينطبع بطابع النهضة المصرية التي لها ما تتخيره خاصة من تلك اللغة وتلك الأصول . فإذا أحيط البيان بهذا النطاق وصين من تسرب العجمة اليه ، فلا مانع يمنع من كل ابتكار وتجديد ، على ألاّ يعدو حدوده ولا يمسّ الخصيصة القومية في جوهرها »

المقدس

تأليف نقولا حداد — صفحاته ٢٩٢ — ثمنه ١٥ قرشاً

سفر عجيب ، لا هو بالرواية ، ولا هو بالتاريخ ، ولا هو برسالة في الاجتماع والاخلاق ، بل هو مزيج منها جميعاً، فيه علم، وفيه فلسفة، وفيه تحليل اجتماعي واقتصادي لمشكلات المدنية الحاضرة ومزايا المدنية المقبلة وهو الى ذلك مرسل في قالب القصة تقرأهُ فيذكرك بما طالعتهُ لولز من بنائع الخيال العلمي والاجتماعي ، ولكنهُ ليس ولز . وتنساق مع الفصل الاجتماعي فيه ، تمجيداً للمبادىء الاشتراكية المثلى، فتتذكر الكتاب الذي ظهر من شهر فقط في اميركا لسنكلير لويس حائز جائزة نوبل

الادبية ، وقد تصوَّر فيه انقلاباً فلسفيًّا في نظام الحكم في اميركا ، ولكن عنوانه دليل على رأي المؤلف الخاص اذ جعله « لا يمكن ان يقع هنا »

وهذا الضرب من الكتابة قد يبدو سهلاً لمن لم يتعمق في فهم مقتضياته ، اذ قد يُظَنُّ ان سحر الخيال فيه قد يغني عن ذهب الحقيقة . والواقع ان معاناة هذا النوع من الكتابة يحتاج في المقام الاول الى المام دقيق باتجاهات العلوم الطبيعية والاجتماعية الحديثة ، ومقدرة على التعمق فيها — لا يمكن ان تنشأ الاَّ من الفهم الصحيح — لاستنباط ما قد يكون محتملاً ، في المستقبل القريب او البعيد . ثم براعة في سياق هذه الآراء في قالب يستهوي القارىء ، فلا يميل عنه كما يميل في الغالب عن كتب العلم والاقتصاد والاجتماع ، بالغة مقدرة اصحابها على البسط ما بلغت

وليس كلُّ هذا بمستغرب من المؤلف ، وله روايات تُعدُّ بالعشرات ، ومؤلفات في الاجتماع والاقتصاد ورسائل في العلم ، تدلُّ جميعها على ذهن خصب ، وحياة قضاها صاحبها في التحصيل والتأمل ، وهذا الكتاب هو الاول من سلسلة ، تندمج فيها جميع هذه العناصر على هذا النحو البديع

الاسلام الصحيح

بحث وتحقيق — الفه الاستاذ محمد اسعاف النشاشيبي — مطبعة العرب بالقدس سنة ١٣٥٤

الاستاذ النشاشيبي من افذاذ العربية ، والمتحققين بعلومها ، والمتثبتين في نقولها ، والمصححين في تأويل كلامها وقد ملفق من زمن يجمع لكتابه (الاسلام الصحيح) ، كثيراً من النصوص المنتشرة في الكتب على غير نظام فالَّف بينها وابان عن معانيها ، وردَّ مختلفها الى الائتلاف وصحح ما وقع من الخطأ في تأويلها ، واقام النهج على ما يرى من صحيح عقيدته

وكان الذي حفز الاستاذ الى كتابه هذا جهل كثير من الناس بأصول الاسلام وتقصيرهم في دراسته وقد روى في اول كتابه انهُ وهو بمصر كان في زيارة صديق ، وعنده جماعة من فضلاء المحامين والمدرسين وانتهى بهم القول الى ذكر ما كان بين الامامين (ابن سعود والامام يحيى) ، وذكروا بعد في مجلسهم مذهب الزيدية والوهابية فخلطوا في امرها وزعموها من الاسماعيلية ثم يقول المؤلف :

« وقد رأينا ان ندفع ملتبساً ، ونزيل اشكالاً ونجلّي حقًّا ، بان نروي قولاً للشوكاني في الوهابية ، فيه انصاف مجتزئين به ، ونملي فصلاً مقتضباً في الزيدية وامامها ، ليعرف ما في نجد واليمن جاهلة ، ثم نجيء بأقوال في الامامة الاسلامية متبعيها بحثاً موجزاً عن آل البيت الذين ذكرهم الله في كتابه الكريم »

وقد توسع المؤلف في بحثه الاخير عن اهل البيت رضوان الله عليهم ، وجمع نصوصاً كثيرة فيما يتعلق بهم ، وباحكام الشرع لهم فيما يرون ، وابان ان الاسلام لم يأت بعصبية قبلية او عزوة جاهلية بل جاء تسوية بين الناس ، يستوي على سبيله العالم والجاهل والامام والمأموم والشريف والمشروف والكبير والصغير وانما اكرمهم عند الله اتقاهم ولا فضل لعربي على عجميّ الاَّ بالتقوى . ولا شك ان الاستاذ النشاشيبي قد بلغ فيه ما ازاد من الدقة والتحقيق وحسن العرض

وزارة الزراعة الفنية ومباحثها

كتاب الزراعة السنوي لسنة ١٩٣٣

اطلعت على كتاب الزراعة السنوي لسنة ١٩٣٣ الذي اظهرته وزارة الزراعة منذ اسابيع فأحسنت صنعاً اذ سهلت لمحبي الاطلاع الوقوف على بعض نتائج ابحاث فنيها وتجاربهم المتنوعة والاستفادة منها

وقد افتتح الاستاذ جلال بك فهيم وكيل الوزارة (السابق) — وهو من اخص كبرائنا وزراعنا الذين يعملون بتفوق وهدوء — الكتاب بمقدمة جامعة بعبارة وجيزة لاهم المسائل التي قامت ولا تزال تقوم بها الوزارة لترقية الزراعة ووسائلها يتخلل ذلك اشارات دقيقة وآراء مفيدة منها قوله (صفحة ع)

« وليست هناك مناطق معينة لنقل محصولاً اكثر وفرة من غيرها بدرجة محسوسة . والحقول الجيدة منتشرة في كل مكان وتكاد لا تخلو قرية من وجود حقل او اكثر هي في الواقع حقول نموذجية بلغ فيها الانتاج اقصى ما يمكن التفكير فيه . وكان المنتظر ان يقتدي عامة الزراع بما اتبع فيها وأن يترسموا خطواتها في الخدمة وطرق الزراعة والري والتسميد وما الى ذلك » — الى ان يقول — « ولا تدخر الوزارة جهداً في اذاعة المعلومات الصحيحة رجاء كثرة عدد الزراع الذين يلبون نداءها ويأخذون بنصحها . ولا يخفى ان هناك من العوامل المضادة ما لا تقوى الوزارة على تخطيه بسهولة . وكلما زادت الثقافة بين الزراع وانتشر التعليم اثمرت النصائح ولا شك عندي في ان مجهود الوزارة في دراسة كثير من المسائل الزراعية قد جاوز مستوى الثقافة العامة الذي بلغه عامة الزراع والى هذا يرجع السبب في عدم الوصول الى الحد الذي نتمناه جميعاً »

لذلك كنت وما زلت أقول انهُ يمكن الاستغناء عن قيطان النماذج وتوفير الكلفة والمجهود اللذين تبذلها الوزارة فيها الى ما هو ازم وانفع وانهُ لترقية الزراعة لا بد من تعليم الفلاح — راجع مقتطف يوليو سنة ١٩٣٢ ص ٢٣٣ ما كتبتهُ عن قيطان النماذج وص ٢٣٥ ما كتبته عن حالة الفلاح

ومن الحقائق والفوائد العملية التي اهتدى اليها قسم تربية النباتات وتهم جمهور الفلاحين : —

اولاً — الطريقة المعروفة بطريقة الزراعة الزملية للقطن (ص ٢٠ — ٢٣) غير اني احسب ان هناك مبالغة في تصوير فوائدها

ثانياً — عدم فائدة تطويش شجيرات القطن — ص ٤٩ — خلافاً لما كان يقوله البعض عن فائدتها لمحصول

ثالثاً — فائدة التبكير بحياكة القطن باجرائه بعد ثلاثة اسابيع من زرعه لا ضعف ذلك واكثر كما كان يتبعه البعض (ص ٥٠) ولكني ارى انهُ يحسن دراسة هذا الموضوع — موضوع وقت الحياكة — من جهة علاقته بتكاثر دودة القطن اذ ربما يكون تأخير الحياكة وعزق القطن مرتين قبلها

وما يقتضيه ذلك من تجفيف الارض وابادة الحشائش مفيداً في تقليل تناسل هذه الدودة ومنع تكاثرها اكثر من فائدة التبكير بها خصوصاً في الارض المحشة (الكثيرة الحشائش) وبالاخص في الجهات البحرية لا سيما اذا زرع القطن زراعة بدرية حيث الجو قليل الحرارة

(رابعاً) فائدة تعقير القطن (ص ٥٢)

واحسب ان ما ورد في ص ٥٠ من المسافات بين شجيرات القطن (ان يكون التخطيط ١١ خطًّا في كل قصبتين و ٣٠ سم بين الجورة والجورة) خاص بالجهات الجنوبية وما شابهها حيث الارض فائقة الخصوبة لانا نعرف بالاختبار انه في الجهات البحرية حيث الارض اقل خصباً يفضل ان يكون التخطيط ١٢ خطا او اكثر قليلاً بدلاً من ١١

واحسب ايضاً ان بعض ما ذكر عن نتائج الزراعة البكيرة للقطن (ص ٥١) ينطبق على الجهات الجنوبية خاصة اما في البراوي فان الزراعة الى ٢٠ مارس تعد زراعة بكيرة

***

اما بحث النظام الجذري في القطن وعلاقته بتفريع شجيراته فمن البحوث الجديدة العظيمة الفائدة التي يجدر بكل زارع مستنير معرفتها وكذلك ما ذكر في بحث مستوى الماء الارضي وان كان بعضهما يحتاج الى زيادة بيان

هذا ما خطر لي وأنا اقرأ بحوث قسم تربية النبات من الكتاب قراءة مستفيد بقدر جهود رجالنا الفنيين حق قدرها

وقد اعود الى باقي اقسام هذا الكتاب النفيس احمد الالفي

« هجاء »

بحث للدكتور بشر فارس — في ملحق دائرة المعارف الاسلامية

في العدد الاخير من ملحق دائرة المعارف الاسلامية بحث نفيس باللغة الفرنسية في « الهجاء » للدكتور بشر فارس . والبحث تاريخي اجتماعي دقيق ، يتناول مقام الهجاء في الشعر العربي ويردّه الى اصوله الاجتماعية مما لهُ صلة بالعرض عند العرب ، وهو موضوع الرسالة النفيسة التي احرز بها الدكتور بشر رتبة الدكتوراه العلمية من السوربون. وقد كتبنا اليهِ راجين ان يتحف المقتطف بترجمة هذا الفصل ، اذا سمحت بذلك دائرة المعارف الاسلامية واتسع لها وقته

وبعد فانا يسرنا ان يحرز احد شبابنا المتفوقين المولعين بالعلوم الشرقية هذا المقام في دوائر الاستشراق الاوربي ، فيعهد اليهِ في كتابة فصول في دائرة المعارف الاسلامية ، ويضاعف سرورنا ان المؤلف من نوابغ الكتّاب الذين يتحفون المقتطف بآثارهم النفيسة

١ — السهام

نظم الياس فنصل — ٨٧ صفحة حجم متوسط — طبع بالمطبعة السورية في قاسمة الارجنتين

« ان من تقيدت بلاده بالسلسلة والغل ليس حرًّا وهو بعض منها ؛ ومن لم يكن حرًّا فلن تتفتق نفسه عن شعر حر ، فسعينا لاستقلال بلادنا سعي لحرية شعرنا ايضاً » . . . ذلك ما يقوله الشاعر الياس فنصل ناظم هذا الديوان الذي يضم مجموعة من شعره الوطني ، وان هذا الاحساس ليخالج نفس كل شرقي ؛ والشرق في حاجة الى هذا النوع من الشعر ليوقد فيه الجذوة الخابية وليثير في نفوس ابنائه الاباء والعزة ويشعرهم بما لهم من حقوق وما عليهم من تبعات نحوها . وليس احد أجدر من شعراء العاطفة بالنفخ في بوق الحرية ؛ ولقد رأينا الشاعر القروي يفلت من جو الهدوء مودعاً قيثاره الحنون الى جو صاخب مصطخب فيه بوقاً عالي الصوت قوي التأثير ، فأخرج ديوانه الاصاير . واليوم نرى الياس فنصل يترك قيثارته العذبة وألحانه الهادئة الشجية ليزأر ويصول ويثير النفوس ، ولهذا أقرأ الآن ديوانه « السهام » معجباً بهذا الروح الذي يجب أن يسود في هذه الايام التي تلوح للشرق بفرص ذهبية قد لا تعوض . . .

وفي هذا الديوان مقطوعات بلغت من الاجادة في السبك والروح الشعرية مبلغاً طيباً كقصيدته « آمال تتجدد » التي رثى فيها الملك فيصل ، و« رسالة المهجر الى الوطن » وقصيدته الى سلطان الاطرش وقصيدته « معاذ الله ! » وغيرها من القصائد الاخرى التي يزخر بها هذا الديوان . على اني احس ان روح الشاعر قد فترت حماستها في آخر قصيدة « معاذ الله ! » فانقلب وصافاً يرسم دمشق بريشته الاولى ويتشوق اليها فتحس الصلة منقطعة بين الابيات الموجودة بالصفحة ٤٥ وبين ما سبقها في هذه القصيدة

فنتمنى ان تكون هذه السهام مصيبة الهدف الذي وجهها اليه وان تكون باكورة جهاد فوز

٢ — ديوان الاسكندرية

أشرحه وكتب مقدمته علي محمد البحراوي — نشرته جماعة نشر الثقافة في ٢٠٨ صفحة من الحجم الصغير — طبع مطبعة المستقبل بالاسكندرية

ليس من ينكر ان في الاسكندرية حركة فكرية طيبة تعمل في سكون وهدوء . وكل من انيحت له زيارة هذا الثغر الباسم في جلوته الصيفية أدرك اثر هذه الحركة ولمسها باليد غير ان العامل القوي الذي يجلل هذه الحركة بالسكون ويجعلها تتنسم بثوب الصمت هو ما اشار اليه الاستاذ البحراوي في مقدمته الرائعة وهو عدم توطد الحياة الصحفية في الاسكندرية ؛ والصحف هي التي تحتضن النهضات الادبية وتتعهدها بالنمو والازدهار ، ولذلك فان حركة النشر تضعف تبعاً لذلك وتأخذ سبيلها الى العزلة

ولقد أدى الاستاذ البحراوي الى الادب العصري أجلّ خدمة بإخراج هذه المجموعة من منظوم شعراء ذلك العصر على اختلاف مناحيهم ، والكثير منهم ليس بالمجهول ، فلقد ضمت هذه المجموعة شعراء معروفين كالاساتذة خليل شيبوب وعبد الرحمن شكري وعبد اللطيف النشار وابراهيم زكي وعثمان حلمي وغيرهم ، وضمت الى جانب ذلك زهرات غضة من آدابهم على أن الذي ألاحظه ويلاحظه الكثيرون هو خلوّ الديوان من صور للاسكندرية في أجمل أوقاتها حيث تتجلى آية من الفن جمالاً وفتنةً وسحراً وشعراً حيًّا وثّاباً ، ولعلّ أحياء الحياة ومشاغلها هي التي تشغلهم عن التمتع بهذه الفرصة التي ينتهزها أخوانهم القاهريون ويعردون منها محمّلين بأبدع وحي وأجل ذكرى . نتمنى ان يكون حظ الجزء الثاني من هذا الديوان في مرتبة الجزء الأول قوة وإبداعاً

حسن كامل الصيرفي

القاهرة

الجزء الثاني — تأليف اللازم الاول — عبد الرحمن زكي صفحاته ٢٠٢ —

كثير الصور والرسوم — ثمنه ١٠ قروش

قدمنا الى قراء المقتطف في السنة الماضية الجزء الاول من هذا الكتاب التاريخي الأثري النفيس مغتبطين ان نرى بين ضباطنا الشبان من يُعنى باتفاق فراغه في الاشتغال بالمسائل العقلية بوجه عام وبناحية من تاريخنا القومي بوجه خاص . ولعلّ خير ما نسوقه الى القراء في تعريف الجزء الثاني من هذا الكتاب : كلمة كتبها العالم بالآثار الاسلامية الدكتور زكي محمد حسن . قال :

ظهر الجزء الاول من هذا الكتاب في العام الماضي فكنت من اشد الناس اغتباطاً به وابتهاجاً بظهوره ولا غرو فقد سد في عالم التأليف العربي فراغاً كبيراً اذ كان من العار ان لا يوجد في اللغة العربية كتاب بل كتب حديثة عن عاصمة الديار المصرية وان تطرق ابواب الاجانب لتهديهم ما نحتاج اليه في دراسة تاريخها وآثارها

ويسرني اليوم ان اقدم الى القراء الجزء الثاني من كتاب القاهرة وأنا حريص الحرص كله على ان اوفي المؤلف حقه من المدح والثناء ليس فقط لانه احسن القيام بما اخذه على عاتقه فأفلحت محاولته ولم يضع جهده عبثاً بل لاني كنت اخشى ان يقعده عن اتمام هذا الجزء ما يحسه ويشعر به هو وغيره من المؤلفين في مصر من قصور في تشجيعهم وتقدير ما يبذلونه من جهود كبيرة ولا سيما حين ينهضون بعبء الكتابة في موضوعات لم يسبقهم كثيرون الى البحث فيها ولا تنعم دراستها الا بثبات خاصة بينما يقابلها سواد الناس بشيء من الوجوم والاستخفاف

وليس هذا الجزء من كتاب القاهرة بأقل طلاوة من الجزء الذي سبقه فنهاج البحث فيهما واحد والعصر الذي يعرض لنا المؤلف صورته هنا ليس أقل شأناً من العصور التي سبقته بل ان

في هذه الصورة ما يبعث على تفكير أكثر لتعمق حقائقها وتعرف ما وراءها

وفي الواقع ان انحلال دولة المماليك وتفككها بينما كانت الدولة العثمانية تسير بخطى واسعة الى التوطد والنماء جعل مصر فريسة هينة لها وكان استيلاء العثمانيين على وادي النيل وانتزاعهم الخلافة الاسلامية ايذاناً بانتهاء مرحلة العصور الوسطى في مصر وابتداء العصور الحديثة بما فيها من علاقات سياسية متصلة بالامبراطورية العثمانية والعالم الاوربي

وقد وفّق المؤلف كل التوفيق في شرح الحوادث التاريخية التي مرّت بمدينة القاهرة عند استيلاء السلطان سليم حتى أشرق نجم محمد علي باشا الكبير فنجح في وضع الحجر الأساسي لاستقلال مصر الحديث . وجاء خلفاؤه من بعده فعملوا على تدعيم هذا الاستقلال . وعرض المؤلف في هذا الجزء صورة بديعة للقاهرة وتطور فن العمارة فيها وما أصابه وبقية الفنون من تعضيد أو غيره على يد الذين استولوا على أزمة الحكم في وادي النيل

وربَّ معجب بطريقة المؤلف لم يكن ذلك الاعجاب ليمنعهُ من مناقشته في امور قليلة ليكون كتابه اقرب ما كتب عن القاهرة الى الاتقان والكمال ولكن علينا ان نذكر ان الملازم الاول عبدالرحمن زكي عمل على ان يلائم بين كتابه وبين عقول سواد القراء وأخذ على عاتقه ان يلتزم الايجاز وان يترك التحليل والدقة والاستقصاء الى المفصّل من كتب التاريخ والفنون والآثار . ومهما يكن من شيء فان رجاءه على هذا الكتاب انما هو تمهيد السبيل ليستطيع غيره أن يصل الى حيث لم يصل فعسى أن يحرص القراء على الانتفاع بما كتب وأن يبعث ذلك فيهم روح التزيد من البحث والانعام في دراسة كتب الفنون والآثار

المدرسة المستنصرية

هذه هي الرسالة الأولى من رسائل (نادي المثنى) ببغداد ، وهي تكشفُ عن الهمّة التي يقوم بها اعضاء النادي في خدمة العربيّة ، وإنقاذ مخلّفات مجدها من الضياع . وقد قدموا هذه الرسالة بعد سعيهم عند دار الآثار العراقية في المحافظة على هذه المدرسة ، والتفاهم معهم على ترميمها وإصلاحها . وبانيِ هذه المدرسة هو المستنصر بالله أمير المؤمنين ولي الأمر سنة ٦٢٣ هـ ويعدّه كثير من المؤرخين من أعلى خلفاء بني العباس كعباً في خدمة الدولة ، وإقامة السلطان ، وبذل النصفة بين الناس بالعدل ، وردّ الناس الى شريعتهم من الدين ، وكان هو هازم التتر ورادّهم على أعقابهم حين قصدوا اول مرّة العراق ، ولم تزل التتر في كرب منهُ ومن اخيه الخفاجيّ ، ولم يظفروا في مدة ولايته بشيء وتوفي المستنصر بكرة الجمعة ١٠ جمادى الآخرة سنة ٦٤٠ هـ ودفن في الدار المثمنة بدار الخلافة على شاطىء دجلة ، ثم نقل بعد الى مدفن كان أعدّه لنفسه . وذهب الخليفة وبقيت مدرسته التي بناها موئلاً للعلم والدين ، ومناراً يهتدي بهِ المسلمون ويأوي اليهِ الأئمة ، وأثراً جميلاً من اروع الآثار الاسلامية ، وأدقها لفاتاً ونقوشاً وفي هذه الرسالة صفة هذه المدرسة الجميلة

لباب الآداب

تأليف الامير اسامة بن منقذ — طبع بتحقيق الشيخ احمد محمد شاكر — مكتبة لويس سركيس بالفجالة

هذا الكتاب من تأليف الامير النبيل والفارس المغوار والشاعر الاديب والرحالة الصياد اسامة ابن منقذ (١٠٩٥—١١٨٨ م) الذي نشأ وترعرع في قلعته المنيفة شيزر على العاصي في شمال سورية، وقضى شطر حياته الحافلة متنقلاً بين دمشق والقاهرة والموصل وسائر الحواضر الاسلامية، يجاهد ضد الافرنج الصليبيين، ويكافح الاسود الضواري، ويعاشر زنكي ويصطاد مع نور الدين ويصاحب الخليفة الفاطمي ويتعرّف بزعماء الافرنج وينظم الشعر ويؤلف الكتب. فحياة اسامة تمثل الفروسية العربية على ما ازدهرت في ربوع الشام والتي بلغت قمة ازدهارها في صديقه وظهيره صلاح الدين. فالكتب التي الفها اسامة نافذة تشرف منها على المدنية العربية السورية بحد ذاتها وبالمقابلة مع المدنية الافرنجية

ومن خير الكتب التي صنفها هذا الامير الاديب، كتاب «لباب الآداب». وهو من اجود كتب الادب واجمعها، فقارئه ينتقل فيه من روض الى روض، فيجتني ازاهير الحكمة ودوائع الادب ويقتبس مكارم الاخلاق. وفيه ميزة اخرى جليلة. ذلك انه فيه اقوالاً من نثر ونظم لم نجدها في كتاب غيره من الكتب المطبوعة. فقد وجدنا ابياتاً لعامر بن الطفيل لم تذكر في ديوانه المطبوع في اوربا مع أن المستشرق الذي طبعه جمع فيه كل ما وجد لعامر في الكتب الاخرى. ووجدنا ابياتاً لمالك ابن حريم الهمداني لم نجدها في غيره من الكتب وكذلك لابن المعتز ولابي العلاء المعري ولغيرهم» (فاتحة المحقق صفحة ٦)

وكان المرحوم الدكتور صروف يملك النسخة الاصلية من هذا الكتاب النادر. وهي نسخة المؤلف الخاصة، اي نسخة أسامة نفسه كتبت في حياته ثم أهداها الى ابنه مرهف بن أسامة

وقد أهدى الدكتور صروف نسخة فوتوغرافية من هذا الكتاب الى دار الكتب المصرية. وعلى أساسها شرعت مكتبة لويس سركيس في طبعه، بعد ان عهدت الى الشيخ احمد محمد شاكر في تحقيق الكلام ووضع الفهارس، ولكنه ما كاد ينتهي من طبع ثلث الكتاب حتى دلّه الشيخ محمد عبد الرسول على نسخة اخرى من الكتاب وكانت مذكورة في الفهرس القديم في باب علم التصوف. فاستعان بها في التصحيح. ويقول المحقق في هذه النسخة الثانية انها غير جيدة وفيها تحريف كثير ولكنها على كل حال أعانته في غير موقع على التثبت مما غمض عليه في ألواح النسخة الصروفية، مستعيناً بشقيقه محمود وبالشيخ محمد حامد الفقي

فلباب الآداب كما أخرجه الشيخ احمد محمد شاكر، مخدوم بتحقيق قلما يتاح لكتاب قديم، وبفهارس خمسة لابواب الكتاب وأعلامه وأماكنه وأيام العرب وقوافي الشعر

والحق أنه تحفة من تحف الادب العربي المجيد، ولا نحالنا الا مفيدين منه الادبين أدب النفس وأدب البيان اذا اكببنا على مطالعته

كتاب الزراعة العملية الحديثة

تأليف الامير مصطفى الشهابي عضو في المجمع العلمي العربي ومدير وزارة الزراعة والتجارة بدمشق ومهندس زراعي (غرينيون) طبعة ثانية في ٥٠٠ صفحة وثبت تحتوي على ١٣٩ شكلا

موضوع الكتاب . يبحث هذا الكتاب التربة الفائدة في تكوين الاتربة الزراعية وتركيبها وخصائصها والاقاليم الزراعية السورية ونبذة في علم حياة النبات والاعمال الزراعية العامة والاستقاء وصرف المياه الزائدة والمصلحات والاسمدة ويصحبها بحث في جولوجية الشام الزراعية والدورة الزراعية وتعاقب الزروع . وهذه الابحاث كلها يطلقون عليها اسم الزراعة العامة . اما الابحاث التي يسمونها الزراعة الخاصة فقد تناول المؤلف منها زراعة اهم النباتات في ديار الشام منها ، اولاً الحبوب على انواعها كالحنطة والشعير والذرة والرز . ثانياً القرنيات كالفاصوليا والبسلى والعدس والفول . ثالثاً نباتات الكلأ والمروج كالبرسيم والقصفصة (القت او البرسيم الحجازي) . رابعاً النباتات السكرية (الدرنية) كالبطاطس والبنجر او الشوندر واللفت . خامساً النباتات الصناعية المختلفة كالقطن والقنب والكتان والسمسم والخروع والحناء الخ . سادساً النباتات المختلفة كالتبغ وقصب السكر والكمون والسماق وغيرها . وقد اسهب الامير في كل ما لهُ علاقة ماسة بزراعة الديار الشامية كالحنطة والتبغ والسمسم والقنب والقطن الذي يزرع على المطر واوجز في النباتات الاخرى . وجميع الابحاث نتيجة دروسه الخاصة عدة عشرين سنة في المخابر او المزارع . ومما لم يسبقه اليه احد في الابحاث العلمية تحليل اصناف النباتات ورسد الجويات ١٨ سنة متتابعة وغير ذلك مما يجعل للكتاب قيمة علمية عملية ليست في غيره من الكتب الزراعية في ديار الشام خاصة

لغة الكتاب . اما لغة الكتاب فلا يختلف اثنان في ان الامير هو علامة العربية الاوحد في المصطلحات الزراعية وانهُ فيها نسيج وحده فلذلك جاءت هذه الطبعة في لغة ما كتبت الزراعة بأصلح منها منذ صدر الاسلام . ومن المصطلحات التي لفتت نظرنا اسماء الآلات الزراعية والاسماء التي وضعها [1] لنباتات الكلأ المختلفة واسماء بعض امراض الزروع

منها الضجعان او الغمل لما يسمى بالفرنسية Vers وتسمية الترقيد اي ميل سوق الحنطة نحو الارض لقلة صلابتها . والبشق والرصع لمرض اختناق جذور الحنطة . والشقران لمرض الصدإ وهو بالفرنسية Rouille والشواد لمرض المسى Charbon الخ الخ ومن الامثلة التي تدل على علو لغة الكتاب هذا المثال الصغير عن اصناف الفاصولياء قال (صفحة ٣٠٤)

« الفاصولياء العريضة . — سوقها متسلقة واوراقها كبار غلاظ خشنة وقرونها طوال عراض وبذورها بيض كبار مفلطحات . وهذا الصنف من اكثر الاصناف شيوعاً بدمشق »

ولم يأنف الامير من استعمال كلمة كيميائي نسبة الى كيمياء وقد ذكر لي انهُ راجع في ذلك شرح الشابي للرضي فثبت له اثبات الهمزة في مثل كيميائي بلا ادنى ريب

(١) انظر مقالاً في هذا الجزء من المقتطف ص ٥٨٧

ومما اذكره ان استاذنا الدكتور صروف رحمهُ الله عند ما أُهديت اليهِ نسخة من طبعة هذا الكتاب الاولى ذكر في المقتطف ان هذا الكتاب هو كتاب السنة . ولا ريب في انهُ لو اطلع على هذه الطبعة بعد ان مُحت لغتها ونقحت ابحاثها وعُرضت اجود المصطلحات الزراعية لما تردد بان يجعلها « كتاب السنة » في يومنا هذا . فعسى ان يتحفنا الامير بكتب كثيرة من المؤلفات المفيدة

مصر الجديدة امين المعلوف

قصص جغرافية للاطفال

الجزءان الاول والثاني : لفنجستون وستانلي — لكامل كيلاني — نشرته المطبعة العصرية

لم نكد ننتهي من كتابة الكلمة التي نشرت في مقتطف اكتوبر الماضي عن جزئي كتاب القصص العلمية ، حتى انتهى الينا جزءان آخران من كتاب جديد ، هو كتاب القصص الجغرافية ، إلا أننا لم نر في ذلك مفاجأة تستجلب الدهشة ، فقد ألفنا من المؤلف — كامل كيلاني — خصلتين : السرعة ، والتتابع فيها ، وقد يقاسمه الاولى كثيرون من المؤلفين ، أما الثانية فليس لها الا امثال هذا المؤلف الجادّ ، وهم قليلون

وقد لاحظنا أن كتاب القصص العلمية كان من اخراج مطبعة المعارف ، أما كتاب القصص الجغرافية فأخرجته المطبعة العصرية ، فلعلّ الاستاذ كاملاً يجد ان داراً واحدة من دور النشر يقوّيها لحانه ، ويتعذر عليها اسعافه ، فوزع مؤلفاته على دور شتى ، لكي تتمكن من مسايرتها له . او لعمل بقول يعقوب « يابني : لا تدخلوا من باب واحد ، وادخلوا من أبواب متفرقة » فهو ملتمس بذلك تعويذ مؤلفاته — حفظها الله — من العين ! . . .

اشتمل هذان الجزءان من كتاب القصص الجغرافية على ترجمة حياة لفنجستون وستانلي يتخللها مجموعة من الاساطير الطريفة . وطريقة المؤلف في كتابه ان يعقد حواراً بين رجل وأبنائه ينتهي بالموافقة على سماع قصة الكشاف ، فاذا صُحيح فصل منها ، انعقد الحوار مرة ثانية ، ووفق فيهِ على سماع اسطورة ، فاذا انتهت تلك عاد الحوار مرة اخرى ، ثم صُحيح من القصة فصل آخر . وعلى هذا المنوال نُسجت فصول القصة كلها فجاءت الأساطير بمثابة الوشي والتطريز لهذا النسج الجميل

والحق ان ذلك المساق يضمن للأطفال دوام النشاط والانتباه في القراءة ، ومن البداهة ان نشاط الطفل وانتباهه امر ضروري يتوقّف عليهِ استفادته مما بين يديهِ من الكتب . وإن إجادة المكاتب للاطفال لتختلف باختلاف ما في كتابته من التحيل لذهن الطفل الغضّ الذي تضره الشدة والصرامة ، وملاينة فكره المُدكّل الذي يمنعهُ العنف ان يتأثر بما يقرأ

والكتاب في شكله فتنة أخّاذة ، فقد بُذلت في صوره الموفورة عناية تشهد ببراعة الذوق ، وقد طبعت فيهِ الحاورات والاساطير بحروف حجمها غير حجم الحروف التي طُبعت بها فصول القصة الجغرافية ، فاكتسب الكتاب بذلك رونقاً وطراقة تأخذ العين ، ثم تمعن في اخذها !

***

يوبيل مجلة العرفان

لا يخفى على احد ما تقدمهُ الصحافة الرصينة للأمة من الفوائد فهي مرآة لروح القومية من شعور عام ومبادىء وأدب وهي مرقاة لليقظة الفكرية والنشاط الأدبي والوطني معاً . وقد اجمعت الشعوب على ان الصحافة هي عنوان رقي الامم . والصحافة ولا سيما الادبية والعلمية تواجه في الشرق عقاباً شتى أدبية ومادية تكاد تقضي عليها لولا جهود منشئيها الجبارة ولولا لدة الثبات في العمل

وفي طليعة صحفنا الأدبية مجلة « العرفان » تباري مع أرقى المجلات العربية مادة واسلوباً . فقد ثبتت في طريق كلها اشواك ومتاعب . ومتى عرفنا ان عشرات من الجرائد والمجلات في سورية ولبنان قد توارت في هذا الزحام الشديد اتضح مقدار الجهود الخطيرة التي يبذلها صاحب العرفان الكريم الشيخ احمد عارف الزين لحفظ كيان مجلته في هذا المعترك الادبي وهذا التنازع المستديم . والخدمات الادبية التي ادتيها هذه المجلة العزيزة عديدة واسعة النطاق تكتفي ان نحصرها في نقاط ثلاثة :

فهي اولاً (مجلة جبل عامل) هذا الجبل الأشم صاحب التاريخ المجيد في السياسة والأدب والذي يحق له أن يدعى « يرناس » لبنان حيث يولد الشعر النطري مع كل فرد من أبنائه . فطالما افسحت هذه المجلة صدرها لنفحات أدبائه الذين قلما يتسنى لهم ان يتصلوا بصحف أخرى لنشر ما تجود به قرائحهم . وقد كان لها فضل كبير في انارة الرأي العام وتوسيع نطاق التفكير وبث روح النهضة في منطقة مهملة في كثير من حقوقها . ولا ننسى فضل مطبعتها في نشر مئات من المؤلفات التي لا يتسنى اصحابها من طبعها لولا تساهل صاحب العرفان ومؤازرته الفعالة لهم

ثانياً — هي مجلة (الشيعة الكبرى) في جميع انحاء العالم في العراق كما في سوريا ولبنان وهذه الميزة تكفي لان تحفظ لها الاحترام والمرتبة التي هي اهل لها . فهي أداة تعارف بين الأوساط الفنية من أدباء وعلماء على اختلاف بلدانهم . وحسبها فخراً انها اول صحيفة عرفتنا بادباء العراق المجددين امثال الشبيبي والشرقي والجواهري وغيرهم من كبار ادبائهم وقد دعاها ادباء العراق « مجلة العراقيين » فلا عجب إذ رأينا كرام هذه الطائفة العزيزة في مختلف الاقطار مستمدين لتكريم العرفان

ثالثاً هي (مجلة العرب) فإن المجلات العربية محصورة في الغالب في القطر الذي تصدر فيه ماعدا مجلتي « المقتطف » و« الهلال » وهما في نظر المفكرين نواة وحدة الثقافة والآداب في العالم العربي وعلى هذا فإنا نرى ان « العرفان » المنتشرة ايضاً في كل قطر عربي وفي المهجر لها مع « الهلال » و« المقتطف » نصيب وافر في تكوين عناصر هذه الوحدة الأدبية المنشودة . ولا بدع إذاً إذاً رأينا انصار هذه المجلة في جميع الاقطار على أتم الاستعداد للاشتراك في الاحتفال « بيوبيلها الفضي » ومؤازرتها ماديًّا وأدبيًّا . وقد ترامى الينا انه فضلاً عن الحفلة الأدبية الكبرى التي ستقام لها في صيدا في الربيع القادم والتي سيشترك فيها أمراء البيان في الأدب العربي سيقام لها ثلاث حفلات في نيويورك والارجنتين والعراق . وسوف يعين تاريخ موعد الحفلة في هذين الشهرين وستوضع الحفلة تحت رعاية الحكومة المحلية التي تقدر قدر الادب وذويه

« ملخص من بيان لجنة الاحتفال »

باب الأخبار العلمية

العين وطول العمر

مدى الحياة تعينه الوراثة

مباحث عالم ألماني

لماذا يتقلص الجلد وينكمش ويضعف البصر ويمقت الشعر وتبطىء الخطى ويخف السمع ويشيخ الجسم برجه عام؟

وهل الشيخوخة داء؟

قبل ان يرتقي الطب فيحسب في عداد العلوم كانت هذه الاسئلة تقلق البال وتحمل على التفكير والبحث. فجعل كهاويو العصور المتوسطة همهم البحث عن اكسير الحياة وينبوع الشباب

وقد تضحك الآن من المعتقدات التي كانت تسيطر على عقول الناس حينئذٍ لاننا نظن ان بعض المعارف العلمية قد حررتنا من نيرها ولكننا مع ذلك لا نزال كما كانوا يقلقنا كل ما يتعلق بالهرم والشيخوخة ولا نزال نعنى بالبحث عن اسبابهما ووسائل اتقائهما

هل يضعف الجسم ويسير الى القبر لان الوسط الذي نعيش فيه يقوى عليه — يقوى بجراثيمه المتنوعة واختلاف حرارته وبرده ورطوبته؟ واذا كنا نفسر الموت بانحطاط الجسم وحؤوله، فكيف نفسر تعمير اقطاب من امثال غلادستون وبسمارك وكيف نعلل اينا وفاة عيقري كموزار في ما يكاد يكون في شرخ الشباب؟

هذه خواطر تخطر للباحث بعد اطلاعه على مقال للعلامة الالماني الاستاذ فوخت. فقد عمد هذا البحاثة الى تبين اسرار الهرم والشيخوخة والتعمير في التوائم

فبحث ما استطاع عن توائم كل توأمين منها متشابهان تمام التشابه أي انهما اشتقا من بيضة واحدة فتشابه بناء جسميهما في كل تفصيل دقيق حتى ليتعذر في الغالب على والديهما ان تفرق احدهما عن الآخر. فعثر بعد السهر والسعي على تسعة عشر زوجاً من التوائم التي من هذا القبيل وكانت اعمارها تختلف من ٥٥ الى ٨١

والاستاذ فوخت مدير عيادة العين في جامعة زوريخ. فكان من الطبيعي ان تتجه عنايته الى فحص عيون التوائم لتبين اثر السنين فيها — في بؤبؤتها ومائيتها وقرنيتها وشبكيتها وسائر اجزائها

وكانت النتيجة التي اسفر عنها بحثه من اعجب ما يكون

فقد ثبت له انهُ مهما يكن الاختلاف في نشأة التوأمين وسواء عاشا معاً في وسط واحد او فصل احدهما عن الآخر فعاشا في وسطين مختلفين فان حالة عينيهما كانت واحدة. اي ان

آثار تقدم العمر كانت واحدة في كل من التوائم التي فحصها فالانحطاط النسيجي في القرنية والشبكية والبلورة والمائية كان واحداً في كل زوج من من التوائم التي فحصها

ولكن التشابه لم يقتصر على العين

بل وجد ان شعر الفروة يستطيل في كلا التوأمين في وقت واحد او يشيب في بقعة واحدة

بل انهُ وجد تشابهاً عجيباً في تجعد الجلد وانكماشه وغيره من بوادر الهرم

***

ولا يخفى ان علماء الوراثة قد انفقوا وقتاً طويلاً في درس آفات العين وانتقالها بالوراثة او عدمه فاجتمع لديهم من الادلة ما يدلُّ ان العيون يضعف بصرها في الاسر وفقاً لقاعدة معينة . وقد اثبتت مباحث فوغت صحة هذا الرأي

ويخلص الاستاذ فوغت من المباحث التي تقدم معنا ذكر طرف منها الى النتيجة التالية وهي ان الوسط لا أثر كبير له في موضوع التعمير والشيخوخة وعنده ان مدى حياة الانسان معين من قبل الولادة بعوامل وراثية خاصة وان كل عضو من اعضاء الجسم له مدى خاص من الحياة . وهذا يعني ان التعرض للعوامل الطبيعية لاينجم عنه امراض او عوارض تقصر مدى الحياة . ولكنه يعني انه اذا عني الانسان بمعيشته الصحية عناية معقولة فليس للوسط الذي يعيش فيه تأثير كبير في طول حياته أو قصرها وهذا يتفق من ناحية ما والى حد ما مع رأي الدكتور ستريتر مدير قسم البيولوجيا الحيوانية في معهد كرنيجي . فهو يقول ان المرض ليس نتيجة مباشرة للجراثيم الضارة فاجسامنا لا تستطيع ان تقاوم هذه الجراثيم مقاومة متساوية والمحذال اجسامنا امام حملاتها او فوزها في رد شرورها يتوقف على نشاط الخلية وعلى قوة النسج الحيوية ونشاطها . وقوة النسج تتوقف على تركيبها وهذا يعود بنا الى البيضة التي نشأت منها . فالتعمير او الموت في شرخ الشباب اذا تساوت جميع العوامل الاخرى يتوقف على ما ترثه من والدينا

هل حقن الاكسجين

ينقذ حياة الغرقى

يؤخذ من مباحث طبيب هندي يدعى الدكتور صنج يقوم بمباحث علمية طبية في جامعة كمبردج احياناً وكلية والفون الطبيعة احياناً اخرى ان حقن الاكسجين في العروق قد يكون السبيل لانقاذ حياة الغرق أو المصابين بنوع خاص من النزلة الشعبية او غيرها من الحالات التي يصعب فيها التنفس على المريض

فقد تمكن هذا الطبيب من الاحتفاظ بكلب حيًّا مدة ١٦ دقيقة بحقنه بهذه الحقن مع ان الكلب ظل خلال هذه المدة لا يتنفس الاكسجين عن طريق الرئتين . وكان ضغط الاكسجين المحقون في العروق ثلاثة اجواء ، ولولا خطأ في اسلوب الحقن لاستمرت التجربة اكثر من ١٦ دقيقة . وقد نشرت مجلة اللانست الطبية هذا النبأ وعلقت عليه بمقال افتتاحي

والخطوة التالية هي تطبيق هذه التجربة على الناس

جائزتا نوبل

في الطبيعة والكيمياء لسنة ١٩٣٥

حملت الينا الانباء البرقية ان جائزة نوبل في الطبيعة منحت للعالم الانكليزي الاستاذ شدك — وان جائزة نوبل في الكيمياء منحت للعالم الفرنسي الاستاذ جوليو وقرينته مدام ايرين كوري جوليو وهي ابنة الاستاذ كوري وزوجته اللذين اشتهرا باكتشاف البولونيوم والراديوم

والى القارىء طرفاً من المباحث التي قاموا بها جميعاً فاستحقوا الجائزتين عليها

في اوائل سنة ١٩٣٢ أذيع في انكلترا ان الاستاذ شدك كشف دقيقة مادية جديدة اطلق عليها اسم النوترون وهذا الاكتشاف اقوى دليل على عالمية العلم وشيوعيته . ذلك ان طوائف مختلفة من العلماء في بلدان مختلفة مهدوا بمباحثهم الطريق لكشف النوترون على يدي شدك الانكليزي

ففي سنة ١٩٣٠ كان العالمان الالمانيان بوث وبكر يطلقان دقائق الفا على لوحة من معدن البريليوم . فكانت الدقائق المسددة الى تلك اللوحة تصيب نوى ذرات البريليوم فتطلق هذه من تلقاء نفسها اشعة غريبة شديدة النفوذ فظن انها من قبيل اشعة غما التي تخرج من الراديوم وانها تفوقها طاقة وقدرة على نفاذ المواد .

وفي سنة ١٩٣١ قام الاستاذ جوليو وزوجته كريمة مدام كوري بتجارب من هذا القبيل ولكنها اوسع نطاقاً واضبط احصاء وادق حساباً

واظهر ما ظهر في هذه التجارب ان الاشعة الخارجة من البريليوم — او ما يحل محله من المواد — اشد طاقة عشرة اضعاف من الاشعة الموجهة اليه . ففرض جوليو وزوجته ان هذه الاشعة امواج تقع بين اشعة غما التي تخرج من الراديوم والاشعة الكونية وهي اقصر الاشعة المعروفة امواجاً واقواها نفاذاً

واطلع شدك على هذه التجارب ونتائجها فاعادها ووجد ان فرض ان هذه الاشعة امواج لايتفق والنتائج الرياضية ولكن اذا فرض انها تيارات من دقائق وزن كل منها واحد (اي كوزن ذرة الايدروجين) ومتعادلة الكهربائية (اي ان كهربائيتها السالبة تعادل كهربائيتها الموجبة) وتسير بمثل سرعة الضوء كفى ذلك لتفسير الحقائق المشاهدة . ودعا الدقيقة التي تتصف بهذه الاوصاف باسم « النوترون » اي المحايد (من محايدته الكهربائية)

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان مباحث جوليو وزوجته التي افضت الى اكتشاف النوترون افضت بهما كذلك الى استنباط طرق جديدة لتوليد اشعة اقوى من اشعة الراديوم وهو ما يعرف في علم الطبيعة الحديث باسم الاشعاع الصناعي Artificial Radio — Activity

علاج الانيميا الخبيثة

بالكبد في الجدري

في اواخر السنة الماضية منحت مؤسسة نوبل العلمية جائزة نوبل الطبية لثلاثة اطباء اميركيين هم مينو وهويل ومرفي لاستنباطهم طريقة معالجة الانيميا الخبيثة بالكبد . وقد فصلنا عملهم في المقتطف والكتاب الجديد الذي اهديناه الى المشتركين بعنوان « اساطين العلم الحديث »

وقد اطلعنا الآن في رسالة العلم الاسبوعية

على ان حقن خلاصة الكبد في العضلات يوقف سير الجدري ويقصر مدة المرض ويمنع حدوث نقط الجدري الذي يترك الوجه مشوهاً في بعض الاحيان بما يتركه من الندوب ويحسن حالة المريض بوجه عام

وقد اكتشف هذه الحقائق الدكتور غوفندان نير احد اساتذة كلية فيزغاباتام بمقاطعة مدراس في الهند . فقد جرب الدكتور نير بمساعدة الدكتور اديسو براماناين احد اطباء مصلحة الصحة حقن خلاصة الكبد في ٢٨ مريضاً في خلال وباء حديث من الجدري تفشى في فيزغاباتام. وقد نشرت نتائج التجارب في المجلة الهندية الطبية. ولكن الدكتور نير صرح بالخطر الذي يتصف به العالم ان النتائج لا يجب ان تؤخذ على انها حقيقة راهنة لقلة عدد المرضى الذين اجريت التجربة عليهم . ويفسر قلة عددهم بان الجدري في الهند يحسب مرضاً مقدساً ولذلك يرفض الاهلون العلاج لانهم يظنون العلاج عقباً. الا ان النتائج التي اسفرت عنها التجارب تحمل على النشاط في موالاة البحث في هذه الناحية. وكانت الحقن تختلف مقداراً باختلاف عمر المريض ونوع الجدري الذي أصيب به

رسالة من دارون

الى الدكتور فانديك

قبل وفاة العلامة دارون بستة عشر يوماً بعث برسالة الى الدكتور وليم فانديك نجل العلامة المرحوم الدكتور كرنيليوس فانديك احد الاساتذة الاول في جامعة بيروت الاميركية وصاحب المؤلفات العلمية النفسية باللغة العربية

والدكتور وليم الآن استاذ شرف لعلم الحيوان في جامعة بيروت

اما رسالة دارون الى الدكتور وليم فتاريخها ١٣ ابريل سنة ١٨٨٢ وهي في صدد بحث في علم الحيوان كان الدكتور وليم قد بعث به الى العلامة دارون لاطلاعه عليه . وملخص الكتاب انهُ بعد اطلاعه على البحث رأى وجوب نشره وقد بعث به الى مجلة المعهد العلمي مفضلاً نشره فيها على نشره في مجلة نايتشر - ولا يخفى ان طائفة من علماء الانكليز عنوا من سنوات بجعل بيت دارون في دَوْن متحفاً لآثاره ومخلفاته ودعت جميع الذين يملكون شيئاً من هذه الآثار الى اهدائها الى المتحف. فبعث الدكتور فانديك بهذا الكتاب ليضاف الى غيره من رسائل علامة التطور وآثاره

نقل لاسلكي عجيب

لصورة ملكم كبل

يعلم القراء ان السر ملكم كبل بلغ من اشهر بسيارته « الطائر الازرق » سرعة متوسطها ٣٠١ ميل في الساعة على مسافة ميل واحد ذهاباً وإياباً وكان ذلك في ولاية يوتاه الاميركية التي تبعد نحو الفي ميل عن مدينة نيويورك . وقد نقلت صورته وهو ماض بهذه السرعة باسلوب النقل اللاسلكي الى لندن عن طريق نيويورك ولكن جهازاً خاصاً في نيويورك تمكن من التقاط الصورة وهي في طريقها الى لندن . فكأن نيويورك ولندن تلقتا هذه الصورة في وقت واحد من مصدر واحد وباشارات لاسلكية واحدة . وكانت الصورتان واضحتين كل الوضوح

الجزء الخامس من المجلد السابع والثمانين

٥٢٥ ذَرْعُ الفضاء
٥٣٠ معجم الاستاذ فشر : للدكتور بشر فارس
٥٣٣ المال عند الاقدمين وعندنا : لامين الريحاني
٥٤٠ حالتان للنفس (قصيدة) : لعبد الرحمن شكري
٥٤١ التجارة الاسلامية وأثرها في الحضارة : للدكتور قسطنطين زريق
٥٤٩ مطاط من فاز
٥٥٤ الدوّامة الكونية (مصورة)
٥٥٨ الفيلسوف لوك وأثره في تطور فن التربية : لحسن كامل
٥٦٥ وقفة امام « ابي الهول » : لواجي الراعي
٥٦٨ موقعة غاتادين البحرية : للدكتور علي مظهر (مصورة)
٥٧٦ بيير لوتي على شواطىء البوسفور : ليوسف البعيني
٥٨٠ الاغراق في الثورات : لسليم خياطه
٥٨٧ ألفاظ الآلات الزراعية : للامير مصطفى الشهابي
٥٨٩ مفردات النبات بين اللغة والاستعمال : لمحمود مصطفى الدمياطي
٥٩٤ المتنبي (قصيدة) : للشاعر القروي
٥٩٧ مصلحة الآثار المصرية ودار الآثار المصرية (مصورة) : للدكتور حسن كمال
٦٠١ رسالة « السيرة الفلسفية » للرازي . لاحمد فؤاد الاهواني
٦٠٥ سير الزمان * الدين والنهضة الاخلاقية الحديثة : للدكتور عبد الرحمن شهبندر . المعقوبات الدولية (الادبية والمالية والاقتصادية)
٦٢٥ حديقة المقتطف * الحرب القادمة : لاوزبرت ستول . القاووزة اليونانية : للشاعر الانجليزي جون كيتس : ترجمها خليل هنداوي

٦٢٩ باب الزراعة والاقتصاد * سوامم الثلال . جهاز الرليفان
٦٣٣ باب المراسلة والمناظرة * في عمرة ابن . تصحيح خطأ . الجامع المختصر
٦٣٦ مكتبة المقتطف *
٦٤٨ باب الاخبار العلمية *